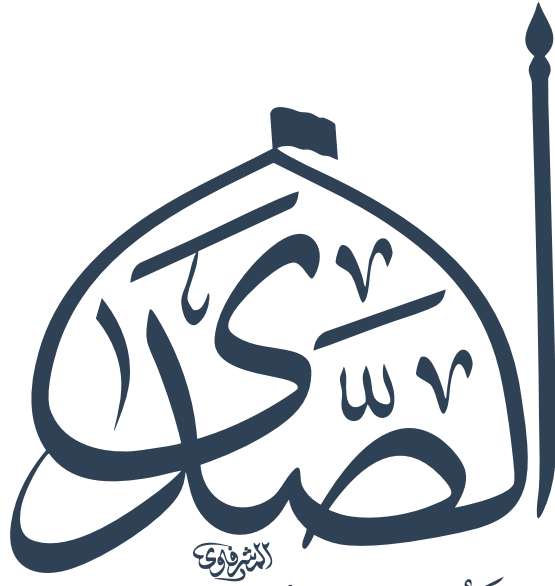




مَجَلَّةُ فِكْرِيَّةٍ نُصَفُ سَنَوِيَّةٌ

تصدر عن العتبة العباسية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَفَعَ الدِّينَ أَمْرُكُمْ
وَلَذِي رَأْفَةٍ الْعَالَمِ جَاءَ

صَدَقَ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ



غُرَابُكَ كَثْرَةُ الْجُمُحَاءِ



مَجَلَّةُ فِكْرٍ رَّيَّةُ رَصْفِ سَنَوِيَّةٍ



رئيس التحرير:
رضوان عبد الهادي

المشرف العام:
عقيل عبد الحسين الياسري

هيئة التحرير:
حيدر فائق
علي هاشم
احمد نعمة

مدير التحرير:
حيدر محمد صالح

المراجعة اللغوية:
رسول محمد

التصميم والاعراج:
مصطفى محمد

العدد الثاني والعشرون

فهرس المحتويات

- كلمة المركز ٦
- أبو طالب ؑ المؤمن الحقيقي ٨
- عيد الفدير والولاية لملي بن أبي طالب ؑ ٢٠
- أبهى صور العدالة في نهج الإمام علي ؑ ٣٤
- الإمام الحسن المجتبى ؑ وتفسير القرآن ٦٤
- الحسين ؑ منهاج الحرية ٨٢
- أبو الفضل العباس ؑ منازا للبشرية ١٠٨
- تحليل ودراسة دور الإمامين السجاد والباقر ؑ لتبيين موضع الإمامة استناداً للقرآن الكريم ١١٨
- الإمام الصادق ؑ ومواجهة التحديات الفقهية والفكرية ١٤٤
- الإمام محمد الجواد ؑ: المولود الأعظم بركة ١٦٠
- التعبير اللغوي في حكم الإمام علي الهادي ؑ ١٧٦
- الإمام المهدي ؑ في الموروث التفسيري للقرآن الكريم ١٩٦
- القرآن والمطهرون ٢٢٤
- حقوق أهل البيت ؑ على سائر الخلق ٢٤٠
- أسرار السماوات السبع والأرضون السبع ٢٤٠
- بطاقة شهر رجب ٢٦٠
- بطاقة شهر شعبان ٢٦٢
- بطاقة شهر رمضان ٢٦٤
- بطاقة شهر شوال ٢٦٦
- بطاقة شهر ذي القعدة ٢٦٨
- بطاقة شهر ذي الحجة ٢٧٠

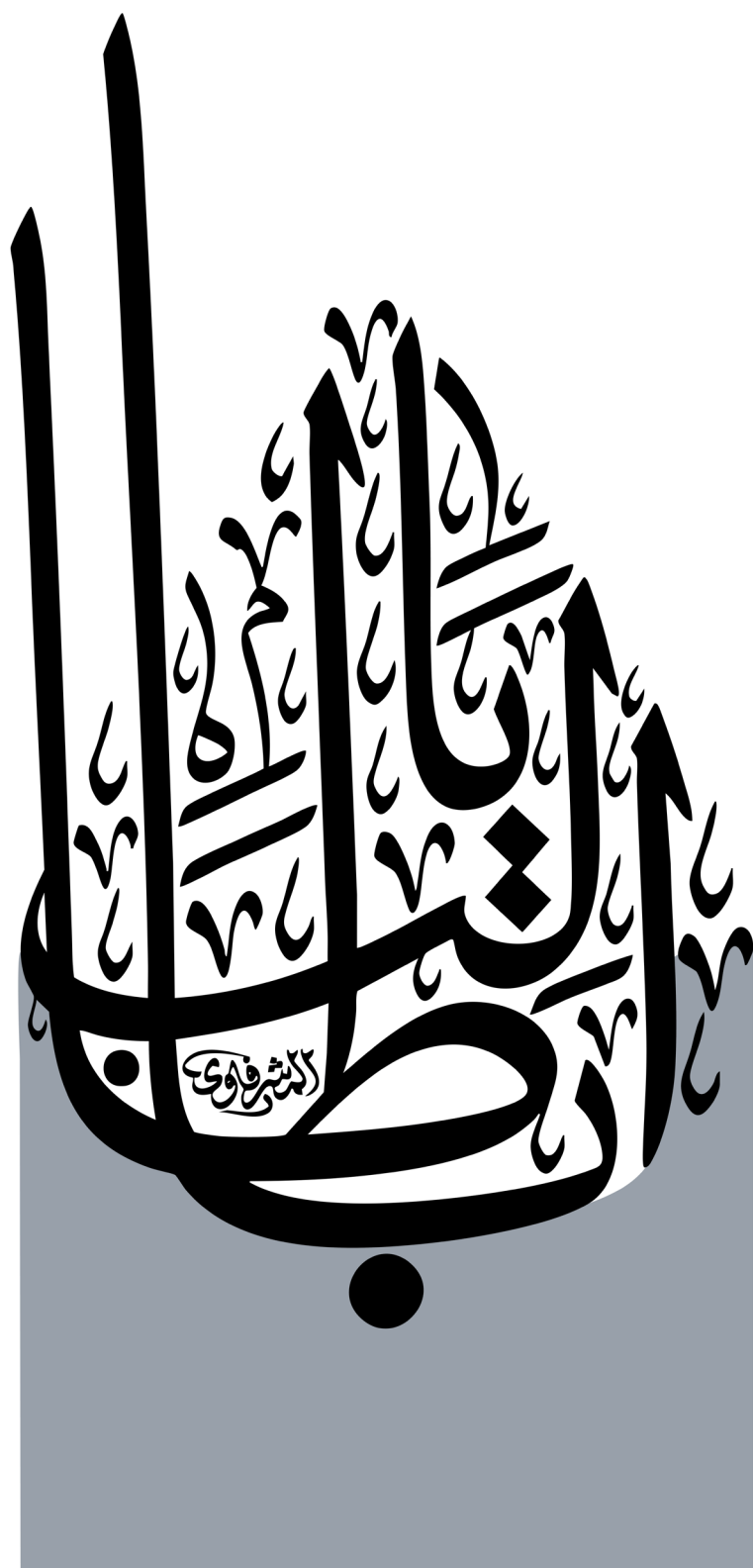
"قيمة الإنسان"

تهدف المجلة إلى نشر الفكر الأصيل والسليم في المجتمع من خلال استكتاب الأقلام العلميّة الرصينة، وكذلك نشر البحوث والمقالات التي كتبت لمؤتمرات علميّة وفق الاختصاصات والمحاور التي تصلح أن تكون مادةً علميّة تسهم في تغذية العقل بما ينتفع به، وليكون منهج النّشر هو أن تُقاس قيمة الإنسان بما يحمله من أفكارٍ في الأمور المعنويّة، فهو بواسطة هذا الفكر يتجاوز السّطحيّة؛ ليرقى إلى الدّرجات الإنسانيّة العليا.

والترقي المعنويّ لابن آدم إنّما يتحقّق بفضل تفكيره في الأمور الباقية، ولنا خير مثال على ذلك: هو نهج وطريقة إمام البلاغة والبيان الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة؛ حيث إنّها زاخرة بالمواعظ والحكم والدروس لمن أراد الفوز برضا الله تعالى.

في كل عددٍ من هذه المجلة ستناول موضوعاً مهمّاً عن الدّين الحنيف ويكون لشخصيّة علميّة بارزة، وكذلك نُسلط الضّوء على جانبٍ من الجوانب المنيرة في سيرة أئمة الهدى والصّلاح... نلتقي في العدد القادم دتمم في رعاية الله تعالى وحفظه.

رضوان عبد الهادي



أبو طالب عليه السلام المؤمن الحقيقي

سيد رضا القمي

سيرته الذاتية:

أبو طالب بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، عم النبي صلى الله عليه وآله،
ووالد الإمام علي عليه السلام.

وُلِدَ قبل الهجرة قبل نحوِ ثمانينَ ونيِّفَ^١ سنة، وكان اسمه عبد مناف^٢، ووفقًا
لبعض الروايات عمران، حيث قال صاحب كتاب عمدة الطالب: قيل: (إن اسمه
عمران وهي رواية ضعيفة رواها أبو بكر محمد بن عبد الله الطرسوسي النسابة،
وقيل اسمه كنيته)^٣، واشتهر بلقب "أبي طالب" نسبةً إلى ابنه الأكبر "طالب".

وكان أبو طالب رئيسًا لأسرة بني هاشم، وورث منصبتين هامتين، هما:
الرفادة (إطعام الحُجَّاج)، والسقاية (إمداد الحُجَّاج بالماء)، بعد أن نال
النبي محمد صلى الله عليه وآله النبوة، أخذ أبو طالب على عاتقه دعم ابن أخيه بكل ما
أوتي من قوة، وعندما فرضت قريش حصارًا اجتماعيًا واقتصاديًا على بني
هاشم، توجه مع المسلمين إلى شعب أبي طالب، وبعد انتهاء الحصار، توفي
في شهر ذي القعدة أو شوال من السنة العاشرة (أي قبل الهجرة بثلاث
سنوات) نتيجة ما تعرض له من آلام ومعاناة^٤.

١- النِّيفُ: الزَّائِدُ على العَقْد من واحدٍ إلى ثلاثة.

٢- المعجم الكبير للطبراني: ٩٢ / ١.

٣- بحار الأنوار: ١٣٨ / ٣٥.

٤- سيرة ابن هشام: ١ / ١٨٩. وأنساب الأشراف: ١ / ٨٥.

” كان أبو طالب معروفًا بين قريش بالسخاء، وبفضل حكمته وعدالته وقوة كلامه، كانت قبائل العرب في مكة تختاره للفصل بين المنازعات^٥، وكان في عصر الجاهلية يبتعد عن الأفعال القبيحة، وقد حرم على نفسه الخمر كما كان يفعل والده^٦.

لا شك في دعم أبي طالب المستمر للنبي ﷺ، لكن هناك خلافًا بين العلماء حول إيمانه بالدين الإسلامي.

دلائل إيمان أبي طالب:

يتمسك الشيعة الإثنا عشرية بإيمان أبي طالب بالإسلام، وهذه المسألة هي محل إجماع بين أهل البيت (عليه السلام) وعلماء الإمامية، كما يوافق على هذا الرأي معظم الزيدية، وبعض من شيوخ المعتزلة؛ مثل الشيخ أبو القاسم البلخي، وأبو جعفر الأسكافي^٧، وعدد من علماء أهل السنة؛ مثل أحمد زيني دحلان مفتي مكة (توفي عام ١٣٠٤ هـ) صاحب كتاب "أسنى المطالب في نجاة أبي طالب"^٨، ومع ذلك يعتقد معظم مؤلفي السير من أهل السنة أن أبا طالب توفي مشركًا.

لقد كانت مسألة إيمان أبي طالب موضوعًا طويلاً للنقاش بين العلماء الإسلاميين، فمنذ العصور الأولى تمّ تأليف كتب مستقلة حول هذا الموضوع، ومن بين هؤلاء؛ سعد بن عبد الله الأشعري القمي (توفي ٣٠١ هـ)، أبو علي الكوفي (توفي ٣٤٦ هـ)، أبو نعيم علي بن حمزة البصري

٥- سيرة ابن هشام: ٣٠ / ٢. وطبقات ابن سعد: ١٢ / ١.

٦- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢١٩ / ١٥.

٧- سيرة الحلبي: ١٨٤ / ١.

٨- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٦٥ / ١٤.

التميمي (توفي ٣٧٥ هـ)، أبو محمد سهل بن أحمد بن عبد الله الديباجي (توفي ٣٨٠ هـ)، أبو سعيد محمد بن أحمد بن حسين الخزاعي النيشابوري، الشيخ المفيد (توفي ٤١٣ هـ)، وأبو علي شمس الدين سيد فخار بن معد الموسوي (توفي ٦٣٠ هـ).

يمكن تصنيف دلائل إيمان أبي طالب إلى ثلاثة أقسام: المواقف العملية، والأقوال والأشعار، ووجهة نظر المقرئين منه، وذلك لأن النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ معصومون وآراؤهم حجة معتبرة، وهذه الأدلة، بالإضافة إلى الأدلة التي تنفي شرك آباء وأمهات الأئمة والأنبياء بشكل عام.

أولاً: المواقف العملية

كان أبو طالب شخصاً دعا زوجته فاطمة بنت أسد إلى الإسلام، وعندما رأى ابنه علياً ﷺ يقف على يمين النبي ﷺ ليصلي معه لم يعترض، بل أمره بمواصلة الصلاة مع النبي ﷺ. كما قال لابنه جعفر أن يصلي جنب رسول الله ﷺ على يساره^٩.

موقف آخر: عندما كان كفار قريش يخططون لقتل النبي ﷺ بسبب دعوته للإسلام، امتنع عن تسليمه لهم^{١٠}.

وهناك موقف آخر له وهو: عندما وقع الحصار الإقتصادي والإجتماعي على المسلمين، ذهب إلى شعب أبي طالب مع المسلمين، وتحمل العديد من الآلام والمصاعب هناك. وعندما أسلم أخوه حمزة، نظم أبي طالب شعراً في مدحه.

٩- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٣ / ٢٧٢.
١٠- أسد الغابة: ١ / ٣٨٧. وسيرة الحلبي: ١ / ٤٣٣.
١١- سيرة ابن هشام: ١ / ٢٦٧. وتاريخ يعقوبي: ٢ / ٣١.

وفي شعب أبي طالب، كان ينام ابنه علي عليه السلام مكان النبي صلى الله عليه وآله لحمايته من المخاطر، وكان يتحمل معاناة غربة ابنه الآخر جعفر عند هجرته إلى الحبشة. وهذه المواقف لا يمكن أن تكون ناتجة فقط عن الحوافز العاطفية أو غيرة القبلية، لأنه إذا كان محمد صلى الله عليه وآله هو ابن أخيه، فإن علياً عليه السلام هو ابنه، فلماذا يضحى بابنه من أجل ابن أخيه؟

” وحتى ابن أبي الحديد، رغم أنه لا يقدم رأياً قاطعاً حول إيمان أبي طالب، إلا أنه يعترف بفضل أبي طالب على الإسلام، ويقول: "ولولا أبو طالب وابنه * لما مثل الدين شخصاً فقاماً" ١٢.

“

ثانياً: الأقوال والأشعار

هناك العديد من الأقوال والأشعار التي نقلت عن أبي طالب في دعم النبي صلى الله عليه وآله، ويُقال: إنها تزيد عن الألف بيت، وهذه الأشعار تمّ جمعها في كتاب يُسمى "ديوان أشعار أبي طالب". رغم أن ابن أبي الحديد ١٣ لا يعتقد أنها متواترة لفظاً، إلا أنه يراها متواترة معنوياً في دلالتها على تصديق أبي طالب بنبوّة النبي محمد صلى الله عليه وآله.

ومن أشهر هذه الأشعار، قصيدته "لامية" التي يقول فيها:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْعَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
يَطِيفُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَضَائِلِ ١٤

١٢- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٤ / ٨٤.

١٣- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٤ / ٧٨.

١٤- الملل والنحل، الشَّهرستاني: ٢ / ٢٢١.

وفي مصدرٍ آخر، وردت هذه الأبيات بألفاظٍ أخرى لكنها تحمل نفس المعنى، قال:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
يَلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِي رَحْمَةٍ وَفَوَاضِلٍ^{١٥}
وفي شعرٍ آخر، ينقل ابن أبي الحديد:

لقد أكرم الله النبي محمداً فأكرم خلق الله في الناس أحمد
وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد
وقوله أيضاً، وقد يروى لعليٍّ (عليه السلام):

يا شاهد الله عليّ فاشهد

أني على دين النبي أحمد

من ضل في الدين فإني مهتد^{١٦}

وربما تكون الأبيات الأخيرة التي ذكرناها هي أكثر الأشعار صراحة في هذا الصدد.

١٥- السيرة النبوية، ابن هشام: ١ / ٢٧٢ و ٢٨٠.

١٦- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٤ / ٧٨.

ثالثاً: الشهادات من النبي وآله

كان النبي ﷺ يبكي بشدة عند وفاة أبي طالب، ودعا الله له بالمغفرة، حيث نقل ابن أبي الحديد المعتزلي ذلك الموقف في كتابه شرح نهج البلاغة، فقال:

قالوا: وقد جاءت الرواية: إِنَّ أبا طالب لما مات جاء علي عليه السلام إلى رسول الله ﷺ، فأذنه بموته، فتوجع عظيماً، وحزن شديداً، ثم قال له: امض فتول غسله، فإذا رفعته على سريريه فأعلمني، ففعل، فاعترضه رسول الله ﷺ وهو محمول على رؤوس الرجال، فقال: وصلتك رحم يا عم، وجزيت خيراً، فلقد ربّيت وكفّلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً، ثم تبعه إلى حفرة، فوقف عليه، فقال: أما والله لأستغفرن لك، ولأشفعن فيك شفاعة يعجب لها الثقلان^{١٧}.

وفي موضع آخر، قال ﷺ: (ما لقيته من أذى قريش أقل مما لقيته من مصيبة أبي طالب، فقد كان دعمي وسندي في دعوتي، وعندما كان أبو طالب حياً لم تستطع قريش أن تؤذيني)^{١٨}.

وعندما دفن أبي طالب قال: (يا عم، ربّيت صغيراً، وكفّلت يتيماً، ونصرت كبيراً، فجزاك الله عني خيراً)^{١٩}. وشارك النبي في تشييع جنازة أبي طالب، ووعد أن يشفع له يوم القيامة هو وزوجته وابنه^{٢٠}.

وعندما سئل الإمام زين العابدين عليه السلام عن إيمان أبي طالب، قال: (وا عجباً، إِنَّ الله تعالى نهى رسوله أن يقر مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات)^{٢١}.

١٧- المصدر نفسه: ١٤ / ٧٦.

١٨- السيرة النبوية، ابن هشام: ٢ / ٣٠.

١٩- تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٣٥.

٢٠- المصدر نفسه: ٢ / ٣٥.

٢١- شرح نهج البلاغة: ١٤ / ٦٩. الغدير: ٧ / ٣٨٠.

” كما سُئِلَ الإمام محمد الباقر عليه السلام عن إيمان أبي طالب، فقال: (إِنَّ أَبَا طَالِبٍ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، فَقَالَ: لَوْ وَضَعَ إِيمَانُ أَبِي طَالِبٍ فِي كِفَّةٍ مِيزَانٍ وَإِيمَانُ هَذَا الْخَلْقِ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى لَرَجَحَ إِيمَانُهُ. ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا عليه السلام كَانَ يَأْمُرُ أَنْ يُحْجَّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِيهِ أَبِي طَالِبٍ فِي حَيَاتِهِ، ثُمَّ أَوْصَى فِي وَصِيَّتِهِ بِالْحَجِّ عَنْهُمْ) ٢٢.“

دلائل منكري إيمان أبي طالب

جاء في كتاب البخاري، وطبقات ابن سعد عن سعيد بن المسيب، حيث يذكر فيها: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَبَ مِنْ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَقُولَ كَلِمَةَ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" عند وفاته لكي يتخذها حجة له عند الله، والرواية هي: (عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمِيَّةٍ وَأَبَا جَهْلَ بْنَ هِشَامٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَمَّ قُلْ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتُرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ؟ قَالَ: وَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْضُضُهَا عَلَيْهِ وَيَقُولُ: يَا عَمَّ قُلْ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَيَقُولَانِ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتُرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ؟ حَتَّى قَالَ آخِرَ كَلِمَةٍ تَلَكُمُ بِهَا: أَنَا عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ، ثُمَّ مَاتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا أَسْتَغْفِرُ لَكَ مَا لَمْ أَنَّهُ عِنْدَكَ"، فَأَسْتَغْفِرُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَوْتِهِ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ٢٣-٢٤.

٢٢- شرح نهج البلاغة: ١٤ / ٦٨.

٢٣- التوبة: ١١٣.

٢٤- الطبقات الكبرى لابن سعد: ١ / ١٢٢. وصحيح البخاري: ٢ / ٩٨.

في الرد على هذا الحديث، قيل: إِنَّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ كَانَ مَعْرُوفًا بَعْدَائِهِ لِعَلِيِّ عليه السلام، ولذلك لَا يُعْتَبَرُ قَوْلُهُ حُجَّةً، وَتَوْجَدُ أَيْضًا رَوَايَاتُ أُخْرَى حَوْلَ نَزُولِ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ؛ وَمِنْهَا مَا يَذْكُرُهُ عُلَمَاءُ أَهْلِ السَّنَةِ مِثْلُ الطَّيَالِسِيِّ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَأَحْمَدَ، وَالتِّرْمِذِيَّ، وَالنَّسَائِيَّ، وَابْنَ جُرَيْرٍ، وَالْحَاكِمَ، وَابِيهَقِي، وَالزَّخْمَشَرِيَّ، الَّتِي تُفِيدُ بِأَنَّ الْإِمَامَ عَلِيَّ عليه السلام قَدْ سَمِعَ شَخْصًا يَسْتَغْفِرُ لِأَبْوَيْهِ الْمُشْرِكِينَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، وَعِنْدَهَا نَزَلَتِ الْآيَةُ^{٢٥}.

علاوةً على ذلك، كيف يمكن أن يسمح الله للنبي صلى الله عليه وآله بالاستغفار لأبي طالب طوال هذه السنوات، ثم بعد ذلك يمنعه؟! هذا رغم أن النبي صلى الله عليه وآله كان قد علم منذ غزوة بني المصطلق بما ورد في الآية (٦) من سورة المنافقون من أن الاستغفار للمشركين لا يجدي، وكذلك ما ورد في الآية (٢٢) من سورة المجادلة التي تنهى عن صداقة المشركين.

فإذا غضضنا النظر عن هذه النقاط، وقبلنا حديث سعيد بن المسيّب، فإن قول أبي طالب: "على ملة عبد المطلب" لا يدل على كفره، لأن آباء النبي صلى الله عليه وآله جميعهم كانوا مؤمنين^{٢٦}، والمقصود من قول أبي طالب كان تورية وتقية، حيث كان يشير إلى كلمة التوحيد والدين الحق في مواجهة أبي جهل.

ومن جانبٍ آخر، ذكر مسلم^{٢٧} والبخاري^{٢٨} وآخرون أن الآية (٥٦) من سورة القصص:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

تتعلق بأبي طالب عندما جمع بني هاشم وأمرهم بالطاعة للنبي صلى الله عليه وآله ليكونوا فائزين.

٢٥- التفسير الكبير: ١٥ / ٢٠٨.

٢٦- التفسير الكبير: ٣ / ٤٢٢.

٢٧- صحيح مسلم: ١ / ٤١.

٢٨- الغدير: ٨ / ١٠.

وفي رواية أخرى: قال ابن إسحاق: (وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ

كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ:

يا بن أخي! ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: أي عم، هذا دين الله، ودين ملائكته ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم، أو كما قال ﷺ: بعثني الله به رسولا إلى العباد، وأنت أي عم، أحق من بذلت له النصحية، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه، أو كما قال، فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت) ٢٩.

الرد على هذا الاستدلال هو: إن هناك شأن نزول آخر لهذه الآية يتعلق بغزوة أحد، حيث كان النبي ﷺ يدعو الله لهداية قومه بعد أن شجَّ وجهه وكُسرت أسنانه، وبالتالي، فهذه الآية نزلت في تلك الحادثة ولا علاقة لها مباشرة بأبي طالب.

علاوة على ذلك، تظهر روايات مسلم والبخاري أن هذه الآية وآية أخرى قد نزلتا في وقت وفاة أبي طالب، لكن هناك اختلاف في تاريخ نزولهما بين مكة والمدينة.

ثم حتى إذا سلّمنا بصحة الحديث، فإن الآية لا تدل على عدم إيمان أبي طالب، بل تشير إلى أن إيمانه ليس مرهوناً بإرادة النبي ﷺ، بل بإرادة الله سبحانه وتعالى. كما أن قول أبي طالب "على ملة عبد المطلب" يمكن أن يكون تورية تعبيراً عن تمسكه بالتوحيد والدين الحق.

٢٩- السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ١٦٢-١٦٣.

وقد نقل حبيب بن أبي ثابت عن شخصٍ سمع من ابن عباس، وقال: "الآية: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^{٣٠} تتعلق بأبي طالب، حيث كان ينهى الناس عن أذية رسول الله ﷺ لكنه لم يدخل إلى الإسلام بنفسه، فعن حبيب بن أبي ثابت، عمن سمع ابن عباس يقول: (نزلت في أبي طالب، كان ينهى عن محمد أن يؤذي، وينأي عما جاء به أن يؤمن به)^{٣١}.

ورغم هذا الحديث، فإنه يعتبر ضعيفاً من عدة جهات؛
أولها: مرسلته.

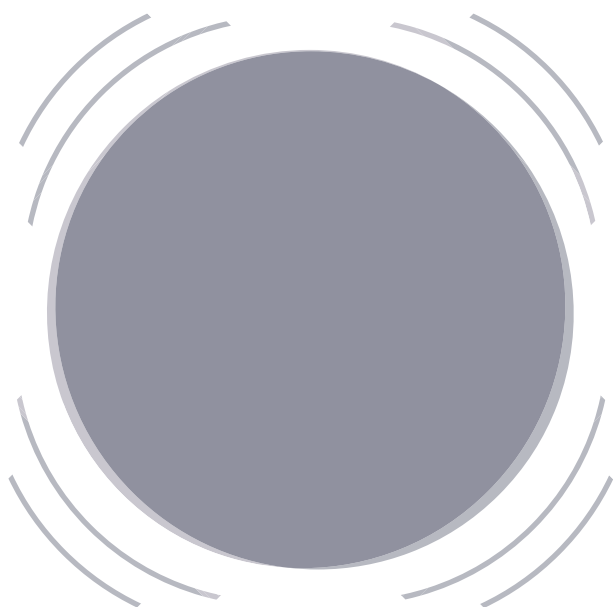
ثانياً: عدم وثاقة حبيب بن أبي ثابت الذي قال عنه ابن حبان: إنه مدلس.
ثالثاً: انفرد بنقله. كما أن الآية في سياقها تشير إلى المشركين الذين كانوا ينهون عن الإيمان ولكنهم لم يؤمنوا بأنفسهم، وهذا لا ينطبق على أبي طالب.
وأخيراً، نقل أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال بحق أبي طالب: (أمل أن تكون شفاعتي يوم القيامة مفيدة له، فهو في ماءٍ مغلي من النار حتى يصل إلى كعبيه، ثم يغلي حتى يصل إلى دماغه)^{٣٢}.

لكن هذا الحديث ضعيف بسبب بعض الرواة في السند؛ مثل سفيان الثوري، وعبد الملك بن عمير، إضافة إلى ذلك، هناك خصومة معروفة من المغيرة بن شعبة تجاه بني هاشم، خاصة علي (عليه السلام)، مما يجعل هذا الحديث ضعيفاً.

٣٠- الأنعام: ٢٦.

٣١- جامع البيان: ٧/ ٢٢٧.

٣٢- العلل ومعرفة الرجال: ١/ ٢٤٩.





عيد الغدير والولاية لعلي بن أبي طالب عليه السلام

علي الحسيني

تشكّل الإمامة ركناً أساساً من أركان العقيدة والكيان الفكري والاجتماعي للمسلمين، ولخطورة هذه المسألة وتأثيرها المباشر على سلامة المسيرة والشرعية الإسلامية كانت عناية الرسول ﷺ بالغلة واهتمامه واسعاً ومتواصلًا في بيان هذه المسألة، وتشخيص المستحق للإمامة من بعده، بالصفات تارة، وبالشخص تارة أخرى.

ذلك لأنّ الإمام يخلف النبي ﷺ في حفظ الرسالة، وبيان محتواها، والعمل بها، كما يحفظ وحدة الأمة وسلامة مسارها، ومن الثابت تأريخياً أنّ أول مسألة اختلف المسلمون فيها هي مسألة الإمامة، فقد حدث الخلاف بين المسلمين في سقيفة بني ساعدة في من يتولى شؤون الإمامة والخلافة، وجسد الرسول ﷺ الطاهر لما ينزل مسجى.

واستمر الصراع حول مسألة الإمامة والخلافة كأعمق صراع، وأكثر الصراعات أثرًا في حياة الأمة فكرياً وسياسياً واجتماعياً، وهذا الصراع ما كان له أن يحدث، وما كان لتلك الفرقة التي شقت صف الأمة على امتداد الأجيال، وأغرقتها بالمواجهة الدموية أن تقع بهذا الشكل الذي حدث، لو أنّ المسلمين تمسّكوا بما صدر عن النبي ﷺ من بيان وتشخيص في هذه المسألة، فقد حرص النبي ﷺ على مستقبل الأمة، وحفظ مسيرتها منذ بدء الدعوة فلم يكن ليدعها تتخبط في الفوضى والخلاف، وهو الحكيم المؤمن

على هذه الرسالة ومصير الأمة، الذي وصفه رب العزة بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة : ١٢٨ .

ولقد أَرخَ رِوَاةَ الحديث مسألة الإمامة وتشخيص الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) مستحقاً لها على لسان النبي ﷺ ومعيناً له، بدءاً من بداية الدعوة في حديث إنذار العشيرة، يوم جمع رسول الله ﷺ بني هاشم، ودعاهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، فنادى فيهم النبي ﷺ، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتي فيكم، فأحجم القوم إلا علياً، وهو أصغر القوم يومئذ حيث قام وقال: أنا يا رسول الله، فقال: أنت^١.

” ويسجل التاريخ والرواة، وعلماء السير أن أبرز حدث تأريخي في حياة الأمة قد حدث بعد رجوع النبي ﷺ من حجة الوداع حيث استوقف الحجاج قرب ماء يدعى غدير خم، وألقى فيه خطبته الشهيرة (خطبة الوداع)، التي جاء فيها: ... أيها الناس إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه..“^٢

وبهذا النص، وبالنص السابق، وبعشرات النصوص من الكتاب والسنة يثبت أن الإمامة والولاية مسألة تعيينية، وأنَّ علياً قد عين بهذا النص وبغيره من النصوص، في حين ذهب فريق آخر من المسلمين إلى تأوّل هذه النصوص، وحملها على غير ما تحمل من دلالة، ولقد كان نص الغدير من أشهر النصوص، وأكثرها أهمية في الفكر والمعتقد والتاريخ الإسلامي.

١- تاريخ الطبري: ٢/ ٦٣.

٢- المعجم الكبير: ٣/ ١٨٠.

وفي مسارات البحث والاستدلال يجد القارئ منهجاً جديداً في البحث،
وبُنية نظرية متكاملة في الصياغة والمقدمات والنتائج، وتوظيفاً فنياً ناضجاً
لأدلة العقل والنقل، وطريقة النقد والاستخلاص.

الاتجاهات الثلاثة في مسألة الإمامة

من خلال قراءة في تاريخ الفقه والكلام الإسلاميين نلتقي ثلاثة
اتجاهات وآراء، في مسألة الإمامة والولاية بعد رسول الله ﷺ، وهي: -

أولاً: نظرية انعقاد الإمامة بالغلبة والثورة المسلحة.

ثانياً: نظرية الاختيار.

هاتان النظريتان لجمهور أهل السنة.

ثالثاً: نظرية النص، وهي نظرية الشيعة الإمامية.

وفيما يلي نحاول إن شاء الله إلقاء نظرة على كل من هذه النظريات
الثلاث ونقدتها ومناقشتها.

أولاً - انعقاد الإمامة بالثورة المسلحة (الغلبة)

يذهب جمهور فقهاء أهل السنة إلى انعقاد الإمامة للحاكم بالثورة
المسلحة والسيطرة على مواقع القوة وإسقاط النظام بالقوة العسكرية، ولا
يحتاج انعقاد الإمامة حينئذ إلى عقد البيعة من قبل جمهور المسلمين أو من
جانب أهل الحل والعقل، وهذا مذهب معروف وقديم عند أهل السنة،
يقول أبو يعلى الفراء:

قال أحمد بن حنبل في رواية عبدوس بن مالك العطار: ومن غلب عليهم بالسيف، حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً برّاً كان أو فاجراً^٣.

ويقول التفتازاني في شرح المقاصد:

إذا مات الإمام وتصدى للإمامة من يستجمع شرائطها من غير بيعة واستخلاف، وقهر الناس بشوكته، انعقدت الخلافة له، وكذا إذا كان فاسقاً أو جاهلاً على الأظهر، إلا أنه يعصى بما فعل، ويجب طاعة الإمام ما لم يخالف حكم الشرع سواء كان عادلاً أو جائراً^٤.

ويقول الدكتور محمد رأفت عثمان:

وجمهور العلماء على انعقادها بهذا الطريق سواء أكانت شروط الإمامة متوافرة في هذا المتغلب أو لم تتوافر فيه، حتى ولو كان المتغلب فاسقاً أو جاهلاً انعقدت إمامته^٥، بل لو تغلبت امرأة على الإمامة انعقدت لها^٦، وكذا إذا تغلب عليها عبد^٧، وذلك لأن العلماء ينظرون إلى أنه لو قيل بعدم انعقاد إمامة المتغلب لأدى ذلك إلى وقوع الفتن بالتصادم بين المتغلب ومعاونه، وبين الإمام الموجود ومن يقف بجانبه، ولانتشر الفساد بين الناس بعدم انعقاد الأحكام التي صدرت عن هذا المتغلب، إذ يلزم عليه عدم صحة زواج من زوجها، لأنه لا ولي لها، وإن من يتولى إمامة المسلمين بعده عليه أن يقيم الحدود أولاً ويأخذ الجزية ثانياً.

٣- الأحكام السلطانية: ٢٣-٢٤.

٤- شرح المقاصد: ٥/ ٢٣٣.

٥- مآثر الإنافة في معالم الخلافة: ٥٨.

٦- إرشاد الساري للقسطلاني: ١٠/ ٢٦٣.

٧- مآثر الإنافة في معالم الخلافة: ٢٦٤.

ثانيًا - نظرية الاختيار

ذهب القائلون بهذه النظرية إلى انعقاد الإمامة باختيار أهل الحل والعقد من المسلمين^٨، واعتبروا هذا الاختيار كاشفًا عن إذن الله تعالى، وعلى هذا الأساس جعلوا اختيار الناس للإمام مصدرًا شرعية الولاية والإمامة.

وعلى هذا الرأي تنعقد الإمامة والولاية للحاكم بصورة فعلية وناجزة ببيعة جمع من أهل الحل والعقد يمثلون عادة إرادة مساحة واسعة من الأمة أو بيعة مباشرة من شريحة كبيرة من الأمة، بكيفية وكمية يعتد بها عادة في أمثال هذه المسائل التي يربطها الشارع بإرادة الجمهور، إذا كان الحاكم يستجمع الشروط التي يطلبها الشارع في الإمام، وإلى هذا الرأي يذهب جمهور فقهاء أهل السنة ومتكلميهم. وفيما يلي نذكر بعض كلمات أعلام الجمهور:

١ - رأي الماوردي:

يقول أبو الحسن علي بن محمد الماوردي المتوفى (٤٥٠ هجري): فإذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلًا، وأكملهم شروطًا، ومن يسر الناس إلى طاعته، ولا يتوقفون عن بيعته، فإذا تعين لهم من بين الجماعة من أداهم الاجتهاد إلى اختياره عرضوها عليه، فإن أجاب إليها بايعوه عليها، وانعقدت بيعتهم له الإمامة، فلزم كافة الأمة الدخول في بيعته والانقياد لطاعته^٩.

٨- شرح المقاصد: ٥ / ٢٣٤.

٩- الأحكام السلطانية للماوردي: ٧.

٢ - رأي القاضي عبد الجبار:

ويقول القاضي عبد الجبار المتوفى (٤١٥ هجري) في المغني: وإن أقام بعض أهل الحل والعقد إمامًا سقط وجوب نصب الإمام عن الباقيين، وصار من أقاموه إمامًا، ويلزمهم إظهار ذلك بالمكاتبة والمراسلة، لئلا يتشاغل غيرهم بإمام غيره، وقد وقعت الكفاية، ولئلا يؤدي ذلك إلى الفتنة، فعدم مبايعة سائر أفراد الأمة لا يؤثر في انعقاد الإمامة؛ لأنَّ العقد تم بمجرد مبايعة أهل الحل والعقد، ولا يكون العقد صحيحًا إذا لم يبايع الإمام أهل الحل والعقد^{١٠}.

٣ - رأي القرطبي:

ويقول أبو عبد الله القرطبي المتوفى (٦٧١ هجري) في الجامع لأحكام القرآن، الطريق الثالث لإثبات الإمامة، إجماع أهل الحل والعقد: وذلك أنَّ الجماعة في مصر من أمصار المسلمين، إذا مات إمامهم، ولم يكن لهم إمام ولا استخلف، فأقام أهل ذلك المصر الذي هو حضرة الإمام وموضعه إمامًا لأنفسهم، اجتمعوا عليه، ورضوه، فإنَّ كل من خلفهم وأمامهم من المسلمين في الآفاق يلزمهم الدخول في طاعة ذلك الإمام، إذا لم يكن الإمام معلنًا بالفسق والفساد؛ لأنَّها دعوة محيطة بهم تجب إجابتها، ولا يسع أحد التخلف عنها، لما في إقامة إمامين من اختلاف الكلمة وفساد ذات البين. قال رسول الله ﷺ: ثلاث لا يغفل عليهن قلب مؤمن، إخلاص العمل لله، ولزوم الجماعة، ومناصحة ولاة الأمر، فإنَّ دعوة المسلمين من ورائهم محيطة^{١١}.

١٠ - المغني في أبواب التوحيد والعدل: ٢٠ / ٣٠٣.

١١ - تفسير القرطبي: ١ / ١٨٥-١٨٦.

ثالثاً - نظرية النص وهي نظرية الشيعة الإمامية

فيما يلي نبحت إن شاء الله عن نظرية النص من حيث الجذور والأصول، وسوف نطلق في دراسة هذه النظرية من جذورها التوحيدية، ونواصل حلقات الموضوع بشكل متسلسل ومترابط إن شاء الله.

توحيد الحاكمية والسيادة:

الحق الذي اختص الله تعالى به لنفسه بالألوهية والربوبية هو: حق الحاكمية والسيادة في حياة الإنسان.

” وشرعية الولاية والحاكمية والسيادة في حياة الناس لا تنفك عن الملك والسلطان والتدبير والهيمنة التكوينية لله تعالى على الكون والإنسان، ومن يملك هذا الملك والسلطان والهيمنة بالتكوين، يملك شرعية الولاية والسلطان والسيادة في حياة الناس بالأمر والنهي. والعلاقة بين تلك وهذه علاقة بديهية بحكم العقل.“

ويقرر القرآن توحيد السيادة والحاكمية بصراحة ووضوح بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ الأنعام: ٥٧.

والآية الشريفة واضحة في حصر الولاية والحاكمية في الله تعالى، وتوحيدها فيه تعالى.

ويقول تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ القصص: ٧٠.

توحيد التشريع والولاية والسيادة في الله من مقولة واحدة:

هذه الحاكمية من خصائص الألوهية والربوبية، كما أنَّ حق التشريع من خصائص الألوهية والربوبية، وتوحيد الربوبية والألوهية يقتضي توحيد التشريع والسيادة لله تعالى في حياة الإنسان، وليس من شك أنَّ حق التشريع خاص بالله تعالى، ولا يحق لأحد في دين الله أن يشرع.

والتشريع محظور على كل أحد، إلا من يفوض الله تعالى إليه أمر التشريع، ولا يحق لأحد أن يشرع بتفويض من الله تعالى إلا عند وجود تفويض صريح من جانب الله، وليس فيما قلنا في أمر التشريع وانحصاره في الله تعالى وحظره على غيره تعالى في القرآن شك أو ريب، ودليل ذلك هو ما سبق من الآيات الشريفة الدالة على كفر وظلم وفسق الذين لا يحكمون بها أنزل الله.

وليس من وراء ذلك دليل آخر أقوى من هذا الدليل، وهذه الحجة القائمة على انحصار حق التشريع في الله، قائمة في أمر الولاية والسيادة والحكم أيضًا، ولا تزيد قيمة الحجة القائمة على أمر اختصاص التشريع بالله، وحظر التشريع على غيره إلا بإذنه، عن الحجج القائمة على اختصاص الولاية والسيادة والحاكمية بالله تعالى، إن لم تكن الحجة على الأخير أقوى.

وعليه فلا بدَّ في أمر الولاية والسيادة في حياة الناس من أحد أمرين : إما التفويض العام الصريح من الله أو رسوله، أو النص الخاص.

وإذا عرفنا انتفاء الدليل على التفويض العام الذي هو مبنى قاعدة الاختيار، فلا يبقى من أساس لشرعية الولاية والسيادة غير النص الخاص.

النصوص الخاصة بالولاية في القرآن الكريم:

الله تعالى هو وحده الذي ينصب أولياء من جانبه على الناس، ويأذن بولايتهم، ويأمر بطاعتهم، فتكون ولايتهم امتداداً لولاية الله تعالى، يقول تعالى :

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الأحزاب : ٦ .

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾ البقرة : ١٢٤ .

النص على إمامة إبراهيم عليه السلام وذريته:

يقول تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ البقرة : ١٢٤ .

هذه الآية صريحة في أن الله تعالى جعل إمامة الناس لإبراهيم عليه السلام ولمن لم يقترب ظلماً ممن يصطفيه الله تعالى للإمامة من ذرية إبراهيم عليه السلام.

” والإمامة هنا ليست هي النبوة والرسالة، فقد كان

إبراهيم عليه السلام نبياً يوحى إليه من الله قبل هذا الوقت وأرسله الله تعالى إلى قومه، ليدعوهم إليه وينقذهم من الشرك، وحباه الله تعالى بالإمامة في كبره، بعد ولادة إسماعيل وإسحاق عليه السلام، وبعد أن ابتلاه الله تعالى بالكواكب والقمر والشمس، وبالأصنام، وبالنار، وبالهجرة، وبذبح ابنه إسماعيل عليه السلام وهي امتحانات صعبة وعسيرة ابتلاه الله بها، فلما أتمهن إبراهيم عليه السلام جعل الله تعالى له الإمامة.

“

وليس من شك أن هذه الإمامة غير النبوة، فقد كان إبراهيم نبياً من قبل، وكان مطاعاً بحكم الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ النساء : ٦٤، فقد كان إذن من قبل أن تعهد إليه الإمامة من جانب الله نبياً ومطاعاً، فلا بد أن تكون الإمامة أمراً آخر غير النبوة والرسالة، والطاعة فيها غير الطاعة التي تتطلبها النبوة.

يقول العلامة الطباطبائي في تفسيره القيم (الميزان) ١٢:

والقصة إنما وقعت في أواخر عهد إبراهيم عليه السلام بعد كبره، وتولد إسماعيل وإسحاق له، وإسكانه إسماعيل وأمه بمكة كما تنبه به بعضهم، والدليل على ذلك قوله عليه السلام - على ما حكاه الله سبحانه بعد قوله تعالى له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ - : (ومن ذريتي)، فإنه عليه السلام قبل مجيء الملائكة ببشارة إسماعيل وإسحاق ما كان يعلم ولا يظن أن سيكون له ذرية من بعده، حتى أنه بعد ما بشرته الملائكة بالأولاد خاطبهم بما ظاهره اليأس والقنوط، كما قال تعالى :

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشْرُكُمْ نُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ نُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ الحجر : ٥١-٥٥ .

وكذلك زوجته على ما حكاه الله تعالى في قصة بشارته، إذ قال تعالى :

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يُعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ هود : ٧١ - ٧٣ .

١٢- تفسير الميزان: ١ / ٢٦٧-٢٦٨.

وكلامهما كما ترى يلوح منه آثار اليأس والقنوط ولذلك قابلته الملائكة بنوع كلام فيه تسليتهما وتطيب أنفسهما، فما كان هو ولا أهله يعلم أن سيرزق ذرية.

وقوله (عليه السلام): (ومن ذريتي) بعد قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قول من يعتقد لنفسه ذرية، وكيف يسع من له أدنى أدب من الكلام، وخاصة مثل إبراهيم الخليل في خطاب يخاطب به ربه الجليل أن يتفوه بها لا علم له به؟

ولو كان ذلك لكان من الواجب أن يقول ومن ذريتي إن رزقتني ذرية أو ما يؤدي هذا المعنى، فالقصة واقعة كما ذكرنا في أواخر عهد إبراهيم (عليه السلام).
لا يعهد الله تعالى الإمامة إلى من اقترف ظلمًا في حياته :

” وبالتأمل في آية (إمامة إبراهيم) نلتقي حقيقة أخرى غير جعل الإمامة للناس لإبراهيم (عليه السلام)، وهي حقيقة ذات أهمية كبيرة في مسألة الإمامة، وتلك الحقيقة هي أن الله تعالى لا يعهد أمر الإمامة العامة (الكبرى) للناس إلى من اقترف ظلمًا في حياته.“

فإن الآية الكريمة ذات فصلين، في الفصل الأول تنبئ عن أن الله تعالى جعل إبراهيم (عليه السلام) بعد أن أتم كلماته، إمامًا للناس، وفي الفصل الثاني تذكر الآية الكريمة أن إبراهيم (عليه السلام) طلب الإمامة من الله تعالى لذريته (قال ومن ذريتي) فأخبره تعالى أن عهد الله لا ينال الظالمين، فلا يحق لإبراهيم (عليه السلام) أن يطلب الإمامة للظالمين من ذريته، ولا ينال الظالمون الإمامة.

وكل تجاوز لحدود الله تعالى ظلم، وهذا حكم الله تعالى في حدوده وحرماته، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق: ١.

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة: ٢٢٩.

إذن القرآن الكريم يقرر حقيقتين هامتين:

الأولى: إِنَّ الإمامة وهي عهد الله ، لا تنال الظالمين .

والثانية: إِنَّ كل تجاوز لحدود الله ظلم .

ومن ضم هاتين النقطتين نصل إلى نقطة ثالثة وهي اشتراط العصمة في الإمامة، وهذه الآية الكريمة يستدل الشيعة الإمامية على اشتراط العصمة في الإمام، فإن الآية الكريمة تنفي الإمامة عن كل من قارف ظلمًا، وهذه هي (العصمة) بعينها، ولا دليل لنا لصرف عنوان الظلم عن ظاهره الذي يصرح به القرآن ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة: ٢٢٩ .

ويستدلون بهذه الآية على أَنَّ من قارف ظلمًا من (شرك) أو (ذنوب) فلا يناله عهد الله تعالى بالإمامة، وإن كان قد صدر منه هذا الظلم في فترة سابقة من حياته ثم تاب وحسنت توبته وصلاح .

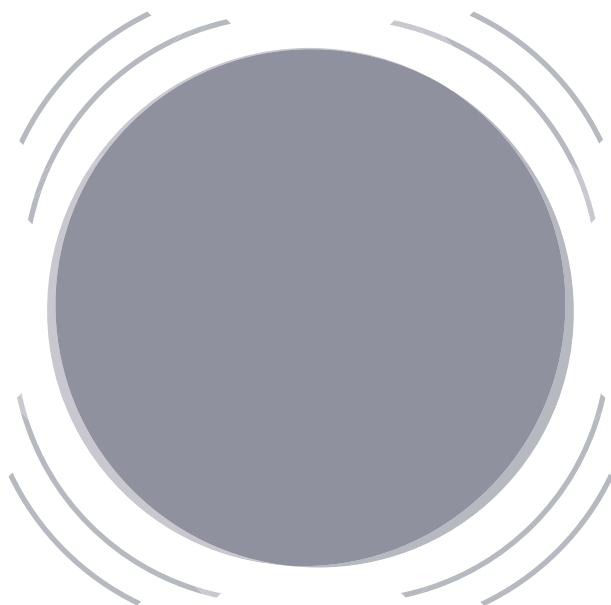
يقول العلامة الطباطبائي رحمه الله في تفسير هذه الآية: إنّ الناس بحسب القسمة العقلية أربعة أقسام :

- ١ - من كان ظالماً في جميع عمره .
- ٢ - ومن لم يكن ظالماً في جميع عمره .
- ٣ - ومن هو ظالم في أول عمره دون آخره .
- ٤ - ومن هو بالعكس من هذا .

وإبراهيم عليه السلام أجّل شأنًا من أن يسأل الإمامة للقسم الأول والرابع - إذا كان الظلم هو الشرك بالله أو ما يشبه الشرك - فبقي قسمان ، وقد نفى الله أحدهما وهو الذي يكون ظالماً في أول عمره دون آخره، فبقي الآخر وهو الذي يكون غير ظالم في جميع عمره^{١٣}.

كما يستدلون بهذه الآية على إناطة أمر الإمامة بالنص من جانب الله ورسوله وعدم الاكتفاء باختيار الناس، فإنّ العصمة إذا كانت شرطاً في إسناد الإمامة، فلا يمكن إناطة الإمامة إلى أحد إلا بالنص، لتعذر معرفة هذا الشرط على الناس.

١٣ - تفسير الميزان: ١ / ٢٧٧.



أبهى صور العدالة في نهج الإمام علي عليه السلام

دكتورة ريما حسين أمهر

من وقائع أسبوع الإمامة الدولي الأول

المقدمة:

لما طلعت شمس الأسرار من مطالع العناية، ولمعت بوارق الأسرار من مشارق الهداية، كان نور علي وعترته الهداة الأنجاء، الذين اصطفاهم الله عز وجل على الخلائق، وارفضاهم للغيب والحقائق، وجعلهم سبيله الهادي إليه، والطريق الدال عليه، وخصهم بالمقام الخاص، وجعلهم قنطرة الإخلاص، ونهج النجاة والخلاص، وجعل سائر الأنوار تشرق منهم وتشعشع عنهم، وأوجب محبتهم على العباد وجعلهم الذخر يوم المعاد، ولم يفرض لهم المودة إلا لأنهم نجوم الولاية، وشموس الهداية، لم يرتدوا عن الملة، ولم يفارقوا الكتاب والسنة، بل هم الكتاب والسنة، فهم سادة الأنعام، ومصايح الظلام، وكعبة الاعتصام، وذروة الاحتشام، وأمناء الملك العلام.

لذا فعلي عليه السلام نور أزي جلي، أوجده الله تعالى من نور عظمته، وروح قدسي أسبغ عليه من سبحات جلاله، وسر خفي خصه بسرّه وكرامته، فهو ولي الله الذي أقامه في الخلق مقامه، وهو عماد الأولياء، ودعوة الأنبياء، "فرقة إسرافيل، وعظمة جبرائيل، وهيبة آدم، وكرم الخليل، وشجاعة موسى، وسماحة عيسى، وحكمة داوود، وملك سليمان، ذرة من فخره،

وقطرة من بحر^١". وكيف لا يكون كذلك؟ وهو العلة في وجودهم، وسرّ موجودهم، فلولا ما دار فلك، ولا سبّح لله ملك، فالنّظر إليه عبادة، والموت على حبّه شهادة، وموالاته سعادة. وهو مصدر جميع ضروب الجمال، يتفجّر وجوده بالكمال، وتتشد في شخصيّته معطيات كالفيض تجري كأنّها في سباق، وتساند كأنّها أنداد: من العفة والصدق، إلى الزهد والجود والتّقوى والإيمان، والحقّ والعدالة، والحبّ والخلاص، والحزم والعزم... وهذه المواهب والصفّات والمزايا دعامة تثبت بها قيمة الإنسان. فأبّي إنسانٍ يُبصر كلّ هذا التألّق ولا يشدو قلبه إلى عليّ حبّاً وإيماناً؟ وأيّ إنسانٍ له عين بصيرة ويعمى عن ضوء الشّمس؟

من هنا اتّجهت النّفس متسامية نحو أمير المؤمنين (عليه السلام)، تبحث عن تلك الصّورة المشرقة والآفاق المضيئة التي أهّلته للدّخول في تاريخ الإنسانية من أبوابه العريضة. ولأنّ الإحاطة بشخصيّة هذا العملاق العظيم، وعرض كلّ الدّقائِق، وتفاصيل الحقائق أمر بعيد المنال، اكتفينا بالإضاءة على روعة قضائه، وإخلاصه للحقّ، وجهوده في إقامة العدل، وتبني قضايا المحرومين والباطسين. من هنا كان هذا البحث المتواضع ليتبّع خطوات الإمام (عليه السلام)، وهو يسنّ الأنظمة والدّساتير التي تحمل كلّ معاني السّموّ والرّقّي والتّقدير للإنسان، ليصنع مسار الأمّة على غفلة من التّاريخ الذي لم يمنحه إلّا بضع سنوات عجولة. فكان المنهج الموضوعي سبيلنا إلى المنهج التحليلي في هذه الدّراسة.

١- الحافظ رجب البرسي، مشارق أنوار اليقين في أسرار المؤمنين، ص ١٠٩.

وقد قسمنا هذا البحث إلى مقدّمة ومبحثين محوريّين وخاتمة. ذكرنا في المقدّمة أهمّيّة الموضوع وأسباب اختياره، وتناولنا في المبحث الأوّل نفحات موجزة من غير سيرة الإمام (عليه السلام)، وأشرنا في المبحث الثاني إلى لمعة ضوء من باهر عدالته ودلالاتها، ورشحة من روائعها ومراميهها، وباقية ريّانة من أزهير ملامحها وإشاراتها، علّنا نحمل فكرة جديدة عن هذه الشّخصيّة العجيبة المدهشة التي ضربت أروع الأمثال لأسمى الأفكار في أسمى النفوس من دنيا البشريّة، وعجز الدّهر أن يزعزعها أو يغيّر شيئاً من جوهرها. أمّا الخاتمة فقد كانت لذكر أهمّ النتائج التي توصّل إليها البحث، وطرح بعض التّوصيات.

المبحث الأوّل: أشعة من نور عليّ (عليه السلام)

ما عسانا نقول في غرّة فخر الأنوار، ودرة بحر الأسرار، قسيم الجنّة والنّار، اللّيث الهصور، والبطل المنصور، والبحر المسجور، والعلم المنشور، والسّيف البتور، الاسم الأعظم، والتّرياق الأكبر، السّراج الوهّاج، والسّيل والمنهاج، والماء الثّجاج، والبحر العجاج، والبدر المشرق، والغدير المغدق، والمنهج الواضح المسالك، والدّليل إذا عمت المهالك، مفزع العباد في الدّواهي، والحاكم والأمر والنّاهي، أمير الله على الخلائق، وأمينه على الحقائق، حجة الله على عباده، ومحجّته في أرضه وبلاده، إمام المتّقين، وديّان الدّين، وصاحب اليمين، وعلم المهتدين، قائد الغرّ المحجلين، وأبي الغرّ الميامين، القائم بالحقّ، الإمام المبين، أمير المؤمنين، الذي كمل بحبه الدّين، وقال بولايته أهل اليقين، ورجحت به الموازين، أسد الله الغالب، مولانا وسيّدنا عليّ بن أبي طالب، عليه أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم.

” ما عسانا نقول في عظيم من عطاء البشريّة أنتج
للناس فكراً هو من منطق الخير نقطة الدائرة.. في عقل جبار
اكتشف سرّ الإنسانيّة المتّصل اتّصالاً عميقاً بالشّعب الذي لم
يكن حكام زمانه وملوكه ليقيموا له وزناً، أو ليشعروا له
بوجود إلّا في نطاق ما يكون لهم سلماً ومطيّة. “

ما عسانا نقول في صدق العزيمة ومخائل الصّبر، وحكمة الشّيوخ
وعزم الشّباب، وصلابة العقيدة التي لا تجرحها الزّلازل، ولا يشوبها من
البراكين وهن.

ما عسانا نقول في ذكاء مفرط، ومنطق قويم، وحكمة نافذة، وعقل
محيط، وحسّ أصيل، وقوّة على الحصر والاستنباط والإيجاز.. في كلام دون
كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق.

ما عسانا نقول في عبقرية خاصّة في التّورّع عن البغي، والأخذ
بالحسن.. في تقوى هي شيء كثير من روح التّمرد على الفساد، وروح
الشّهادة في سبيل العدل... في فروسيّة تنطوي على ألوان الشّهامة والإباء
والترّفّع.. في مروءة أندر من أن يكون لها مثيل في التّاريخ.. في عدل هو
للناس تراث يشرف المكانة الإنسانيّة والروح الإنسانيّة.

ما عسانا نقول في أمير توافرت لديه أسباب السّلطان والثّروة فتمرد على
سلطانه لإقامة الحقّ في الشّعب، وأنكر من الثّروة إلّا ما يمسك عليه الحياة.

ما عسانا نقول فيه، والحديث عنه صعبٌ شاقٌّ، ثمّ هو أصعب إذا ما رامت
الكلمات أن تتسلّق ذراه الشّاهقة، وتطمع أن تكون خليقة بتلك الشّخصيّة المتألّفة.

” إِنَّ النَّظَرَ إِلَى شَخْصِيَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام المتوهّجة ، وما تحظى به في التاريخ الإنساني من جلالٍ وجمالٍ، محنةٌ للفكر، يقصر عنها الإدراك البشري، ويدقّ خفاها عن فهم الذّكي، فمن أين يقدر المتصدّي لها على الإحاطة بأقطارها، والخوض كما يجب في غمارها؟ وهل ذلك إلا طلب متعذّر، ومحاولة مستحيل؟! فكيف نعرف عليّاً، ونحيط به خيراً؟ وذلك بابٌ قد سدّ النَّبِيُّ عليه السلام طريق الوصول إليه، فقال وقوله الحقّ: " ما عرفك إلا الله وأنا، وما عرفني إلا الله وأنت، وما عرف الله إلا أنا وأنت ".

إِنَّ تَمَلِّيَ أبعاد هذا الرُّجُل الشَّاهِقِ يتطلّب طاقة لا تحتملها إلا الجبال الرّواسي، ويحتاج إلى لغةٍ أُخرى؛ لغة تتناهى في امتدادها حتى تبلغ الوجود سعةً، عساها عندئذٍ أن تؤلّف كلاماً يرتقي إلى مدى هذا الإنسان القدسيّ، ويكون جديرًا به.

فمنذ أن ولد في بيت الله عزّ وجلّ، أشرق البيت العتيق بأنوار محمّد عليه السلام ووصيّهِ الوليد، وانجلت قيم الحياة، وانطلق ضمير الوجود في محضٍ من الإنسانيّة المطلقة، وفي فيض من تمجيد الخير، وتمديد عناصر الفضيلة، فقد توفّرت السّانحة لتخلق في أكلح ليل طالت دجيّته فيه من الجهل والظلم والحيف ما يصمّ ويذلّ، رجلاً صار عليه السلام للمسلمين وغيرهم كضوء النّهار الباهر، والقمر الزّاهر، يستنبرون بنوره، فلا يقيمون دونه حدوداً وجدراناً، وصار طريق الله المستقيم، وحبله القويم، وراية الهدى، وعلم التّقى.

أطلّ على الدّنيا فوق حدودها وفوق مداها، فابتدأ الرّكيزة وشهق بها، حمل في يديه مصحف الرّسالة، مشعلاً لا ليتجاوز به نفوذ الجزيرة وربّعها الخالي وحسب، بل ليتجاوزها مع الشّمس إلى حيث ينبزغ الشّروق، وإلى حيث يرتطم الغروب.

٢- الحافظ رجب البرسي، مشارق أنوار اليقين في أسرار المؤمنين، ص ١١٢.

” لم يعتبر الرّسالة محض كلمات تتبختر بأساجيعها، بل هي مبانٍ يطلّ منها الوجود على الخلود، وتطوف في ردهاتها سحب الخيال، وتنهل على أرجائها خصائل الجمال، فهي للفكر تطوافه وارتياذه، وهي للروح أشواقها ومداهها، وهي مع الحياة برفقة العناء كفكفة العزاء^٣. فبرز وجهه ﷺ في هالة من رسالة، وفي ظلّ من نبوة فاضتا عليه انسجامًا واكتمالًا..“

كان أوّل من يشهد ولادة الرّسالة الجديدة، فكان أوّل المؤمنين، وأقوى المدافعين، وأشجع المناضلين، وأصمد المقتحمين، وأبلغ المحققين. لمح ما تلقّاه محمد ﷺ بعين الناقد البصير، وفقهه الفقه كلّهُ، فوصلت إليه هذه التّفحات، وغمرته تلك الإمدادات، فتوهّجت في قلبه الشّعلة التي لا تنطفئ أبدًا، وسرى في عروقه هذا الدّم الجديد، فكان اليد اليمنى لابن عمّه رسول الله ﷺ يحميه ويذبّ عنه في جميع الحروب التي شتتها عليه قريش، كان رفيق الدّرب والعمر والجهاد، بكلّ ما في الدّرب من وعورات، وبكلّ ما في العمر من أوصاب، وبكلّ ما في الجهاد من أثقال. لقد كان إلى جنبه في وحدة العيش، وفي وحدة المصير، وفي وحدة النّهج، وفي وحدة التّفكير ووحدة الرّوح. فترعرعت الرّسالة في ظلّ قلبه، وغرفت من فيض حجاه. ولا تزال الدّروب التي مشاها مع الرّسول ﷺ تشهد بثقل خطاه.

لقد كان لواؤه مع النّبّي ﷺ في كلّ قتال وكلّ زحف، وما كانت فروسيّته التي توزج معنى الشّهامة فيه، وما كان دمه وقلبه ولسانه إلّا وقفًا على ابن عمّه النّبّي ﷺ، وعلى إنجاح الرّسالة النّبويّة. فكان ليثًا جائلاً، وهزيرًا صائنًا، وغضبًا قاتلاً، في الملحمة الكبرى الأولى في تاريخ الإسلام، معركة

٣- سليمان الكتاني، نبراس ومتراس، ص ١٠٦.

٤- تاريخ الطّبري تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٢١٣.

بدر التي أسست لمرحلة جديدة أخرجت المسلمين من واقع الاستضعاف والقهر والتعذيب، إلى واقع القوة وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وكان غيثاً هاملاً، مليئاً لنداء الرسول ﷺ: "يا عليّ اكفني هذه الكتيبة" في معركة أحد، فلم يتزحزح ولم يتزلزل في الذبّ عن شخصيّة رسول الله ﷺ، والدفاع عنه.

كما ثبت كالجبل الراسخ أمام صناديد قريش يوم بلغ الفرع من أنصار النبي ﷺ وزلزلت قلوبهم وقعة الخندق، فكانت من عليّ عليه السلام البادرة التي أعادت إلى المسلمين الثقة بالنصر، وأذنت بهزيمة قريش وأبطالها، وأكبر بجهاده يوم فُتحت على يده حصون خير القويّة خدمة للعقيدة التي تحيا في دمه، وما كان أعجب أمره يوم نام في فراش النبي ﷺ ملتحفاً ببرده الحضرمي يقيه بنفسه من طواغيت قريش، بعد أن قرّرت قريش الإجهاز على الإسلام بقتل الرسول ﷺ، فغامر في سبيل عقيدته التي هي عقيدة محمد ﷺ، وفي سبيل الحقّ ورعاية الشرف والإخاء، تلك المغامرة التي لم يعرف التاريخ أجلاً منها وأقوى وأورع وأدلّ على وحدة الذات بين عظيم وعظيم.

ودونك تاريخ الإسلام في عصره في عهد الرسول ﷺ فأنعم النظر في صفحاته كي تحدّثك بفضل عليّ عليه السلام على الإسلام رسالة وأمة وتاريخاً.

وقد أدرك الرسول ﷺ هذه الحقيقة، فأولاه نفحات الاصطفاء من جهة، ومنحه الحبّ الخالص من جهة أخرى، وأتحفه بكنوز من العلم لا تقنى، وأضفى عليه من حلل الشّاء ما لا يبلى، واختصّه دون سواه بالحكمة وضروب المعرفة، وعلمه معالم الدين جملة وتفصيلاً، وحمله شطراً من رسالته، وعباً من ثقل أمانته، فلم يسنّ ﷺ أيّ سيف إلا وكان على مسنّ عليّ شحذه، حتّى روحه الكريمة ما أحبّ أن يقدّمها إلا على راحتيه، وهو يطرّحها على أحضان ربّه. ولم يكتفِ بأن يحبّه وحده، بل راح يحبّه إلى الناس في كلّ ظرف ومناسبة؛

٥- العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ١٢٨.

ليمهد له سبيل الخلافة، وقد لَحَّ النَّبِيُّ إلى ذلك بقوله: "هذا أخي ووليي، وناصري، وصفي وذخري وكهفي وصهري ووصيي وزوج كريمي وأمني على وصيتي، وخليفتي"^٦، "اللهم وال من والاه وعاد من عاداه"^٧، "وعلي مني وأنا من علي"^٨، "من أحب عليًا فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله"^٩، "أنت أخي في الدنيا وفي الآخرة"^{١٠}.

حتى إذا كانت حجة الوداع وإذا بالوحي يفاجئ النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^{١١}، وما هذا البلاغ الخطير إلا القيادة في نيابته لدى التحاقه بالرفيق الأعلى، والاستقرار بمقامه في إدارة شؤون الدين والدنيا. فلا بُدَّ من أن يتسم الإسلام بخليفة على مستوى الرسول ﷺ تشريعاً، وعلى مستوى الظرف قوة وعقلاً وتدبيراً، ولا بُدَّ للنبي ﷺ أن يعدَّ العدة وأن يفكر جدياً بمن يستطيع تحمّل هذا العبء الثقيل. فتنتهي حجة الوداع، ويتجه النبي ﷺ نحو المدينة حتى يصل إلى غدير خم، وينصب له منبر من أحداج الإبل عند الظهيرة، ويمتطي النبي صهوة المنبر، وهو يقول: "إني قد دُعيت ويوشك أن أجيب، وقد حان مني خفوق من بين أظهركم، وإني مخلف فيكم ما إن تمسكنم به لن تضلّوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيت، فإنهما لن يفرقا حتى يردا عليّ الحوض. ثم نادى بأعلى صوته: "ألست أولى بكم بأنفسكم؟ قالوا: اللهم بلى، فقال لهم -على النسق، وقد أخذ بضبعي عليّ ﷺ، رفعهما حتى بان بياض إبطيهما-: فمن كنت مولاه، فهذا عليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله"^{١٢}.

٦- الأربلي، كشف الغمّة في معرفة الأئمة، ص ٦٢-٦٣.

٧- أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ص ١٥.

٨- الحافظ ابن الطرياق، خصائص الوحي المبين، ص ١٤٥.

٩- الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ٣/ ١٣٠.

١٠- الشيخ الصدوق، الأمالي، ص ١٣٦.

١١- المائدة، ٦٧.

١٢- الشيخ المفيد، الإرشاد، ص ١٧٦.

”برز دور العقل الإنساني الرفيع عند عليّ عليه السلام، فلم يكن مندفعاً دون أناة، ومغامراً دون تحفظ، ومشرّعاً دون تفكير، ومبادراً دون إدراك، بل كان شجاعاً بدراية، ومقدماً مغواراً بنظام، يعمل فكره، ويهيئ أمره، بخطى سديدة ثابتة، مع دقة في الموازنة، وإصرار على الحق، فيضع الأمور في نصابها، مبتعداً عن المداجاة والمحاباة، متّسماً بالقصد والاعتدال، وتلك ملكات اكتسبها من رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان الصورة المعبرة عنه، والرجل الذي أعدّه لقيادة الأمة على سنته في الحرب والسلم معاً.

عاش بطلاً، لأنّه عرف حقيقة الإسلام، وحملها عقيدة ما حاد عنها أو تهاون أو تهادن أو تراجع، شربها طفلاً ويافعاً، وحملها شاباً وكهلاً، وسقط في سبيلها شيخاً شهيداً، مخضب الناصية، مشقوق الجبين.

وبطولاته ما اقتصرت يوماً على ميادين الحرب. فقد كان بطلاً في صفاء بصيرته، وطهارة وجدانه، وسحر بيانه، وعمق إنسانيته، وحرارة إيمانه، وسموّ دعوته، ونصرته للمحروم والمظلوم من الحارم والظالم، وتعبده للحق أينما تجلّى له الحق. وهذه البطولات ومهما تقادم بها العهد لا تزال مقلعاً غنياً نعود إليه اليوم وفي كلّ يوم كلّما اشتدّ بنا الوجد إلى بناء حياة صالحة فاضلة.

المبحث الثاني: العدالة في نهج الإمام علي (عليه السلام):

لوبيحثنافي مظان التاريخ وغضونه لما وجدنا شخصية تضارع شخصية أبي الحسن في مواهبه وعبقرياته، وسائر ملكاته التي استوعبت بشرف وفخر جميع لغات الأرض، وتحدث عنها العلماء بإكبار وإعجاب، ولا سيما قيادته السليمة، وعدالته الحكيمة، وبصيرته النافذة، وعزيمته الصادقة، ونيته الخالصة، وصراحته المدوية، وبطولته النادرة، تلك المؤشرات التي انفرد بها تاريخ الإمام بين تواريخ الأئمة الخلفاء، فكان له في حقوق الإنسان وغاية المجتمع جذورًا وآراء تمتد في الأرض وتعلو لها فروع، تدور على محور من رفع الاستبداد، والقضاء على التفاوت الطبقي بين الناس، فكان السيف المسلط على رقاب المستبدين الطغاة، والساعي في تركيز العدالة الاجتماعية والسياسية بآرائه، وأدبه، وحكومته، وسياسته، حتى أصبح اسم عليّ علمًا يلتف به كل مغصوب، وصيحة ينادي بها كل طالب إنصاف، ولكن قبل الولوج إلى هذا الرّوض المستطاب، والحديث عن هذا النهج الأشم، لا بدّ من الإضاءة على شرعية السلطة عند الإمام (عليه السلام)، لأن تلك الشرعية هي التي تعطي الحاكم ما له وما عليه من واجبات.

أولاً: شرعية السلطة:

تأتي الوصية التي لم يؤخذ بها في اختبار خلفاء الرسول (صلى الله عليه وآله) الذين عرفوا بالرّاشدين، على رأس السبل التي آمن بها الإمام (عليه السلام) قاعدة للشرعية. ووصوله إلى الحكم كما يرى، تعبير عن أنّ: "الآن إذ رجَعَ الحقُّ إلى أهلِهِ، ونُقِلَ إلى مُتَقَلِّهِ"^{١٣}؛ لأنّ لآل محمد (عليهم السلام) "خصائص حقّ

١٣- الإمام علي (عليه السلام)، نهج البلاغة، ص ٤٧.

الْوَلَايَةِ ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ"^{١٤}. وإذا لم تتح الظروف للوصية أن تتحقق، لم يرفض الإمام (عليه السلام) ما دونها رفضاً قاطعاً ونهائياً. وهو وإن قبل البيعة على مضض، "وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكُكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَ الْإِبِلِ الْهِيمِ، عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وَرْدِهَا"^{١٥}، إلا أنه تناول شورى المهاجرين والأنصار تناولاً ينم عن القبول بالحد الأدنى المتيسر، وذلك من خلال محاورة معاوية قال: "إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ - عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ"^{١٦}.

ومهما يكن من أمرٍ، فإنَّ شورى السَّقِيفَةِ التي نعاها أهلها وعدوها فلتة، "كانت عبارة عن تحبُّط شهد غيابها في اختيار الثاني، وتضييقها بشكل موجّه وغير حيادي في اختيار الثالث، واصطباغها بالنقمة على عثمان في اختيار الرابع، وهي لا يمكنها أن تجاري الزّمان؛ لأن المهاجرين والأنصار الذين تحدّد عددهم بالهجرة والنصرة، وانتهى، لن يعيشوا الدهر ليستمرّوا في الاختيار. وحين لا يكون هذا النوع من الشورى قادراً على مجاراة الزّمان يعني أنّه ليس الطّريقة المثلى في اختيار الخليفة، وسُيترك الأمر للمسلمين في العصور المقبلة لكي يحدّدوا شوراهاهم"^{١٧}. ويفسح هذا في المجال أمام المواضعة، وتجربة الخطأ والصّواب، ومصالح المشرّع لتتدخل ما استطاعت إليه سبيلاً.

وتبقى الوصية، الضّمانة التي انسجمت معها تصوّرات الإمام (عليه السلام) عن الشّريعة في مختلف دقائقها وتفصيلاتها وتأسست عليها. والوصية شبيهة

١٤ - الإمام علي (عليه السلام)، نهج البلاغة، ص ٤٧.

١٥ - المصدر نفسه، ص ٣٥٠.

١٦ - المصدر نفسه، ص ٣٦٧.

١٧ - علي زيتون، أدبيّة الخطابة الإسلامية نهج البلاغة أنموذجاً، ص ١٦٤.

بالنبوة في ارتباطها بإمكانات الموصى له^{١٨}. فهي لا تعني أي شخص وكيفما اتفق، لأن مهمات الخلافة الإسلامية غير عادية، والشخص المطلوب للقيام بأعبائها يجب أن يكون غير عادي أيضًا: "أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ، فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتَبَ، فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ"^{١٩}. وتواجه هذه المقولة مقولة معاكسة تقوم على إمكانية إمارة المفضول مع وجود الأفضل معتمدة على منطق يسوغ ما كان، مع أن ما يجب أن يكون هو المنطق السليم الذي يواجه مرحلة غير عادية بدقتها بشخصية مناسبة وغير عادية. والارتكاز على شورى جماعة مؤقتة الوجود، مع ما اعترى تلك الشورى من خلل سيفتح الباب أمام الانحراف بالخلافة من كونها خلافة رسول الله ﷺ لتصبح خلافة هذا الملك وذاك، وليس مصادفة أن ترتبط شرعية الوصية بشرعية الرجل الأقوى والأعلم.

” فالرجل المؤهل أكثر من كل الناس لسياسة أمور

الناس، والوصية المبنية على الأهلية العليا تعني أن الحاكم وكيلٌ ينفذ شريعة الله على الأرض. "ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقًا، افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَكَافُؤًا فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ، حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا لَأَلْفَتِهِمْ وَعِزًّا لِدِينِهِمْ"^{٢٠}.

١٨ - محمد طي، الإمام علي (عليه السلام) ومشكلة نظام الحكم، بيروت، ص ٤٨.

١٩ - الإمام علي (عليه السلام)، نهج البلاغة، ص ٢٤٨.

٢٠ - المصدر نفسه، ص ٣٣٣.

فحقوق الرّاعي هي بعض حقوق الله على الرّعيّة، وحقوق الرّعيّة بعض حقوق الله الأخرى على الرّاعي. فالقاعدة الحقوقية التي تحكم النظام السياسي الإسلامي عند الإمام (عليه السلام) قائمة على حقوق الله انطلاقاً من أنّ العالم ملكه وحده. وما مُنحناه منه هو هبة منه تعالى. وهذا طبيعيّ، فقد أطاح الإسلام بالوحيّة الحالكمة، وأعاد الشّريّة إلى نصابها، إلى الله^{٢١}. وتتجلّى هذه القاعدة الحقوقية أوضح ما تتجلّى في وصيّته إلى أحد عمّاله: "وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ"^{٢٢}.

فالأموال التي تستوفي من الرّعيّة ليست ضريبة تفرضها الدّولة تحت هذا الشّعار أو ذاك، ولكنّها حقوق الله المحدّدة المعروفة التي يستوفيها الحاكم ليصرفها في وجوه حدّدها الله تعالى أيضاً. والمطلوب من الرّاعي بناء على ذلك قال (عليه السلام): "وَلَا تُسْخِطِ اللَّهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْفاً مَنْ غَيْرِهِ"^{٢٣}؛ ولذلك أوصى (عليه السلام) مالك بن الحارث الأشتر حين ولّاه على مصر: "بِتَقْوَى اللَّهِ وَإِثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ"^{٢٤}.

وإذا كانت الوصيّة أساس الشّريّة عند الإمام (عليه السلام)، فإنّ جوهر الوصيّة قائم على مستويين؛ المستوى الأوّل: هو حقّ الله على عباده، إذ جعل "حقّه على العباد أن يُطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مُضاعفة الثّواب"^{٢٥}.

أمّا المستوى الثّاني: فهو إكمال حقوقه إلى البشر، حيث قال (عليه السلام): "ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً، افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَكَافُفِي وَجُوهٍهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ، حَقُّ الْوَالِي عَلَى

٢١- محمّد طيّ، ١٩٩٧، علي (عليه السلام) وقانون الطّواري، ص ٥٨.

٢٢- الإمام علي (عليه السلام)، نهج البلاغة، ص ٣٨٠.

٢٣- المصدر نفسه، ص ٣٨٤.

٢٤- المصدر نفسه، ص ٤٢٧.

٢٥- المصدر نفسه، ص ٣٣٣.

الرَّعِيَّةِ وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا لَأُلْفَتِهِمْ وَعِزًّا لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ^{٢٦}. وإذا كانت الطاعة أهمَّ حقوق الراعي التي عبَّرَ عنها باستقامة الرعية، فإنَّ أهمَّ حقوق الرعية على الراعي أن يرى في الإمرة أداة لإقامة الحق ودفع الباطل^{٢٧}.

❧ والإمام (عليه السلام) لم يقبل الإمرة لأنَّه ليس من عشاق الملك والسلطان، ولا ممَّن ينبغي الحكم لينعم في خيرات البلاد، بل هو ربيب الوحي الذي زهد في الدنيا، وعزف عن جميع رغباتها. فلمَّا آلت إليه الخلافة، وأشرقت الدنيا بحكومته التي هي امتداد لحكومة الرسول (صلى الله عليه وآله)، طلق الدنيا ثلاثاً، وعاش في أرياض يشرب والكوفة، فلم يبن له داراً، ولم يلبس من أطياب الثياب، وإنَّما كان يلبس لباس الفقراء، ويأكل معهم، وقد قيل له في ذلك فأجاب: "كَيْلًا يَنْبِغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ"، وهكذا انصرف عن الدنيا، ولم يعد لملاذها ومنافعها أي ظلَّ عليه^{٢٨}.

❧

لقد قبل الإمام البيعة لأنَّه رأى أنَّ من واجبه أن يتدارك أمر الإسلام، ويقطع دابر الفتنة، وإن كلفه هذا من التَّحَمُّل ما لا طاقة عليه لمحسن. وقد أعرب في أحاديثه عن الأسباب التي دعت له لقبول الخلافة، فقال (عليه السلام): "ولكنَّ أسفاً يعتريني، وجزعاً يربيني من أن يلي هذه الأمة سفهاؤها وفجَّارها، فيتخذون مال الله دولا، وعباد الله خولاً، والصَّالحين حرباً، والقاسطين حزباً"^{٢٩}، كما قال (عليه السلام): "والله! ما تقدَّمت عليها- أي على

٢٦- المصدر نفسه، ص ٣٣٣.

٢٧- ينظر: المصدر نفسه، ص ٧٩.

٢٨- القرشي، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب، ص ١٠٤.

٢٩- الدينوري، الإمامة والسياسة، ١/ ١٣٧.

الخليفة- إلا خوفًا من أن ينزو على الأمة تيس من بني أمية ، فيلعب بكتاب الله عز وجل...^{٣٠}.

لقد كانت الولاية في نظره عليه السلام: "بأبًا يلججه إلى إنصاف الناس، وإقامة أقصى ما يمكن أن يقام من أسباب المساواة بينهم، والإثابة على البلاء بقدر البلاء، والمنع من الاحتكار والاستغلال جهد ما يحتمل الزمان، وملازمة الحق ولو كانت هذه الملازمة طريقًا إلى هلاك الوالي على أيدي المفسدين، ثم توجيه الضمائر والعقول إلى الخير توجيهًا له أصول وقواعد ثابتة في خلق الوالي، وفي مسلكه"^{٣١}. فكان همه الوحيد أن يقدم النموذج الصحيح والصريح للحكومة الإلهية على الأرض.

ثانيًا: منهجه في العدل:

لقد كان المنهج الإسلامي واضحًا في اتجاه علي عليه السلام، فكان منهجه في العدل كمنهج رسول الله عليه السلام، وقد أكد الرسول عليه السلام ذلك بقوله: "كفي وكف علي في العدل سواء"^{٣٢}. و"يدي ويد علي بن أبي طالب في العدل سواء"^{٣٣}. و"إنه أوفاكم بعهد الله تعالى، وأقومكم بأمر الله، وأعدلكم في الرعية، وأقسمكم بالسوية، وأعظمكم عند الله مزية"^{٣٤}.

كان في حكومته المثل الأعلى للحاكم الواعي لحقوق الإنسان، فكان يحكم بما أنزل الله تعالى، ويوصي عماله بالحكم بذلك، وكان يرى أن الحاكم مقيّد بعدد من القيود الشرعية التي لا يمكن التّنكّر لها مهما كانت الظروف، فقد واجهته أحداث كبار، جرّت إليه حروب كبار أيضًا، وتعرّض فعلاً لحالات

٣٠- البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ١٠٣.

٣١- جورج جرداق، صوت العدالة الإنسانية، ص ١٣١.

٣٢- ابن المغزلي، مناقب علي بن أبي طالب، ص ١٢٩-١٣٠.

٣٣- المصدر نفسه، ص ١٢٧.

٣٤- الحموي، فرائد السمطين، ص ١٧٦.

من الضيق والشدّة، فبين إسلام يندفع وعقيدة تدال، وجور يتسلّط، أتى الإمام (عليه السلام) وهو المواعب لكلّ تلك الأحداث الجسام، وكان أمام تجربة قاسية، فقد اجتمع الأمر والنهي بيد طغمة فاسدة، وعصابة متسلّطة لا ترعى ذمّة ولا تكثر بعقيدة، وبلي بجبروت الناكثين، وتهوّر المارقين، وطغيان القاسطين، إلّا أنّه بقي محافظاً على التعاليم الإلهيّة، ولم يحدث نفسه بخرقها، وهانت عليه كلّ القساوات إلّا قساوة القعود عن إشاعة العدالة وروح الحرّيّة، والعمل على زرع الفضائل الخلقيّة التي تصون هذه الحرّيّة وهذه العدالة، فلم يجد عن الطّريق التي ارتضاها مسلكاً له. ولم يترك الإنسان سدى، والوازع الدّيني يدعو أن يمسك الأمر ما استمسك، فساس الناس في شدّة مؤدّبة، وقادها في سير حثيث على المحجّة الغراء. وقد أكّد ذلك في كلمته المشهورة: "والله لو أعطيت الأقاليم السّبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته" ٣٥.

أمّا القيود والحقوق التي ألزم الإمام (عليه السلام) نفسه بها، وألزم كلّ حاكم إسلامي بها، وأكّد عليها لتحقيق العدالة وصيانة وحماية إنسانية الإنسان، فهي عديدة وكثيرة، اكتفينا بذكر أبرزها:

الحق في الحياة

لقد كان الحكّام في السّابق يتصرّفون على أنّهم المالكون لأرواح النّاس، فكان لا يمنعهم مانع من قتلهم، أو التّضحية بأرواحهم بإرذلتهم الخاصّة، ولكنّ الأديان السّماويّة أتت لتضع حدّاً لهذا الحقّ المزعوم، معتبرة أنّ الله هو ربّ البشر لا الملوك والأباطرة، فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ ٣٦. وأكّد ذلك الرّسول (عليه السلام) بتشدّده في حرمة دم المؤمن، وهذا ما تقيّد به علي (عليه السلام)، وأمر عمّاله أن يتقيّدوا به.

٣٥- الإمام علي (عليه السلام)، م. س. ص ٣٤٧.

٣٦- النّساء، ٩٢.

” يقول ﷺ في عهده لملك الأشتر عندما ولّاه على مصر:

"إِيَّاكَ وَالْدَّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ وَلَا أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ، وَلَا أُخْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ، مِنْ سَفْكِ الدَّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئُ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدَّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا تُقَوِّنَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ، وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ، لَأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ"^{٣٧}. وهذا مبدأ طبقه عليّ ﷺ بكل دقة، حتّى مع الخوارج، فكان يقول لهم: "ولا نَبْدُوكُمْ بِحَرْبٍ حَتَّى تَبْدُؤَنَا بِهِ"^{٣٨}.

لم يتيقّد الإمام ﷺ بحرمة دم المسلمين فحسب، بل بدماء أهل الذمّة أيضاً، فكان يوصي ملك الأشتر بالرحمة بالنّاس، مسلمهم وذميهم بقوله:

"وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ؛ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخُلُقِ"^{٣٩}. وقد أوصى ابنه الحسن ﷺ بأهل الذمّة بقوله: "الله الله في ذمّة نبيّكم، فلا يظلمن بين أظهركم"^{٤٠}.

وهكذا، كان الإمام ﷺ يتشدّد في الحفاظ على حياة النّاس، ولا يسمح سفك الدّماء إلّا عندما يكون ذلك تنفيذاً لأمر الله تعالى، كما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا...﴾^{٤١}، فلا يجوز القتل إلّا في حالات الدّفاع عن الجماعة أو عن الدّين.

٣٧- الإمام عليّ ﷺ، نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد، ص ١٥٩.

٣٨- المصدر نفسه، ص ١٢١.

٣٩- المصدر نفسه، ص ١٢٠.

٤٠- الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ١٤٨.

٤١- المائدة، ٣٣.

الحق في المساواة

تبنّى الإمام في جميع مراحل حكمه المساواة والعدالة بين الناس، فليس هناك ما هو أحبّ على قلبه من أن يقيم حقاً، وينشر عدالة على أساس لا يتزعزع من رأيه في الحقّ والمساواة وموضوعاتها، فلا امتياز لأيّ أحد على غيره إلا بالتقوى.

لقد اعتبر الإسلام الناس متساوين في دمائهم، حيث يقول الرسول ﷺ: "المؤمنون أخوة تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم"^{٤٢}. كما اعتبرهم متساوين في سائر حقوقهم، حيث يعتبرهم الرسول ﷺ سواسية كأسنان المشط. وقد كافح الإمام علي عليه السلام من أجل ترسيخ هذا المبدأ، في زمن كانت القبليّة والوجاهة قد استعادت من أنفاسهما ما كان الرسول ﷺ قد أخمدته. وكلّ ذلك ليؤسّس لمجتمعٍ صحيح، سليم ومعافى، بعيد عن الفوارق الاعتبارية التي يعززها البعض بهدف الاستعلاء والتميّز عن الآخرين والانتقاص من القيمة الإنسانية لمن هم دونهم موقعاً اجتماعياً ومعرفياً وما إلى ذلك. ومن مظاهر المساواة عند الإمام عليه السلام:

المساواة أمام القانون:

لعلّ أهمّ مقومات العدالة عند الإمام عليه السلام أن يكون جميع الناس سواسية أمام الحاكم. وهذا ما وضعه الإمام عليه السلام في رأس حساباته، فقد أقسم لأحد عمّاله الذي أساء الأمانة وتصرّف بأموال المسلمين: "لو أنّ الحسن والحسين عليه السلام فعلا مثل الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هودة، ولا ظفراً منّي بإرادة حتّى آخذ الحقّ منهما"^{٤٣}. وإذا كان الأولاد فتنة يفتن بها الإنسان

٤٢- ابن حنبل، المسند، ٣/ ٣٩٨.

٤٣- الإمام علي، نهج البلاغة، ص ٤١٤.

العاديّ، ويضعف حيالها، فإنّ المطلوب من الحاكم العادل ألا يقع في فخّ هذه الفتنة فيتبع هواه؛ لأنّ الوالي على حدّ تعبير الإمام عليه السلام: "إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيرًا من العدل، فليكن أمر الناس عنده في الحقّ سواء"٤٤.

المساواة في الحقوق:

ولتكون العدالة كاملة ينبغي ألا يتساوى المحسن والمسيء، والضعيف والقويّ تحت ظلّها، وينبغي الاعتراف لذي الحقّ بحقه، فالناس في الحقوق سواء، لا محاباة ولا إجحاف بضعيف وهذا ما يشجّع على الخير، وينحو بالمجتمع نحو صلاحه الأمثل، حيث قال عليه السلام: "إنّي عارف لذي الطاعة منكم فضله، ولذي النصيحة حقه غير متجاوز متهمًا إلى بريء، ولا ناكثًا إلى وفي"٤٥. وإشارة الإمام عليه السلام إلى ذلك تعبير عن خطأ كان يمارس قبله، فولاة بني أميّة كانوا يرون في أهل العراق رؤوسًا أينعت وحن قطافها، بقطع النّظر عن هذه الرؤوس، محسنون هم أم مسيئون، حتّى أنّ زياد قد أقسم قائلاً: "لأخذنّ الوليّ بالمولى، والمطيع بالعاصي"٤٦.

المساواة في العطاء:

لقد تجلّت المساواة عند الإمام عليه السلام بأوضح ما تجلّت في مسألة العطاء، فساوى في العطاء بين المسلمين وغيرهم، ف"لم يقدّم عربيًّا على غيره، ولا مسلمًا على مسيحي"٤٧، ولا قربيًّا على غيره، فاستهدف في منطلقاته الحقوقيّة الإنسان بمعزل عن أيّ تصنيف فرضته الظروف الاجتماعيّة، والتاريخيّة، والثقافيّة، والمذهبيّة.

٤٤ - المصدر نفسه، ص ٤٤٩.

٤٥ - المصدر نفسه، ص ٣٩٠.

٤٦ - زياد بن أبيه، جمهرة خطب العرب، ص ٢٧٥.

٤٧ - اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٢٩/٢.

” على هذا الضوء واجه الإمام عليه السلام بشدة أسلوب المداينة والتلون في إدارة شؤون المجتمع، فيما كانت تمثله السياسة الأموية. فبعد أن وزع عمر العطاء بشكل غير متفاوت، وقسم المسلمين إلى طبقات على أساس النسب والسابقة، أعاد الإمام عليه السلام في فترة حكمه المساواة بين الجميع في العطاء، بين العربي والأعجمي، وبين سيد القوم وسائر الناس، وبين من أسلم حديثاً وأسلم قديماً، تماماً كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وآله. وحدد أصحاب العطاء فقال عليه السلام: "ألا إنه من استقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، وشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أجرنا عليه أحكام القرآن وأقسام الإسلام"^{٤٨}.

“

ثم حدد كيفية التوزيع، فقال عليه السلام: "فأما هذا الفيء فليس لأحد فيه على أحد أثره، قد فرغ الله عز وجل من قسمه، فهو مال الله وأنتم عباد الله المسلمون"^{٤٩}.

ولما احتج القوم قال عليه السلام: "لو كان المال لي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ"^{٥٠}. وقد طبق هذا المعيار على خاصة أهله، فهذه ابنته أم كلثوم التي أرادت أن تستعير عقداً من صاحب بيت المال، فردّه علي وقال لها: "ليس لي ذلك من سبيل حتى لا تبقى امرأة من المسلمين إلا ولها مثلك مالك"^{٥١}.

على أن المساواة في العطاء لم تكن عند الإمام عليه السلام إلا الأنموذج للمساواة في كل الأمور، فقد أدرك علي عليه السلام بصائب فكره، وسلامة فطرته، أن كل عدالة لا تستهدف كل الأمور، فهي عدالة لا قيمة لها.

٤٨- محمد باقر الحمودي، نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، ص ٥١٤.

٤٩- المصدر نفسه، ص ٢١٥.

٥٠- الإمام علي عليه السلام، شرح نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد، ص ١٨٣.

٥١- حسين النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ٩٤/١١.

حقّ الحرّية:

يحرص الإسلام على تأمين الحرّية للناس جميعاً، لعربيّهم وعجميّهم، أبيضهم وأحمرهم وأسودهم، ويمنع الظلم والتّعسف. والحرّية هي الخطوة الأولى في سبيل تحقيق العدالة واحترام حقوق الأُمَّة، بيد أن المراد منها هو الحرّية البناءة لا الهدّامة، حرّية الانعتاق من أسار القيود الدّاخلية (الدّاتيّة) والأغلال الخارجيّة. هذه الحرّية هي نفسها التي دعا القرآن إليها النّاس، في قوله سبحانه: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^{٥٢}.

وهذا ما طبّقه عليّ عليه السلام حين تسنّى له أن يطبّقه، ففي المنهج العلوي النّاس أحرار بأجمعهم، ولا يسوغ أن يكونوا عبيد غيرهم، وأنّ ما يجرّ الإنسان إلى نير العبوديّة، ويدفع الأنظمة إلى التّجبر والتّسلّط والطّغيان، هي الأغلال الدّاخلية والعبوديّة الباطنيّة. فإذا ما أراد المجتمع الإنساني أن يرتقي ذرى الحرّية، ويبلغ الاستقلال الحقيقي، فيتحتّم عليه في البدء أن يحكم الارتباط بالله، ويقوم بشروط العبوديّة لله بحسب تعبير أمير المؤمنين.

إن شروط العبوديّة لله هي في الحقيقة قوانين الحرّية الواقعيّة للنّاس، وإذا لم تذعن الإنسانيّة إلى هذه الشّروط، فستغدو حرّيتها واستقلالها الخارجيّ حالة مؤقتة؛ وهي عائدة إلى العبوديّة حتّى^{٥٣}.

حقّ المملكيّة الخاصّة:

كانت المملكيّة الخاصّة مصونة في رأي الإمام عليه السلام، فلا يجوز للسلطة ولا لغيرها الاعتداء عليها. ذلك أنّ "أعظم الخطايا اقتطاع مال امرئ مسلم أو غير مسلم بغير حقّ"^{٥٤}. لذلك كان عليّ عليه السلام يوصي عمّاله بالقول:

٥٢- الأعراف، ١٥٧.

٥٣- محمّد الرّيشهري، موسوعة الإمام عليّ عليه السلام في التّاريخ والسّنة، ص ٣٤.

٥٤- حسين الثوري، مستدرک الوسائل ومستنبط المسائل، ٦ / ٣٤١.

"ولا تمسّن مال أحد من الناس مصل ولا معاهد"^{٥٥}. كما كان يؤكّد كلّ ذلك بقوله لقادته: "ولا تستأثرنّ على أهل المياه بمياههم، ولا تشربنّ مياههم إلّا بطيب أنفسهم، ولا تظلمنّ معاهدًا ولا معاهدة، ولا تسخرنّ بغيرًا ولا حمارًا وإن ترجّلت وحبست"^{٥٦}.

المال العام وتطبيق العدالة:

لقد لامست عدالة الإمام عليه السلام الأمور الماليّة بشفافيّة ونقاء متناهيين. فالمال الذي يستوفى من الرعيّة مال الله^{٥٧}، ولذلك شدّد النكير على من يخون من فيء المسلمين ولو كان شيئًا صغيرًا. ودعا إلى التعامل مع المكلفين بمتنهي النزاهة والحرص على الحقّ، حتّى أنّه كان يوصي عند تحصيل الحقوق العامّة أن يصار إلى ذلك بالتّؤدة واللين دون استعمال أي نوع من أنواع العنف على الأشخاص والأموال، فهو يقول لرجل من ثقيف استعمله على الخراج: "إياك أن تضرب مسلمًا أو يهوديًا أو نصرانيًا في درهم خراج، أو تبيع دابةً يحمل عليها في درهم. فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو"^{٥٨}.

”كما كان يطلب من يستعمله على الصدقات أن يقول:

عباد الله، أرسلني إليكم وليّ الله وخليفته لأخذ منكم حقّ الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حقّ فتؤدّوه إلى وليّه، فإنّ قال قائل: لا، فلا تراجع"^{٥٩}. ولئن دلّ ذلك على شيء إنّما يدلّ على ثقة كبيرة بالإسلام والمسلمين، وحرص على أن يشعر كلّ مسلم بمسؤوليّاته وواجباته، فيقوم بها من دون إكراه.

٥٥- أبو يوسف، الخراج، ص ١٦.

٥٦- نهج السّعادة، ٥/ ٣٧٠-٣٧١.

٥٧- ينظر: نهج البلاغة، ص ٣٦٦.

٥٨- الكليني، فروع الكافي، ٣/ ٥٤٠.

٥٩- الإمام علي، نهج البلاغة، ص ٣٨٠.

لم تكن العدالة المطلوبة عند الإمام عليه السلام عدالة شكلية همها المحافظة على المظاهر، بل كانت متوغلة في عمق الحياة همها المحافظة على حق الرعية ما ظهر منه وما بطن، والمحافظة على حق الله والمسلمين، ما ظهر منه وما بطن. من هنا أوصى الإمام عليه السلام الأشرع عندما ولّاه على مصر قائلاً: "وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأنّ ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد"^{٦٠}. والإعمار مظهر عميق من مظاهر نجاح العدالة في الحياة الإسلامية العامة.

حقوق العمال وتطبيق العدالة:

ولا تكمن أهمية العدالة في فكر الإمام عليه السلام من خلال معرفة الأسس والقواعد التي تقوم عليها، ولكن العبرة في التطبيق والتنفيذ، والتعامل مع أدق التفاصيل. وصحيح أنّ التطبيق يبدأ عند الإمام عليه السلام لأنّه القدوة والأنموذج الذي تحتذي به أمّة: "من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلّم الناس ومؤدّبهم"^{٦١}. إلّا أنّ هذا التطبيق لا يكتمل إلّا عند العامل، ومن ثمّ عند أعوانه. فحدّد للعامل جوهر وظيفته حين خاطبه قائلاً: "إنّ عملك ليس لك بطعمة، ولكنّه في عنقك أمانة، وأنت مسترعى لمن فوقك"^{٦٢}. واضعاً بذلك قاعدة الحقوق والواجبات الأساسية التي تنبني عليها العدالة الإسلامية في مستوى التعامل بين الحاكم والمحكوم. فحقّ العامل أن يطاع، وواجباته أن يحافظ على الأمانة التي وضعها الإمام بين يديه، والتي افترضها الله قبل ذلك للإمام على أن تكون أوامر الراعي مطابقة للحقّ، وإلا فلا طاعة للوالي

٦٠- المصدر نفسه، ص ٤٣٦.

٦١- المصدر نفسه، ص ٧٣.

٦٢- الأندلسي، العقد الفريد، ٥ / ٧٨.

على الرّعيّة. وهذا يعني أنّ السّلطة هي للحقّ وحده^{٦٣}. والولاية في نظره هي من الجماعة تولي من تشاء، وتخلع من تشاء إثابة على إحسان، وعقاباً على إساءة. يقول الإمام (عليه السلام): "فإن ولّوك في عافية وأجمعوا عليك، فقم في أمرهم، وإن اختلفوا فدعهم وما هم فيه"^{٦٤}.

” إذّا فالحاكم لا يطاع لذاته، بل لعدالته وتنفيذه للشّرائع

الاجتماعيّة الخيرة. “

حقوق الرّعيّة وتطبيق العدالة:

أمّا بالنسبة إلى الرّعيّة والعدالة، فتجدر الإشارة إلى أنّ الإمام (عليه السلام) لم يتسلّم عندما بويع، أمور رعيّة موحّدة، ولا مجتمع إسلاميّ متماسك، بل واجه مجتمعاً منقسماً ورعيّة مفتتة، أهل الشّام الخاضعين لسياسة معاوية، والثّوّار الذين قتلوا عثمان، وبقية النّاس الذين يعيشون بلبلة واضطراباً. ولئن تطلّب مشروعه رجالاً يكونون كما وصفهم، حيث قال (عليه السلام): "الأنصار على الحقّ، والإخوان في الدّين، والجنن يوم البأس، والبطانة دون النّاس"^{٦٥}، فإنّه لم يوفّق في ذلك بما ينجح المشروع، فأصحابه متفرّقون عن الحقّ، يعصون إمامهم، متواكلون متخاذلون، أمّا أعداؤه فهم: "العمي القلوب، الصّم الاسماع، الكمه الأبصار، الذين يلبسون الحقّ بالباطل، ويطيعون المخلوق في معصية الخالق، ويحتلبون الدّنيا درّها بالدّين، ويشترون عاجلها بآجل الأبرار المتّقين"^{٦٦}. يعني هذا أنّ الإمام يواجه عاصمة منظّمة مستقرّة متماسكة هي دمشق معاوية بعاصمة متنقلة قيد التّظيم لم تتح لها ظروف الفتنة أن تستقرّ وتنظم بعد.

٦٣- علي زيتون، أدبيّة الخطابة الإسلاميّة نهج البلاغة أنموذجاً، ص ١٨٤.

٦٤- الحمودي، نهج السّعادة في مستدرک نهج البلاغة، ٥ / ٢١٤.

٦٥- الإمام علي (عليه السلام)، نهج البلاغة، ص ١٧٥.

٦٦- الإمام علي (عليه السلام)، نهج البلاغة، ص ٣٨١.

ويشير كل ذلك إلى أن الإمام (عليه السلام) يواجه أزمة مرّة في علاقته مع المسلمين. وقد شكّا تفرّق رجاله عن الحقّ، وتقاعسهم عن الجهاد، وتلكؤهم عن القيام بواجباتهم من ناحية، وإثارة الصّعوبات أمام قيامه بواجباته من ناحية أخرى. وهذه الوضعيّة غير السّويّة في حياة المسلمين لم تمنع الإمام من أن يحدّد قواعد التّعامل مع الرّعيّة. وذلك من خلال عيّنة سليمة منها، عيّنت القطر المصري، خصوصًا حين أشار إلى الأشتر: "إنّ سُخط العامّة يححف برضى الخاصّة، وإنّ سُخط الخاصّة يغتفر مع رضى العامّة... وإنّما عماد الدّين، وجماع المسلمين، والعدّة للأعداء العامّة من الأئمّة، فليكن صِغُوك لهم، وميلك معهم..."^{٦٧}. ويشير هذا الكلام إلى أنّ معيار العدالة القويّ هو رضى العامّة. ومراعاة مصالح العامّة قبل مصالح الخاصّة ليست مراعاة اعتباريّة، ولكنّها مطلوبة ومسوّغة. فالعامّة عماد الدّين والعدّة للأعداء، وتقديم مصلحتهم تقديم لمصلحة الدّين، وإيثار لرضى الله على سُخطه.

”ولقد وجد الإمام من خلال هذه العيّنة نفسها أنّ:
"الرّعيّة طبقات لا يصلح بعضها إلّا ببعض، ولا غنى ببعضها
عن بعض؛ فمنها جنود الله، ومنها كتّاب العامّة والخاصّة،
ومنها قضاة العدل، ومنها عمّال الإنصاف والرّفق، ومنها أهل
الجزية والخراج من أهل الذّمة ومسلمة النّاس، ومنها التّجار
وأهل الصّناعات، ومنها الطبقة السّفلى من ذوي الحاجة
والمسكنة. وكلّ قد سمّى الله له سهمه، ووضع على حدّه فريضة
في كتابه أو سنّة نبيّه عهدًا منه عندنا محفوظًا"^{٦٨}.

٦٧- المصدر نفسه، ص ٤٢٩.

٦٨- الإمام علي (عليه السلام)، نهج البلاغة، ص ٤٣١.

والنظر إلى الرعيّة من الناحية الوظيفيّة توغل في المحافظة على العدالة السياسيّة التي تفترض ألا تعطى أيّ فئة من هذه الفئات من الحقوق إلّا ما يتناسب مع الواجبات التي تؤدّيها. وجرياً على هذه القاعدة حدّد خطورة الدور الذي يقوم به الجنود، فرأى ألاّ اقوام لهم "إلّا بما يخرج الله هم من الخراج"^{٦٩}، من دون أن ينسى ما لكلّ فئة أخرى وما عليها، ومدى ترابط هذه الوظائف وبنيتها.

رفع الحاجة عن الشعب:

لقد سعى الإمام عليه السلام إلى رفع الحاجة عن الشعب، وتأمين الاحتياجات الأساسيّة للجميع، فعمل على استئصال الفقر من المجتمع، حيث كان عليه السلام يقول: "ما جاع فقير إلّا بما متع به غني"^{٧٠}. على هذا الضوء كان يرى أن الدولة الإسلاميّة مسؤولة عن تأمين متطلّبات الحدّ الأدنى، وتوفير المستلزمات الضروريّة لجميع الذين يعيشون في نطاق جغرافية الأمصار الإسلاميّة. كما كان الإمام عليه السلام يركّز على حماية الطبقة الضعيفة من المجتمع، ويولي عناية خاصّة بالأيتام وأسر الشهداء، بحيث كان يهتمّ بذلك شخصياً كلّما اتته الفرصة.

الدّفاع عن المظلومين:

عمل الإمام علي عليه السلام على حماية المظلومين، واستئصال العوامل التي تساعد التّعدي على حقوق النّاس، وبغية تعميم حالة مواجهة الظّالمين والمعتدين، بادر النظام العلويّ إلى تقوية ثقافة حماية المظلومين. فكان ينتهز كلّ الفرص من أجل توسعة ثقافة مكافحة الظّلم ويستفيد منها لحماية

٦٩- المصدر نفسه، ص ٤٣٢.

٧٠- المصدر نفسه، ص ٣٢٨.

المظلومين، كما كان يحثّ النَّاس على مساعدته لإصلاح مجتمعاتهم، وهو يهتف: "أَيُّهَا النَّاسُ أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وإيُّمُ اللَّهِ لَا تُصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَا تُؤَدِّنَ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ"^{٧١}.

وإذا أمعنا النظر في هذه الحقوق، ندرك أنّها أصول عميقة في بناء كلّ مجتمع صحيح، تحفظ فيه حقوق الإنسان، وتُرعَى فيها الحرّية الإنسانية بأروع معانيها وأوسعها، أصول تقوم عليها النظريات الاشتراكية اليوم، ولا تخالفها في أيّ شيء.

” وقد تجسّدت هذه الحقوق، وحقوق كثيرة غيرها لا يتسع المقام لذكرها، في عهد الإمام إلى مالك الأشرم ولاه على مصر، فكان صفحة من صحائف الإمام عليه السلام الخالدة في إدارة الحكم وشؤون السياسة، وإشاعة العدل، وحفظ النظام، واستئصال شأفة الضلال. وكان دستوراً متكاملًا لكلّ رئيس دولة، وحاكم أمة بالعدل، بل كان أفضل وثيقة عالمية لصيانة حقوق الإنسان ممّا لم يسبق إليه الإمام لا من قريب ولا من بعيد.

“

٧١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص ١٩٤.

الخاتمة:

أهمّ النتائج التي توصل إليها البحث:

- لقد أرسى الإمام علي عليه السلام أصول التشريع الإسلامي المشرق في قيادته للأمة، فلبى نداء الضمير الإنساني، وبنى سنن العدل الاجتماعي، ومعالم النظام السياسي الأمثل. فلم يكن مهادئاً في ذات الله، ولا متخاذلاً في أمر الله، ولا مجاملاً في تنفيذ حكم الله، بل كان رمز العدالة الشاهق، ومثال الحق والإيمان النابض.

- طبّق على مسرح الحياة كتاب الله تعالى، ومنهاج نبيّه، فنشر ألوية العدالة الإسلامية، وحقّق الأهداف الأصيلة التي ينشدها الإسلام في عالم الاجتماع والسياسة والإدارة والحكم.

- احتاط لدينه وللمسلمين، وأدّى الأمانة بأدقّ معاني هذه الكلمة وأضيّقها، فلم يرزأ المسلمين شيئاً في مالهم، ولا تناول من فيهم إلا بقدر زهيد شأنه فيه شأن الآخرين لا أكثر ولا أقلّ، فلم يصب إلى حسب تشيّد عليه الأجداد، ولا إلى شرف تبنى له العروش، ولم يدن من الكبر، بل كان واحداً من أدنى المسلمين وهو أميرهم، له مالهم من حقوق، وعليه ما عليهم من واجبات، ينظر في الأحوال العامة وحاجات الأفراد والجماعات فيساوي في العطاء بينهم، ولا يؤثر قرابة أو يميّز رحماً، فيحكم الأمر معهم توجيهها وأمرًا واستصلاحًا، تحقيقاً لمبدأ العدل السياسي المفقود، وتنفيذاً لمبدأ العدل الاجتماعي المنشود.

- نظر عليه بعين الناقد البصير إلى الأحداث، فلم يقعه عن الحق تفرّق الناس عنه، ولم يوقعه في الباطل اجتماع الناس عليه، ولم يجد عن المنهج الذي رسم لنفسه قيد أنملة، مترصداً بذلك مرضاة الله تعالى في اليسر والعسر. فكانت العدالة أصلاً في بنيانه الأخلاقي والأدبي، وإن أصبحت في نهجه مذهباً فيما بعد، بل كانت دمًا في دمه، وروحاً في روحه. سلك سبيله فيها سبيل القادة الأفذاذ، فكانت أداة للحق ومسرحة للهدى، فكتب لها النجاح إيماناً، والخلود تاريخياً.

ومع أن القدر عاجل الإمام عليه السلام ولم يمهل في استكمال مسيرته القيادية الفذة، فذهب شهيد عظمته ومبادئه، إلا أن التاريخ ما زال يتضوّع باسمه، ويفوح بذكراه، فقد جعل من تاريخنا صفحات رائعة من الإشراق الإنساني العظيم، تشرّفنا كعرب، كما تضيف شرفاً إلى تاريخ الإنسان. ونحن شيعة علي عليه السلام يجب أن نرجع إلى سيرة علي ونرفع شعار الاقتفاء به، فنسير على خطاه، ونتمسك بنهجه، وننظر إلى الأمور كنظراته.

التوصيات:

دعوة الباحثين إلى التوسع في دراسة مظاهر عدالة الإمام علي عليه السلام من أجل الوقوف على القوانين التي عمل الإمام عليه السلام على إرسائها، والاقتداء بها، لنكون أكثر الأنظمة والحكومات قرباً من الحق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ الْمَوْتَادَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ الْمَوْتَادَ

الشراف

الإمام الحسن المجتبي عليه السلام وتفسير القرآن

سماحة الشيخ فوزي آل سيف

١. حديث في منهج فهم القرآن

سنجد مساحة واسعة من حديث الإمام الحسن عليه السلام في الموضوع القرآني، فيها ما يتصل بالمنهج الصائب والخطأ في الاستفادة من القرآن، فمن الأول التدبر، ومن الثاني التفسير بالرأي، وفيها التعرض لتأويل بعض الآيات وتطبيقها على مصاديقها الخارجية، وفيها الاستنباط والاستدلال على المسائل الفقهية، وتناول هنا بعض الشواهد على ما سبق:

أولاً: القرآن قائد للجنة أو سائق للنار؛ إنَّ وجود القرآن عند قوم لا يعني أنهم يدخلون الجنة بالضرورة بسبب وجوده بينهم، بل قد يكون عند قوم دليلاً وقائداً للجنة ونعيمها، وقد يكون عند قوم سائقاً يدفع بهم إلى نار جهنم ويكون حجة عليهم وقاضياً بشقائهم عندما يخالفون أوامرهم، ولا يطبقون أحكامهم، وهذا هو مفاد كلام الإمام الحسن الذي هو رشفة من كلام جده النبي ﷺ، فعن سبط رسول الله أنه قال: ((إنَّ هذا القرآن يجيء يوم القيامة قائداً وسائقاً يقود قومًا إلى الجنة؛ أحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، وآمنوا بمتشابهه. ويسوق قومًا إلى النار؛ ضيعوا حدوده وأحكامه، واستحلوا محارمه))^١.

١- عطاردي: مسند الإمام الحسن، ص ٥٦٨.

وهو نفسه ما قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، وَمَا حِلٌّ مَصْدَقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ))^٢.

ثانياً: تعرّض الإمام عليه السلام إلى موضوع المنهج في القرآن، وأشار إلى قضية التفسير بالرأي، فقد جاء عنه: ((مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ))^٣، وهي من الكلمات العجيبة، فقد فرض أنه أصاب ومع ذلك قال إنه مخطئ! لماذا؟

لعل الإمام عليه السلام هنا يريد أن ينهي عن منهج خاطئ، وأن يحذفه من التداول، فالقرآن الكريم لا ينبغي أن يتعامل معه بمنهج خاطئ، وإن صادف في بعض الأحيان الإصابة، بل المطلوب أن يكون الطريق إليه طريقاً سليماً لا يقوم على أساس احتمال أن يصيب الإنسان، أو لعله يصل إلى الحق. إنه مع النهي عن المناهج الخاطئة، مع ذلك لم تسلم الأمة من التفسير بالرأي والذي أورد أولها وآخرها المآزق والمهالك! هذا مع النهي عن هذه المناهج، فكيف لو لم يُنه عنها؟

ولا سيما مع الإصابة النادرة في هذه المناهج، فإنها تشجع أصحاب المناهج على اتخاذها طريقاً دائماً؛ لذلك ورد النهي مكرراً عن النبي ﷺ، ومن المعصومين بعبارات شديدة، منها التوعد بدخول النار، ومنها تخطئة النتائج التي يتوصل إليها بهذه المناهج.

٢- الطبراني، المعجم الكبير، ١٠/ ١٩٨.

٣- الديلمي، إرشاد القلوب، ١/ ٧٩.

وشبيه هذا ما وجدناه في القضاء في تقسيم القضاة إلى قضاة في الجنة وآخرين في النار، ومن الذين هم في النار من يقضي من غير علم، فهذا وإن صادف الواقع فإنه معاقب وليس مثاباً ولا ممدوحاً. إن مجرد إصابة الواقع في بعض الحالات لا تصنع صوابية للمنهج، بل لا بُدَّ أن يكون منهجاً صحيحاً، وصاحب المنهج الصحيح وإن أخطأ أحياناً فلا مشكلة فيه.

٢. حديث في عداوة أعدائهم لهم:

فيما يرتبط بأعداء أهل البيت، لماذا صاروا في طريق العداوة والبغضاء؟ وهل القضية كلها أمور دنيوية ومصلحية؟ أو هناك جهات أخرى؟ يشير الإمام الحسن المجتبي إلى جهات غير واضحة للعامة، كما نقل ابن شهر آشوب، في كتابه: مناقب آل أبي طالب، بسند إلى ابن عباس، في قول الله عز وجل، مخاطباً الشيطان: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾^٤، ((أَنَّهُ جَلَسَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام وَيَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ يَأْكُلَانِ الرُّطْبَ، فَقَالَ يَزِيدُ: يَا حَسَنُ إِنِّي مُنْذُ كُنْتُ (يعني منذ ولادتي) أَبْغِضُكَ!

قَالَ الْحَسَنُ: اَعْلَمَ يَا يَزِيدُ إِنَّ إِبْلِيسَ شَارَكَ أَبَاكَ فِي جَمَاعِهِ، فَاخْتَلَطَ الْمَاءُ، فَأَوْرَثَكَ ذَلِكَ عَدَاوَتِي !!))^٥.

٤- البيهقي، أحمد بن الحسين: السنن الكبرى: ١٠ / ١١٦، قال رسول الله ﷺ: القضاة ثلاثة؛ اثنان في النار وواحد في الجنة، رجل عرف الحق ففُضِيَ به فهو في الجنة، ورجل قضى بين الناس بالجهل فهو في النار، ورجل عرف الحق فجار فهو في النار.

والسيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة: ٢٥ / ٢٧، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: القضاة أربعة؛ ثلاثة في النار وواحد في الجنة، رجل قضى بجهل وهو يعلم فهو في النار، ورجل قضى بجهل وهو لا يعلم (انه قضى بالجهل) فهو في النار، ورجل قضى بالحق وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالحق وهو يعلم فهو في الجنة.

٥- الاسراء: ٦٤.

٦- ابن شهر آشوب، المناقب: ٤ / ٢٢.

وموضوع مشاركة الشيطان لبعض الناس كأنه من القضايا المتسالم عليها في آراء المسلمين بعدما ورد في القرآن، فقد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (قال رسول الله ﷺ: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى كُلِّ فَحَّاشٍ بَذِيٍّ، قَلِيلِ الْحَيَاءِ، لَا يَبَالِي مَا قَالَ وَمَا قِيلَ لَهُ، فَإِنَّكَ إِنْ فَتَشْتَهُ لَمْ تَجِدْهُ إِلَّا لَغِيَةً أَوْ شَرَكَ شَيْطَانًا) ^٧، وإن كان المورد مختلفاً لكن أصل القضية وهو مشاركة الشيطان وتأثيره في الانجذاب، بحيث يخرج المولود وللشيطان فيه نصيب .

” طبق الإمام الحسن (عليه السلام)، هذه الآية المباركة: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ ^٨، على يزيد بن معاوية. والذي عمله يزيد في حياته لا يعدو هذا، بالطبع هذا لا يسلب مسؤولية الإنسان نفسه بأن يقول ما دام الشيطان شارك أباه فيه، فلا بُدَّ أن يسلك هذا السلوك .. كلا وإنما هذا مؤثر من المؤثرات، وليس حتمياً وإنما تبقى ارادة الإنسان واختياره في أن يسير في طريق الهداية أو يختار طريق الغواية .

٣. الصلاة على النبي تعليم من الله:

نقل عن الإمام الحسن (عليه السلام) في تفسير الآية المباركة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ^٩. في خطبة من خطبه، أن رسول الله ﷺ تعلم من ربه، وعلم الناس أموراً كثيرة؛ حيث

٧- الطباطبائي؛ محمد حسين؛ تفسير الميزان ١٣/ ١٥٠. وذكر الريشهري؛ محمد، ميزان الحكمة: ٢/ ١٤٥٨ نماذج من ما يكون شرك شيطان، في الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) من لم يبال ما قال وما قيل فيه فهو شرك شيطان، ومن لم يبال أن يراه الناس مسيئاً فهو شرك شيطان، ومن اغتاب أخاه المؤمن من غير ترة بينهما فهو شرك شيطان، ومن شغف بمحبة الحرام وشهوة الزنا فهو شرك شيطان.

وفسرت المشاركة بمعان متعددة؛ وقد حملها الطباطبائي بهذا النحو: ((وما ذكر فيها على مشاركته (الشيطان) الرجل في الوقاع والنظفة وغير ذلك كناية عن أن له نصيباً في جميع ذلك فهو من التمثيل بما يتبين به المعنى المقصود ونظائره كثيرة في الروايات)).

٨- الاسراء: ٦٤.

٩- الأحزاب: ٥٦.

قال عليه السلام: ((وفرض الله عز وجل الصلاة على نبيه ﷺ على كافة المؤمنين ، فقالوا : يا رسول الله ، كيف الصلاة عليك؟ فقال : قولوا : "اللهم صل على محمد وآل محمد"، فحق على كل مسلم أن يصلي علينا مع الصلاة على النبي ﷺ فريضة واجبة))^{١٠}، وهذا كما تعلمون، يقرّ به عموم المسلمين، في التشهد، لا بُدَّ من الصلاة على النبي وعلى آله، وإليه أشار الشافعي محمد بن إدريس:

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله

كفاكم من عظيم الفخر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له^{١١}

وفي موضوع المودة في القربى، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۖ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾^{١٢}.

” وفي خطابه الأول بعد شهادة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام ،

قال عليه السلام: ((..أنا من أهل بيت فرض الله تعالى مودتهم وطاعتهم في كتابه، فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۖ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾^{١٣}، فالحسنة مودتنا أهل البيت))^{١٤}. “

ومن اللافت للنظر أن غير واحد من الأئمة كانوا يؤكدون في تفسير الآية المباركة على نفس المعنى، فقد ورد في مصادر مدرسة الخلفاء هذا المعنى عن الطبراني في التفسير، وتفسير أبي حاتم، والثعلبي، وغيرهم. مروياً عن أمير المؤمنين عليه السلام بتفصيل أو إجمال^{١٥}.

١٠- ابن عقدة الكوفي، الولاية: ١٨٥.

١١- ابن حنبل، فضائل أهل البيت: ١٩.

١٢- الشورى: ٢٣.

١٣- الشورى: ٢٣.

١٤- عطاردي، الشيخ عزيز الله، مسند الامام الحسن عليه السلام ص ٤٢.

١٥- فقد ذكره الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) في التفسير الكبير (تفسير القرآن العظيم): ٥ / ٤٦ بقوله: وقال

٤. بعض آثار سور القرآن

نقلت بعض المصادر الشيعية عن الإمام (عليه السلام) قولاً في فضائل السور، حيث جاء عنه: ((من قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر إذا أصبح فمات من يومه ذلك طبع بطابع الشهداء، وإن قرأ إذا أمسى فمات من ليلته طبع بطابع الشهداء))^{١٦}، كما جاء في البحار^{١٧} وغيره مثل موسوعة كلمات الإمام الحسن^{١٨} وغيرهما كثير، لكن يظهر أن الأمر قد اشتبه على من نقل من مصادر مدرسة الخلفاء فإن السند عندهم هكذا (سعيد بن عامر، عن هشام، عن الحسن) فلما نقل في مصادر الإمامية توهم أن الحسن هو الإمام الحسن السبط، بينما هو الحسن البصري وهو تابعي ولم يذكر سنده لذلك الحديث إلى رسول الله. وبعضهم كتب بعد الحسن (بن علي) فزاد هذا في وهم من تأخر عنهم عندما أخذوه.. والأمر كما ذكرنا.

٥. من هو الشاهد والمشهود في القرآن؟

في رواية ينقلها الطبرسي في مجمع البيان: أن رجلاً دخل إلى مسجد رسول الله ﷺ، فوجد حلقة، كل حلقة فيها متحدث، فأقبل على أول حلقة، فسأل من كان فيها عن قول الله عز وجل ﴿وَشَاهِدْ وَمُشْهُودٌ﴾^{١٩} من يعني

بعضهم: دخلت على علي بن أبي طالب عنه فقال لي: (ألا أنبئك بالحسنة التي من جاء بها أدخله الله الجنة، والسيئة التي من جاء بها أدخله الله النار، ولم يقبل منه عملاً؟) قلت: بلى، قال: (الحسنة جنباً، والسيئة بغضناً). ونقل في تفسير أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧) مشوها (ولا ندري هل هو من الأصل أو من المحقق والدار !!) فقد قال في تفسير ابن أبي حاتم - مخرجا -: ٣٠٢٤/٩ مروي عن أبي عبد الله الجليلي قال: دَخَلْتُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: ((يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَلَا أُحَدِّثُكَ بِالْحَسَنَةِ الَّتِي مَنْ جَاءَ بِهَا أُدْخِلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَفَعَلَ بِهِ وَفَعَلَ بِهِ؟)) قُلْتُ: بَلَى، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: ((الْحَسَنَةُ جَبْنًا)).. ولا أعلم ماذا يعني قوله وفعل به وفعل به! هل من حذف ذلك خائف ان تنطبق عليه؟

ونقله في مصادر الإمامية أحمد بن محمد بن خالد البرقي في كتاب المحاسن: ١/ ٢١٠ وغيره، كما نقل عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام).

١٦- السيوطي؛ جلال الدين (ت ٩١١ هـ)، الدر المنثور في التفسير المأثور: ٨/ ١٢٣، والدارمي؛ عبد الله بن الرحمن (ت ٢٥٥ هـ): ٤٥/٢.

١٧- المجلسي؛ المولى محمد باقر (ت ١١١١ هـ)، بحار الأنوار: ٣١٢/٨٩.

١٨- لجنة الحديث في معهد باقر العلوم (عليه السلام)، موسوعة كلمات الامام الحسن (عليه السلام): ٢١٨.

١٩- البروج: ٣.

وماذا يعني؟ فقال: أما الشاهد فهو يوم الجمعة، وأما المشهود فهو يوم عرفة. هذا الجواب من الحلقة الأولى، يقول: فجزته، للحلقة الثانية، سألته نفس السؤال- هذا المتصدي للحديث والتدريس- ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، ماذا يقصد بذلك؟ فقال: أما الشاهد فيوم الجمعة، فأما المشهود فيوم النحر، يوم العيد من ذي الحجة. فجزته وذهبت إلى رجل أو غلام كأن وجهه الدينار (الذهب)، كذلك. وهو يحدث عن رسول الله، فقلت: أخبرني عن ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ماذا يقصد؟ فقال: أما الشاهد فالنبي محمد ﷺ، أما قرأت قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^{٢٠}، فالقرآن وصفه بماذا؟ بالشاهد، وأما المشهود فيوم القيامة، أما قرأت قول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾^{٢١}. فسألت عن الأول، قيل: ابن عباس. وسألت عن الحلقة الثانية من فيها؟ قالوا: عبد الله بن عمر، وسألت عن الحلقة الثالثة، ف قيل إن فيها الحسن بن علي بن أبي طالب^{٢٢}.

مما روى الإمام الحسن عن جده رسول الله

” من الحقائق التي نعتقد بها أن أحاديث الأئمة

المعصومين (عليهم السلام) ورواياتهم، راجعة في أصولها إلى كلام رسول

الله ﷺ ، وقد أخبروا عن ذلك بعبارات مختلفة فقالوا:

((إنما هي أصول علم نتوارثها كابراً عن كابر، عن رسول

الله ﷺ))^{٢٣}. وبشكل أوضح ورد عن أبي عبد الله (الصادق) (عليه السلام)

٢٠- الأحزاب: ٤٥.

٢١- هود: ١٠٣.

٢٢- الطبرسي؛ الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨ هـ) تفسير مجمع البيان: ١٠ / ص ٣١٥، عطاردی، الشيخ عزيز

الله: مسند الامام الحسن (عليه السلام): ١٠٤.

٢٣- البروجردی، جامع أحاديث الشيعة: ١ / ٣٩، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: انا لو كنا نفتي الناس برأينا

يقول: ((حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي،
وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث
الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام، وحديث
أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وحديث رسول الله قول
الله عز وجل))^{٢٤}.

وهم في الغالب وإن كانوا لا يعبرون عن حديثهم بطريقة تشير إلى أنه رواية، أو أنهم رواية، فإن ذلك بسبب أنهم كانوا يريدون تكريس مفهوم الإمامة عند الناس، وأن كلامهم هو كلام رسول الله صلى الله عليه وآله واجب الإطاعة، ولازم الإتياع، وأنهم لا يتعاملون مع أنفسهم، ولا يريدون أن يتعامل الناس معهم باعتبارهم مجرد رواية؛ يروون الحديث عن النبي كما هو الحال بالنسبة إلى سائر الفقهاء وباقي العلماء والمحدثين، بل هم يختلفون في أنهم امتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكلامهم في قيمته التشريعية ككلامه صلوات الله وسلامه عليه وعليهم.. لكن مع ذلك وجدنا في بعض الحالات لجهة من الجهات، أن هذا المعصوم أو ذاك يشير إلى أنه سمع هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله، أو أنه حدثه أبوه عن جده عن رسول الله ولأجل مناسبة تقتضي ذلك، وسوف نشير إلى هذا القسم مما يرتبط بإمامنا الحسن المجتبي صلوات الله وسلامه عليه، فإننا نجد أن قسمًا من أحاديثه وكلماته ينسبها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، نورد بعض الشواهد على ذلك من كلماته مما سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله:

وهو أن لنا من المالكين، لكنها آثار من رسول الله صلى الله عليه وآله أصول تنوارثها كبارًا عن كبار، نكتزها كما يكتز الناس ذهبهم وفضتهم.

٢٤- الكليني، الكافي: ١/ ١٠١.

في الحديث عن الامام الحسن المجتبى عليه السلام أنه قال: ((علمني رسول الله صلى الله عليه وآله كلمات اقولهن في الوتر: اللهم اهديني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي في ما أعطيت، واكفني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت))^{٢٥}.

”وينبغي أن نتدبر في هذا الحديث ملياً، فإن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عندما توفي رسول الله عمره كان في حدود سبع سنين، لأن ولادته حسب المعروف في السنة الثالثة للهجرة، هذا التعليم الذي جاء بصيغة الإخبار (علمني رسول الله كلمات ...)، فلو فرضنا أنه كان في السنة الأخيرة من وفاة رسول الله، يعني أن الحسن عمره ست سنوات، وقد علمه أن يقول هذه الكلمات في الوتر. والوتر هو من نافلة صلاة الليل.“^{٢٦}

نقل عن الإمام بعض أصحابه فقال: سمعت الحسن بن علي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ((من صلى صلاة الغداة، فجلس في مصلاه حتى تطلع الشمس، كان له حجاب من النار))^{٢٦}.

ومعنى الحديث واضح لا سيما لجهة التحريض على التبكير في الاستيقاظ من النوم لأجل صلاة الغداة (الفجر) وبعدها البقاء مستيقظاً يعقب ذاكراً لله تعالى، وعدم الاخلاص إلى النوم، مما يعطي له فرصة الانطلاق في طلب الرزق، فأصل الاستيقاظ مطلوب، والبقاء مع ترك النوم يجعل حجاباً بينه وبين النار. وفي الروايات تأكيد كبير على التبكير في الاستيقاظ، وأنه يندب

٢٥ - عطاردي، مسند الامام الحسن عليه السلام : ص ٣٩٥، وقد نقلها عن علل الشرائع للصدوق وسنن النسائي.

٢٦ - المصدر نفسه: ص ٦٦٩.

للمسلم أن يبكر في سبته ونومه، وأن يبكر في استيقاظه وبكوره، حتى قرنت البركة بالتبكير في البكور، حيث قال: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَأُمَّتِي فِي بَكُورِهَا)^{٢٧}.

هذا بالإضافة إلى كونه نظامًا صحيًا نافعًا للبدن والذهن، ومن ذلك ما ورد من أنه تقسم الأرزاق^{٢٨} في ذلك الوقت بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، وهذا قد يكون أمرًا غيبياً، مثل ما جاء من أن: ((صَلَاةُ اللَّيْلِ تُبَيِّضُ الْوُجُوهُ))^{٢٩}، وقد يكون أمرًا طبيعياً يمكن تفسيره، فإن المبكر في طلب الرزق يحصل على الفرص الموجهة للأرباح، بعكس النائم إلى وقت متأخر من الضحى. وقس على هذا المتأخر في الاستيقاظ عن دراسته، ووظيفته وما شابه.

وبطبيعة الحال فإن مناسبة الحكم والموضوع تقتضي أن يكون جلوسه على مصلاه مرتبطاً بإيجاد الحجاب من النار، وهو ما يفترض منه من الاستغفار، والذكر، وقراءة القرآن، وما شابه ذلك، فإنها وإن لم تذكر لكنها مطوية في الحديث، فإن من يجلس عابثاً لاعباً على مصلاه لا يصنع له حجاباً من النار.

٣. ما قاله الإمام الزكي رحمته الله ناقلاً عن رسول الله ﷺ، فقد سأله أحدهم ما حفظت من رسول الله ﷺ، فقال: ((حفظت عنه، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك))^{٣٠}، وفيه تحذير للإنسان من مواقع الريبة، وإثارة السؤال حوله، فلماذا يترك البعض نفسه في مكان بحيث تحصل منه فيه ريبة! أو يقوم بعمل حيث الناس يقولون: "هل يعقل فلان فعل هذا الشكل أو لا؟".

٢٧ أبي بصير، مسند أبي بصير: ١/ ١٥٤.

٢٨ ينظر: الشيخ الصدوق، الخصال: ٥٠٥.

٢٩ الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ٤١.

٣٠ - عطاردي، مسند الامام الحسن ﷺ: ص ٨٣.

بل حتى في مواضع التفكير ينبغي للإنسان أن يترك الأمر المشكوك فيه ويعتمد على المتيقن! وربما استفاد منه بعضهم مسائل فقهية تشبه قواعد البناء على اليقين وترك الشك، ومنه الاستصحاب للحالة السابقة وعدم الاعتناء بالشك الطارئ على الإنسان فيها.

٤. وهناك حديث مفصل عن الإمام الحسن عليه السلام نقله الشيخ الصدوق في كتاب الخصال، وكان عليه السلام ينقل ما دار بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين اليهود، وينبغي أن نلاحظ أن الإمام الحسن كان ذلك الوقت دون سبع سنين ومع ذلك نقل ما دار بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله، قال عليه السلام: ((جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم عن أشياء، فكان فيما سأله: أخبرنا عن سبع خصال أعطاك الله من بين النبيين، وأعطى أمتك من بين الأمم؟ فقال النبي: أعطاني الله عز وجل فاتحة الكتاب، والأذان، والجماعة في المسجد، ويوم الجمعة، والصلاة على الجنائز، والاجهار في ثلاث صلوات، والرخصة لأمتي عند الأمراض والسفر، والشفاعة لأصحاب الكبائر من أمتي.

قال اليهودي: صدقت يا محمد، فما جزاء من قرأ فاتحة الكتاب؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قرأ فاتحة الكتاب أعطاه الله عز وجل بعدد كل آية نزلت من السماء ثواب تلاوتها، وأما الأذان فإنه يحشر المؤذنون من أمتي مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وأما الجماعة فإن صفوف أمتي في الأرض كصفوف الملائكة في السماء، والركعة في جماعة أربع وعشرون ركعة كل ركعة أحب إلى الله عز وجل من عبادة أربعين سنة. وأما يوم الجمعة فإن الله يجمع فيه الأولين والآخرين للحساب، فما من مؤمن مشى إلى الجماعة إلا خفف الله عز وجل عليه أهوال يوم القيامة ثم يجازيه الجنة. وأما الاجهار فإنه يتباعد منه لهب النار بقدر ما يبلغ صوته، ويجوز على

الصراط، ويعطي السرور حتى يدخل الجنة. وأما السادس فإن الله عز وجل يخفف أهوال يوم القيامة لأمتي كما ذكر الله في القرآن. وما من مؤمن يصلي على الجنائز إلا أوجب الله له الجنة إلا أن يكون منافقاً أو عاقاً، وأما شفاعتي ففي أصحاب الكبائر ما خلا أهل الشرك والظلم.

قال: صدقت يا محمد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت عبده ورسوله، خاتم النبيين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، فلما أسلم وحسن إسلامه أخرج رقاً أبيض فيه جميع ما قال النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق نبياً ما استنسختها إلا من الألواح التي كتب الله عز وجل لموسى بن عمران، ولقد قرأت في التوراة فضلك حتى شككت فيه يا محمد، ولقد كنت أحو اسمك منذ أربعين سنة من التوراة، وكلما محوته وجدته مثبتاً فيها، ولقد قرأت في التوراة أن هذه المسائل لا يخرجها غيرك، وأن في الساعة التي ترد عليك فيها هذه المسائل يكون جبرئيل عن يمينك، وميكائيل عن يسارك، ووصيك بين يديك، فقال رسول الله ﷺ:

صدقت هذا جبرئيل عن يميني، وميكائيل عن يساري، ووصيي علي بن أبي طالب بين يدي، فأمن اليهودي، وحسن إسلامه))^{٣١}.

وإضاعة على هذا الحديث ترينا أن اليهود كانوا ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^{٣٢}، بأن هناك نبياً سيظهر ويعاضدونه ويؤيد ما عندهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^{٣٣}، وهؤلاء هم الأغلب من علمائهم وأخبارهم، لكن قسماً منهم كانوا يشكّون في أن هذا الذي

٣١- الخصال، الشيخ الصدوق، ص ٣٧٠.

٣٢- البقرة: ٨٩.

٣٣- البقرة: ٨٩ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

أتى هل هو النبي الموعود أو لا! فجاءوا بالأسئلة الامتحانية الصعبة، في رأيهم والتي لا يجب عنها إلا من كان رسولاً بالحق.

فجاء جماعة من أحبارهم وقد تصدى أعلمهم للسؤال والمناظرة، ولا تذكر الرواية اسمه وهذا لا يؤثر شيئاً كثيراً في المضمون، وسأل النبي عن سبع خصال أعطاها الله للرسول المكي المنتظر.

فأجابهم أنه أعطاه الله وخصه به:

١/ فاتحة الكتاب؛ ومن الطبيعي أن لا أحد من الأنبياء وأئمتهم قد أعطىها قبل النبي، لأن ذلك يتوقف على الكتاب نفسه -أي القرآن-، وهو معجزة خاصة للنبي، ولكون فاتحة الكتاب خلاصة الوحي فقد كانت أساس العبادة في الصلاة، إذ لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب. وتحدث الروايات عن فضائل جمّة لسورة الفاتحة وآثار كبيرة.

٢/ الأذان: فهو شعار الدعوة للصلاة، ويختص به المسلمون، إذ أن سائر الديانات ليس لديهم أذان بهذا النحو المرتب من الأذكار والأقوال، تبدأ باسم الله وتنتهي به، وتحتوي على عقائد المسلمين من التوحيد، والنبوة، (والإمامة عند الإمامية)، وتدعو إلى الصلاة، وإلى سلوك طريق الفلاح، وتحث على أفضل الأعمال، والسعي لخيرها في الحياة، ففيه برنامج عقائدي وحياتي.

” باقي الديانات لا تمتلك هذه الخصوصية، فهي لأجل

الدعوة للعبادة؛ إما تهرع إلى أجراس تقرر في الكنائس كما هو عند المسيحيين، أو من خلال صوت يطلق بقرن الثور -الأبواق- كما كان في القديم عند اليهود، أو ربما أشعلوا ناراً، كما هو عند المجوس.

“

الأذان للصلاة عند المسلمين هو من جنس الصلاة، وهذا من الأدلة على أن الأذان ليس عملاً بشرياً، كما عليه رواية مصادر مدرسة الخلفاء من كون أحد أصحاب النبي ﷺ قد رأى صورة الأذان في المنام وعرضه على رسول الله، وهو الذي أشار الإمام الصادق إلى خطئه عندما قال: ((إن دين الله عز وجل أعز من أن يرى في النوم))^{٣٤}، ذلك أننا نرى أن بعض المستحبات العادية لا يمكن إثباتها شرعاً بالرؤيا والمنام، فكيف بشعار الإسلام الذي اعتبر خاصة لنبيه؟ واحتوى على ما احتوى من اللفظ والمعنى؟

٣/ الجماعة في المسجد: فالمسجد بما يشتمل عليه من أحكام وموقع في الدين الإسلامي، لكونه (بيت الله) لا يشابه موقعه أي من المعابد في الديانات الأخرى، ومن ذلك قيام الجماعة فيه، وتضاعف أجر المصلي فيه لكونها فيها، واجتماع المسلمين في الجماعة مع ما يحمل من معان أخلاقية، واجتماعية وتعبوية.

” وهنا ينبغي أن نذكر المؤمنين بلزوم عمارة المسجد بالحضور فيه والالتزام بصلاة الجماعة التي تقام فيه، ونستغرب جداً عندما نسمع عن شاب أو شابة لم يدخلوا المسجد للصلاة فيه منذ سنوات !!“

٤/ يوم الجمعة: هو كذلك من مختصات نبي الإسلام، فإنه في هذا اليوم بدءاً من ليلته نلاحظ أنه أحيط بهالة من القداسة، بحيث تمت تشريعات ترتبط به دون غيره من الأيام، فإنَّ فيه الغسل بعنوان (غسل الجمعة)، وفيه الصلاة بكيفية مخصوصة (صلاة الجمعة)، بالإضافة إلى ساعات معينة؛ منها ساعة استجابة الدعاء، إلى غير ذلك مما يذكر في خصائص هذا اليوم، ولا

٣٤- الكليني، الكافي (دار الحديث): ٦/ ٦٣٦ .

توجد في سائر الديانات له أو لغيره من الأيام بالنحو الذي هو له في الإسلام.

٥ / الصلاة على الجنائز: وهي أيضًا من جملة الصلوات الواجبة كفائيًا والمستحبة دائمًا، ولا نعهد مثل هذا في سائر الديانات، لا أقل بنفس الكيفية والمضمون.

٦ / الإجماع في ثلاث صلوات: وهي كيفية في القراءة للفتحة، والسورة في صلاة الفجر، والمغرب، والعشاء.

٧ / الرخصة لأمتي عند الأمراض والسفر: حيث كان من ميزات هذه الأمة والخصال التي أكرم الله عز وجل بها إياها، أنه خفف عليهم عند المرض والسفر الصلاة والصوم، فجعل الصلاة الرباعية مقصورة وثنائية، ورفع وجوب ومشروعية الصوم في أثناء السفر، حيث قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ٣٥.

٨ / الشفاعة لأصحاب الكبائر من أمتي: وهذه من خصائص النبي المصطفى جعلنا الله ومن يقرأ هذه الكلمات ممن ينال شفاعته، ويفوز برفقته في الجنان.

” هذه الخصال، التي أبدأها النبي المصطفى ﷺ لمعشر اليهود، والتي انتهت بإسلامهم، وإقرارهم بذلك هي مما نقله الإمام الحسن المجتبي ﷺ من سنة رسول الله، وهو المصدر الأساس لها فيما نقل من سنة النبي. مع ملاحظة سبق أن أشرنا إليها وهي أن الحسن السبط ﷺ في ذلك الوقت هو دون سبع سنين !

“

تفسير التسيحة الكبرى:

ومما نقل عن الإمام المجتبى عن جده النبي، تفسير التسيحة الكبرى وهي بمثابة (الملك)^{٣٦} فيما بين الأذكار والأوراد في الإسلام، وهي على أهميتها العالية تزداد أثرًا عندما يتعرف الإنسان المسبِّح على معناها ومغزاها، وقد روى الإمام الحسن هذه المعاني؛ فإنه قال: ((جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسأله أعلمهم، فقال له: أخبرني عن تفسير سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؟ فقال النبي ﷺ: علم الله عز وجل أن بني آدم يكذبون على الله عز وجل^{٣٧}، فقال سبحان الله: براءة مما يقولون. وأما قوله الحمد لله، فإنه علم أن العباد لا يؤدّون شكر نعمته فحمد نفسه قبل أن يحمده العباد، وهو أول كلام، لولا ذلك لما أنعم الله عز وجل على أحد بنعمة. وقوله: لا إله إلا الله، يعني وحدانيته لا يقبل الله الأعمال إلا بها وهي كلمة التقوى، يثقل الله بها الموازين يوم القيامة))^{٣٨}.

فوائد الاختلاف للمسجد:

ومما رواه الحميري في قرب الاسناد، بسنده عن الإمام الحسن عن رسول الله ﷺ، أنه قال: ((من أدام الاختلاف إلى المساجد لم يعدم واحدة من سبع؛ أحّا يستفيده في الله، أو علمًا مستطرفًا، أو رحمة منتظرة، أو آية محكمة تدل على هدى، أو أنه أظنه قال: سدة، أو رشدة تسده عن ردى، أو يترك ذنبًا حيّا أو تقوى))^{٣٩}.

٣٦- الصدوق، ثواب الأعمال: ٨، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله: أكثروا من سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهم يأتين يوم القيامة هن مقدمات، ومؤخرات، ومعقبات، وهن الباقيات الصالحات.

والنسائي في السنن الكبرى: ٣٠٧/٩، قال رسول الله ﷺ: ((لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا إله إلا الله، أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس)).

٣٧- وفيه إشارة واضحة نافذة لمنحرفي اليهود الذين وصفوا كثيرًا في القرآن بأنهم يكذبون على الله سبحانه.

٣٨- تمة النص من مسند الامام الحسن عليه السلام، الشيخ عزيز الله عطاردي، ص ٥٩٢.

٣٩- قرب الاسناد، الحميري القمي، ص ١٠٤. ومسند الامام الحسن عليه السلام، الشيخ عزيز الله عطاردي، ص ٦٥٩ عن قرب الاسناد.

وهذا من الأحاديث المرغوبة في تكرار ودوام الاختلاف والذهاب الى المساجد حد الإدمان ، فإن من فعل ذلك لا يعدم واحدة من سبع خصال^{٤٠}.

٤٠ - وقد ضعف رجالبو ومحدثو مدرسة الخلفاء الحديث، بل حكم عليه بعضهم كالألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة: ١٣ / ٦١٥ بالوضع، فقال إنه موضوع، واحتج لذلك: بعد أن ذكر سعد بن طريف بقوله: ((ليس بشيء)). وعن النسائي: (متروك الحديث). ثم ساق له أحاديث كثيرة؛ هذا أحدها، ثم قال: ((وله غيرها، وكلها لا يروها غيره، وهو ضعيف جداً)). وقال ابن حبان: ((كان يضع الحديث على الفور)). وقال الهيثمي في (المجمع): (٢٣ / ٢)، ((رواه الطبراني في (الكبير)، وفيه سعد بن طريف الإسكافي، وقد أجمعوا على ضعفه)). ثم قال: قلت: ويد الصنع والوضع والتكلف فيه ظاهرة، فلا أدري كيف لم يورده ابن الجوزي في (موضوعاته)، أو في (علله) على الأقل! انتهى كلام الألباني.

أقول: من العجيب الحكم على الحديث بالوضع لمجرد أن أحد رواته قد حكم عليه بعضهم بالضعف، أو بأنه متروك. مع أن الحديث تعددت طرقه في أحاديث مدرسة الإمامية، وبعضها تام بلا كلام، وعلى فرض أن هذا الطريق أو ذلك مبتلى بضعف أحد الرواة، فإن كونه ذا طرق متعددة، بالإضافة إلى قوة مضمونه وعلو معناه يجعل من الممكن الاطمئنان إلى صدوره.

وأما تفصيل القول:

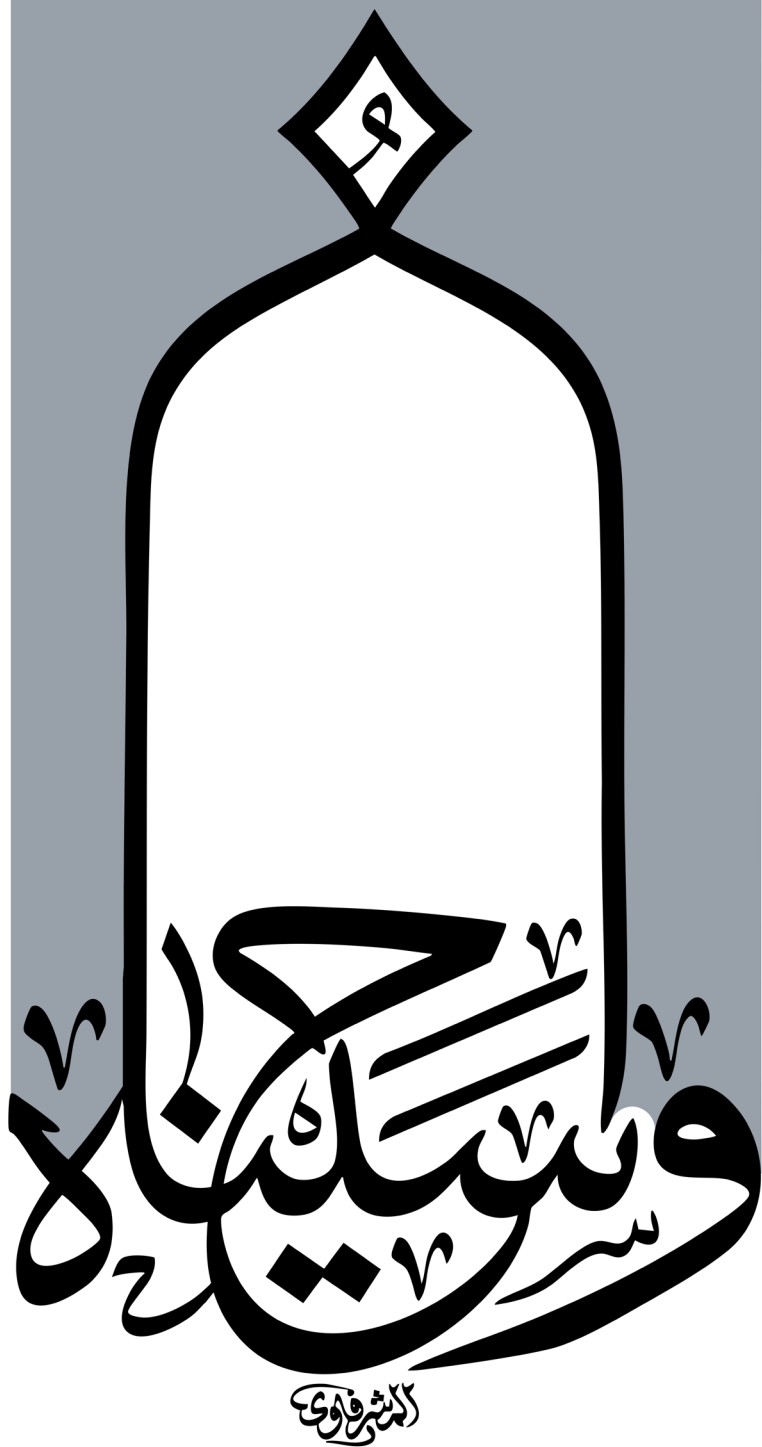
أ / فإن من حكموا بضعفه، ولأجله ضعفوا الحديث، بل وصفوه بالوضع وهو سعد بن طريف، حتى قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٢٣ / ٢، وفيه سعد بن طريف الإسكافي، وقد أجمعوا على ضعفه ((والظاهر أن تضعيفهم إياه ناشئ من تشيعه، فإذا تمّ توثيقه فماذا يصنعون بروايته في التشيع؟ وهذا ما أجمله ابن معين وغيره، وفصله أبو عمرو الفلاس بقوله كما نقله عنه الذهبي في ميزان الاعتدال: (٢٣ / ٢))، قال الفلاس: ضعيف يفرط في التشيع)). وقد حكم الإمام الخوئي أعلى الله مقامه في معجم رواة الحديث: ٩ / ٧١ بوثاقته، فقال بعد أن ناقش ما ورد في شأنه من الروايات والأقوال: ((ثم إن الظاهر وثاقة الرجل، لقول الشيخ: وهو صحيح الحديث، ووروده في إسناد علي بن إبراهيم بن هاشم في التفسير)).

ب / إن ما ذكره الألباني من قوله: ((يد الصنع والوضع والتكلف فيه ظاهرة)) لا نعلم من أين رأى يد الصنع والتكلف والوضع؟ وهل هي يد واحدة أو ثلاث أياد؟ بل نرى العكس تماماً، فإن نسيجه يتوافق مع ما هو المألوف من أحاديث رسول الله ﷺ والمعصومين بعده.

ج / إن نصه موجود في أسانيد متعددة؛ تارة تنتهي إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام، وأخرى إلى الحسن المجتبي. وفي هذا كفاية لبيان أن ما ذكره من ظهور يد الوضع والتكلف هو أمر باطل، إلا أن يعتقد أن الواضع هو علي أو الحسن، نعوذ بالله! كما أن محتواه موجود في أحاديث كثيرة، وبأسانيد مختلفة.

فقد نقله السيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة: ٤ / ٤٥١، عن الصدوق في الفقيه هكذا: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: من اختلف إلى المساجد أصاب إحدى الثمان: أخا مستفاداً في الله عز وجل، أو علماً مستطراً، أو آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو كلمة تردده عن ردى، أو يسمع كلمة تدله على هدى، أو يترك ذنباً خشية أو حياء.

وعن المستدرک للنوري، ناقلاً عن المفيد في مجالسه، عن الصدوق، وكذلك عن الصدوق في الأمالي، والخصال، وفيها عن سعد (بن طريف) الإسكافي، عن عمير بن مأمون، عن الحسن السبط، عن النبي ﷺ ومحتواه ومضمونه في فوائد الاختلاف للمساجد هو من أجود المتون الموافقة للاعتبار. ولعله لأجل تعدد طرقه - على الأقل في مصادر الإمامية - وقوة مضمونه، مرّ كثير عليه من مدرسة الخلفاء، ونقلوه، ولم يتعقبوه بالتضعيف، فلا غرابة لما عده الألباني غريباً حين لم يدر أنه لماذا لم يذكره ابن الجوزي في (موضوعاته)، أو في (علله) على الأقل! فقد ذكره ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) في عيون الأخبار: ٣ / ٥، والطبراني (٣٦٠ هـ) في أخبار الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام: ١٤٩ والغزالي (ت ٥٠٥ هـ) في إحياء علوم الدين ج ١٤ / ١٧٠ وابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) في تاريخ مدينة دمشق: ١٤ / ٩٢، لكنه نسب للإمام الحسين عليه السلام. ولعله تصحيف وجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) في الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٣ / ٢١٧، والهيثمي (ت ٨٠٧) في كشف الأستار: ٤ / ١٨، مع زيادة: ((عن الحسن بن علي قال: سمعت أبي وجدي)). وأما في مصادر الإمامية فلعل لا تجد فقيهاً يتعرض إلى أحكام المساجد لا يذكره.



الحسين عليه السلام منهاج الحرية

رسول محمد

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق البرية ومحور النجاة محمد المصطفى ﷺ وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

في ظل الارتقاء والسمو نحو الكمال البشري، والوصول إلى سبل الخير والهداية، وبناء مجتمع قيّم يتكلم بلغة التماسك والمحبة والتحرر من الظلم والإستبداد، فلا يكمل ذلك إلا بتطبيق أقوال وأفعال أهل البيت عليه السلام بالصورة الفعلية لا النظرية.

فمن هذا المنطلق ارتأيت أن أُبين معالم السطور النورانية التي تشرق من أهل بيتٍ عُرفوا بالنبل والكرامة ونشر ينابيع العلم، لأنهم مهبط الوحي، فظهر من ذلك البيت الإمام الحسين عليه السلام، الذي مثّل أروع المثل العليا في إحياء بيضة الإسلام، وذلك من خلال ثورته الكبرى التي ليس لها مثيل في جميع بقاع العالم، فتلك فاجعة عظمت ليس قبلها ولا تحصل بعدها ثورة تحقق للبشرية الحرية وحماية الحقوق بجميع أوجيتها، فتلك الشهادة كانت فحواها النصر للقيم الإنسانية.

فتألف هذا البحث الميسر من عشرٍ عشرٍ معشارٍ من الآفاق الظاهرية المتسمة في نشر المعالم التربوية والإصلاحية التي بثها عليه السلام، والتي تُنير بالوجه الإنساني

نحو تغيير الواقع من الظلمات إلى النور، من خلال معرفة مستوى الحرية التي أسسها الإمام عليه السلام والتي تأخذ بأيدي الناس نحو العدالة والإصلاح.

فتناول البحث مقدمة وتمهيد لمفهوم الحرية، ثم تطرق المبحث الأول إلى بيان الحرية في المنظور القرآني، ودارَ المبحث الثاني حول الحرية في المنظور الإسلامي والغربي، بينما كان ختام البحث وجوهره في المبحث الثالث والذي تحدث عن مفهوم الحرية عند الإمام الحسين عليه السلام.

” وفي الختام بقي لنا أن نقول بأنه: لم تشغل الساحة العلمية والفكرية في التحدث عن شخصية الإمام الحسين عليه السلام من جانب اختراع خلود الإنسانية الذي هو مبدأ الحرية، فنسأل من الله التسديد والتوفيق في ذلك.“

التمهيد:

قبل الخوض في غمار البحث يجب علينا بيان أصل ومفهوم الحرية لغةً واصطلاحاً، لكي تتم المعرفة بصورة كاملة عن الحرية وبيان مصداقها. مفهوم الحرية لغةً:

معنى الحرية في اللغة كما ذكر ذلك ابن منظور: هي مصدر من حَرَرْتَ تَحْرُ، وَحَرَّ يَحْرُ حَرَارًا إِذَا عَتَقَ، وَحَرَّ يَحْرُ، حُرْبَةً، مِنْ حُرْبَةِ الْأَصْل، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ الْحُرِّيَّةَ مَصْدَرٌ مِنْ حَرَّ يَحْرُ إِذَا صَارَ حُرًّا وَالْأَسْمُ الْحُرِّيَّةُ. وَالْحُرُّ بِالضَّمِّ نَقِيضُ الْعَبْدِ، وَالْجَمْعُ أَحْرَارٌ وَحَرَارٌ، وَالْحُرَّةُ نَقِيضُ الْأَمَةِ، وَالْجَمْعُ حَرَائِرٌ، وَيُقَالُ: حَرَّرَهُ: أَيَّ أَعْتَقَهُ، وَالْمُحَرَّرُ: أَيُّ الْمُعْتَقِ^١.

١- ابن منظور، العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب: ١٨١ / ٤، نشر أدب الحوزة / قم-إيران، ١٤٠٥ هـ محرم.

ويقول الباحث والكاتب العراقي، الشيخ القرشي: (الحرية في اللغة تطلق على الخلوص من العبودية، فيقال: هو حر، أي غير مُسترق، وتطلق على الخلوص من القيد والأسر، وفي الإسلام فإنَّ الحرية تارة يُراد بها الخلوص من العبودية، فيقال: حر (أي غير مملوك)، وأخرى يُراد بها الرضا والاختيار، فيقال: فلان حر في تصرفاته، أي غير مكره، كما أنها تطلق ويُراد منها تخليص النفس من الأوهام والخرافات، كما يقال: فلان متحرر من الأوهام)^٢.

ويستل القرطبي (ت ٧١١ هـ) من الآية الكريمة النازلة بحق السيدة مريم عليها السلام واحدة من معاني الحرية؛ إذ أنَّ: (قوله تعالى: «محرراً» مأخوذ من الحرية التي هي ضد العبودية، من هذا تحرير الكتاب وهو تخليصه من الإضطراب والفساد)^٣. فيتضح من خلال التعاريف اللغوية لكلمة الحرية أنَّ اللفظ وما أُشتق منه يفيد المعني المضاد للرق والعبودية، فالحر من ليس بعبد، والعبودية والعبد اسم للآدمي المملوك لآخر.

٢- القرشي، الشيخ باقر شريف، نظام الإسلام السياسي: ١٨٣-١٨٤، دار التعارف للمطبوعات/ بيروت، الطبعة ٢/ ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.

٣- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ)، تفسير القرطبي: ٤/ ٦٦، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب/ القاهرة، الطبعة ٢/ ١٣٧٢ هـ.

مفهوم الحرية اصطلاحًا:

ففي الإصطلاح نجد تعاريف كثيرة للحرية؛ منها: تعريف أبي حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ) بأنها: (إرادة تقدمتها رؤية مع تمييز)^٤.

” والحرية عند المفكر العراقي وأستاذ الحوزة العلمية الشيخ فاضل الصفار بقوله: (إنَّ الحرية تعني استقلال الفرد في أن يفكر ما يريد، ويفعل ما يشاء، ويملك ما يقدر على امتلاكه)، وقد اعتبر الصفار: (إنَّ الحرية ليست سوى أن يكون الوضع الاجتماعي بنحوٍ يستطيع فيه كل فرد من أفراد المجتمع من ممارسة أعماله ويفجر مواهبه وقابلياته، وانتخاب طريقة حياته، والعقيدة التي يؤمن بها بلا مانع يمنعه أو حاجز يحجزه من ذلك)^٥.

ويقرر الباحث والأكاديمي اللبناني الدكتور زيادة: (إنَّ الحرية هي الأعمال التي نقوم بها والتي لا تخضع لقوانين حتمية تخرج عن سلطتنا، أو هي مجموعة الاختبارات التي نقوم بها من تلقاء ذاتنا دون إكراه خارجي)^٦.

من مجمل التعريفات الواردة حول الحرية، أعتقد أن الحرية هي: حق الفرد في أن يتصرف اختيارًا بما لا يضر بنفسه أو بالآخرين، منطلقًا من إرادة نزاهة عن هوى النفس، ومحكومًا بالتشريع والقوانين، وسوف نورد تفاصيل أكثر عن مبدأ الحرية في مبحث (الحرية في المنظور الإسلامي) إن شاء الله.

٤- التوحيدي، أبي حيان، المقابسات: ٣١٤، المكتبة البهارية/ مصر، الطبعة الأولى.

٥- الصفار، الشيخ فاضل، ضد الاستبداد: ٥٤-٥٥ و ١٢٩، دار الخليج العربي للطباعة والنشر/ بيروت، ط. ١ / ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

٦- زيادة، د. معن، موسوعة الفلسفة العربية: ١ / ٣٦٥، معهد الانماء العربي/ بيروت، الطبعة ١ / ١٩٨٨م.

المبحث الأول: الحرية في المنظور القرآني

وردت آيات كثيرة بيّنت مفهوم الحرية بألفاظٍ متنوعة؛ منها لفظٌ صريح حقيقي من حيث المشتقات لا بلفظ الحرية مباشرة، ومنها لفظٌ مجازي يُراد به معنى الحرية، لأجل تثبيت كينونة الفرد في اتخاذ مساره الذي يريده.

فمن تلك الألفاظ الحقيقية هي:

١ - كلمة (تحرير) في الآية:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٧﴾.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٨﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَا ذَلِكُمْ يُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٩﴾.

٧- النساء: ٩٢.

٨- المائدة: ٨٩.

٩- المجادلة: ٣.

٢- كلمة (محرراً) التي تتحدث عن نذر أم السيدة مريم، حيث قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^{١٠}.

٣- كلمة (الحر) في آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^{١١}.

وهناك ألفاظ مجازية عبرت عن معنى الحرية؛ والألفاظ هي:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^{١٢}.

قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^{١٣}.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^{١٤}.

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^{١٥}.

١٠- آل عمران: ٣٥.

١١- البقرة: ١٧٨.

١٢- يونس: ٩٩.

١٣- يونس: ١٠١.

١٤- الإسراء: ٤٤.

١٥- البقرة: ٢٥٦.

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَغْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^{١٦}.

قال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^{١٧}.

قال سبحانه مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^{١٨}.

قال تعالى أيضًا مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^{١٩}.

قال سبحانه مخاطبًا النبي محمد ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾^{٢٠}.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾^{٢١}.

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾^{٢٢}.

١٦- الزمر: ١٤-١٥.

١٧- الكافرون: ١-٦.

١٨- البقرة: ٢٧٢.

١٩- هود: ١٢.

٢٠- الغاشية: ٢١-٢٢.

٢١- الكهف: ٢٩.

٢٢- الشورى: ٢٠.

قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾^{٢٣}.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^{٢٤}.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^{٢٥}.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ * وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾^{٢٦}.

قال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^{٢٧}.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفَةٍ * وَقَدْ يُخَالِفُ الْمَذْمُومُونَ﴾^{٢٨}.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^{٢٩}.

جمعنا لكم بعض الآيات القرآنية التي دلّت عن معنى الحرية، والتي وردت العديد من الآيات في القرآن الكريم لتعريف الناس بمبادئ الحرية، وكيفية ترسيخها في المجتمعات دون الإعتداء على حريات الآخرين، حيث جاء الإسلام لتحرير اعلال الناس من أفكار الجاهلية وضلالاتها.

٢٣- الإسراء: ٨٤.

٢٤- الزلزلة: ٧-٨.

٢٥- الأنعام: ١٦٤.

٢٦- النجم: ٣٦-٤٢.

٢٧- النمل: ٦٩.

٢٨- سبأ: ٤٦.

٢٩- سورة آل عمران: ٦٤.

” وعلى طريقة القرآن في ضرب الأمثال للناس؛ لإيضاح المفاهيم الضرورية بإثارة وتحفيز أدوات الفكر وإعمال العقل، فقد ضرب مثلاً في سورة النحل يعبر عن الأهمية القصوى لقيمة الحرية في مسيرة الناس، فقال تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْنا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^{٣٠}.

فلا تساوي بين من يتمتع بالحرية ويعيش بها وبين من سلبت منه الحرية، وهذا من أساسيات العلم.

المبحث الثاني: مفهوم الحرية في الإسلام والغرب

جاء سؤالاً من أحد الباحثين عبر المنصة الإلكترونية التابعة لمركز الأبحاث العقائدية^{٣١}؛ وذلك ليتعرف عن تفاصيل الحرية الإسلامية والغربية، حيث طرح أسئلته على النحو التالي:

السلام عليكم..

أولاً: هل لكم أن تشرحوا لنا مفهوم الحرية في الإسلام؟

أو بمعنى آخر: ما هو تعريف الحرية في الإسلام؟

ثانياً: ما الفرق بينها وبين الحرية المطروحة حالياً في مجتمعاتنا والتي تعني عمل كل ما يحلو للنفس عمله؟

٣٠- النحل: ٧٥.

٣١- مركز الأبحاث العقائدية، هي منصة الكترونية تحت رعاية ومباركة المرجع الديني آية الله السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله الوارف).

ثالثًا: عندما تكون حرًا توجد عندك عدة خيارات وأنت حر في اختيار أحدها، ولكن القول بأن: الدين الإسلامي له في كل واقعة حكم يناقض ذلك، حيث أنه يقدم خيارًا واحدًا فقط وعلى المسلمين اتباعه، فأين الحرية؟

رابعًا: أرجو الإجابة عن هذه الإشكالية الموجودة لديّ وهي:

نظريًا: نسمع بأن الإسلام هو دين الحرية، ولكن عمليًا لا توجد حرية، بل هناك أحكام والتزامات توصل الإنسان إلى السعادة والكمال كما هو معروف، أنا على يقين بأن الأحكام والإلتزامات في مصلحة الإنسان، ولكن لا تقولوا أن: الإلتزام بأحكام وقيود هي الحرية!

وشكرًا لكم...

الجواب:

الأخ المحترم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الحرية على ما يُراد بها من المعنى لا يتجاوز عمرها في دورانها على الألسن عدة قرون، ولعل السبب المبتدع لها هي النهضة المدنية الأوروبية قبل بضعة قرون، لكن معناها كان جاثلاً في الأذهان وأمنية من أمانى القلوب منذ أعصارٍ قديمة، والأصل الطبيعي التكويني الذي ينتشي منه هذا المعنى: هو ما تجهز به الإنسان في وجوده من الإرادة الباعثة إياه على العمل، فإنها حالة نفسية في إبطائها؛ إبطال الحس والشعور المنجر إلى إبطال الإنسانية، غير أن الإنسان لما كان موجودًا اجتماعيًا تسوقه طبيعته إلى الحياة في المجتمع وإلقاء دلوه في الدلاء بإدخال إرادته في الإرادات وفعله في

الأفعال المنجزة إلى الخضوع لقانون يعدل الإرادات والأعمال بوضع حدود لها، فالطبيعة التي أعطته إطلاق الإرادة والعمل هي بعينها تحدد الإرادة والعمل وتقيّد ذلك الإطلاق الابتدائي، والحرية الأولية، والقوانين المدنية الحاضرة، لما وضعت بناء أحكامها على أساس التمتع المادي أنتج ذلك حرية الأمة في أمر المعارف الأصلية الدينية من حيث الالتزام بها وبلوازمها، وفي أمر الأخلاق وفي ما وراء القوانين من كل ما يريده ويختاره الإنسان من الإرادات والأعمال، فهذا هو المراد بالحرية عندهم.

أما الإسلام فقد وضع قانونه على أساس التوحيد، ثمّ في المرتبة التالية على أساس الأخلاق الفاضلة، ثمّ تعرّضت لكل يسيرٍ وخطيرٍ من الأعمال الفردية والاجتماعية كائنة ما كانت، فلا شيء مما يتعلق بالإنسان أو يتعلق به الإنسان إلا وللشرع الإسلامي فيه قدم أو أثر قدم، فلا مجال ولا مظهر للحرية بالمعنى المتقدم فيه، نعم، للإنسان فيه الحرية عن قيد عبودية غير الله سبحانه، وهذا وإن كان لا يزيد على كلمة واحدة غير أنه وسيع المعنى عند مَنْ بحثَ بحثَ تعمق في السُّنَّة الإسلامية والسيرة العملية التي تنذب إليها وتقرها بين أفراد المجتمع وطبقاته، ثمّ قاس ذلك إلى ما يشاهد من سُنن السُّود والسيادة والتحكّيات في المجتمعات المتمدنة بين طبقاتها وأفرادها أنفسها وبين كل أمة قوية وضعيفة، وأما من حيث الأحكام، فالتوسعة فيما أباحه الله من طيبات الرزق ومزايا الحياة المعتدلة من غير إفراط أو تفريط، حيث قال تعالى: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^{٣٢}، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^{٣٣}، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^{٣٤}.

٣٢ - الأعراف: ٣٢.

٣٣ - البقرة: ٢٩.

٣٤ - الجاثية: ١٣.

ومن عجيب الأمر ما رآه بعض الباحثين والمفسرين وتكلف فيه من إثبات حرية العقيدة في الإسلام بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^{٣٥} وما يشابهه من الآيات الكريمة، فإنَّ التوحيد أساس جميع النواميس الإسلامية، ومع ذلك: كيف يمكن أن يشرع حرية العقائد؟

وهل ذلك إلا التناقض الصريح؟! فليس القول بحرية العقيدة إلا كالقول بالحرية عن حكومة القانون في القوانين المدنية بعينه، وبعبارة أخرى: العقيدة بمعنى حصول إدراك تصديقي ينعقد في ذهن الإنسان ليس عملاً اختياريًا للإنسان حتى يتعلق به منع أو تجويز أو إستعباد أو تحرير، وإنما الذي يقبل الحظر والإباحة هو الإلتزام بما تستوجهه العقيدة من الأعمال؛ كالدعوة إلى العقيدة، وإقناع الناس بها، وكتابتها، ونشرها، وإفساد ما عند الناس من العقيدة، والعمل المخالفين لها، فهذه هي التي تقبل المنع والجواز، ومن المعلوم أنها إذا خالفت مواد قانون دائر في المجتمع أو الأصل الذي يتكئ عليه القانون لم يكن مناص من منعها من قبل القانون، ولم يتك الإسلام في تشريعه على غير دين التوحيد - التوحيد والنبوة والمعاد - وهو الذي يجتمع عليه المسلمون واليهود والنصارى والمجوس - أهل الكتاب -، فليست الحرية إلا فيها، وليست فيما عداها إلا هدمًا لأصل الدين، نعم، ههنا حرية أخرى وهي الحرية من حيث إظهار العقيدة في مجرى البحث.

٣٥ - البقرة: ٢٥٦.

” نحن حينما نطلق كلمة (الحرية)، نقصد بها معناها العام وهو: نفي سيطرة الغير، فإنَّ هذا المفهوم هو الذي نستطيع أن نجده في كل من الحضارتين (الإسلامية والرأسمالية)، وإن اختلف إطاره وقاعدته الفكرية في كل منهما، ومنذ نبداً بالمقارنة بين الحرية في الإسلام والحرية في الديمقراطية الرأسمالية، تبدو لدينا بوضوح الفروق الجوهرية بين الحرية التي عاشها المجتمع الرأسمالي ونادت بها الرأسمالية وبين الحرية التي حمل لواءها الإسلام وكفلها للمجتمع الذي صنعه وقدم فيه تجربته على مسرح التاريخ.

“

فكل من الحريتين تحمل طابع الحضارة التي تنتمي إليها، وتلتقي مع مفاهيمها عن الكون والحياة، وتعبر عن الحالة العقلية والنفسية التي خلقتها تلك الحضارة في التاريخ.

فالحرية في الحضارة الرأسمالية: بدأت شكاً مريباً طاعياً، واستحال هذا الشك في امتداده الثوري إلى إيمان مذهبي بالحرية، وعلى العكس من ذلك الحرية في الحضارة الإسلامية: فإنَّها تعبير عن يقين مركزي ثابت (الإيمان بالله) تستمد منه الحرية ثورتها، وبقدر ارتكاز هذا اليقين وعمق مدلوله في حياة الإنسان تتضاعف الطاقات الثورية في تلك الحرية.

والحرية الرأسمالية ذات مدلول إيجابي، فهي تُعتبر: إن كل إنسان هو الذي يملك بحق نفسه، ويستطيع أن يتصرف فيها كما يحلو له دون أن يخضع في ذلك لأية سلطة خارجية، ولأجل ذلك كانت جميع المؤسسات الاجتماعية - ذات النفوذ في حياة الإنسان - تستمد حقها المشروع في السيطرة على كل فرد من الأفراد أنفسهم.

وأما الحرية في الإسلام فهي تحتفظ بالجانب الثوري من الحرية، وتعمل لتحرير الإنسان من سيطرة الأصنام، كل الأصنام التي رزحت الإنسانية في قيودها عبر التاريخ، ولكنها تقيم عملية التحرير الكبرى هذه على أساس الإيمان بالعبودية المخلصة لله وحده، فعبودية الإنسان لله في الإسلام - بدلاً عن امتلاكه لنفسه في الرأسمالية - هي الأداة التي يحطم بها الإنسان كل سيطرة وكل عبودية أخرى، لأن هذه العبودية في معناها الرفيع تشعره بأنه يقف وسائر القوى الأخرى التي يعيشها على صعيد واحد أمام رب واحد، فليس من حق أية قوة في الكون أن تتصرف في مصيره، وتتحكم في وجوده وحياته.

والحرية في مفاهيم الحضارة الرأسمالية حق طبيعي للإنسان، وللإنسان أن يتنازل عن حقه متى شاء، وليست كذلك في مفهومها الإسلامي، لأن الحرية في الإسلام ترتبط ارتباطاً أساسياً بالعبودية لله، فلا يسمح الإسلام للإنسان أن يستذل، ويستكين، ويتنازل عن حريته، حيث قال أمير المؤمنين (عليه السلام): ((لَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا))^{٣٦}، فالإنسان مسؤول عن حريته في الإسلام، وليست الحرية حالة من حالات انعدام المسؤولية. هذا هو الفرق بين الحريتين في ملامحها العامة.

وعلى هذا الضوء نتبين الحرية في هذه الحضارة بملامحها التي ألمعنا إليها في مستهل هذا الفصل، فهي ظاهرة حضارية بدأت شكاً مراراً قلقاً، وانتهت إلى إيمان مذهبي بالحرية، وهي تعبير عن: إيمان الإنسان الغربي بسيطرته على نفسه وامتلاكه لإرادته بعد أن رفض خضوعه لكل قوة، فلا تعني الحرية في الديمقراطية الرأسمالية: رفض سيطرة الآخرين فحسب، بل تعني أكثر من هذا: سيطرة الإنسان على نفسه وانقطاع صلته عملياً بخالقه وآخرته، وأما الإسلام فموقفه من الحرية يختلف بصورة أساسية عن موقف الحضارة الغربية،

٣٦- نهج البلاغة (تحقيق: صبحي الصالح): ٤٠١.

فهو يعني بالحرية بمدلولها السلبي أو بالأحرى معطائها الثوري، الذي يحرر الإنسان من سيطرة الآخرين، ويكسر القيود والأغلال التي تكبل يديه.

ويعتبر تحقيق هذا المدلول السلبي للحرية هدفًا من الأهداف الكبرى للرسالة السماوية بالذات، حيث قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^{٣٧}، ولكنه لا يربط بين هذا وبين مدلولها الإيجابي في مفاهيم الحضارة الغربية، لأنه لا يعتبر حق الإنسان في التحرر من سيطرة الآخرين والوقوف معهم على صعيد واحد نتيجة لسيطرة الإنسان على نفسه، وحقه في تقرير سلوكه ومنهجه في الحياة - الأمر الذي نطلق عليه: المدلول الإيجابي للحرية في مفهوم الحضارة الغربية -، وإنما يربط بين الحرية والتحرر من كل الأصنام والقيود المصطنعة، وبين العبودية المخلصة لله.

فالإنسان عبد الله قبل كل شيء، وهو بوصفه عبدًا لله لا يمكن أن يقر سيطرة لسواه عليه، أو يخضع لعلاقة صنمية مهما كان لونها وشكلها، بل أنه يقف على صعيد العبودية المخلصة لله، مع المجموعة الكونية كلها على قدم المساواة.

فالقاعدة الأساسية للحرية في الإسلام هي: التوحيد، والإيمان بالعبودية المخلصة لله، الذي تتحطم بين يديه كل القوى الوثنية التي هدرت كرامة الإنسان على مر التاريخ، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^{٣٨}، وقال تعالى أيضًا: ﴿اتَّعْبُدُون مَا تَنَحَّيْتُمْ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^{٣٩}، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِّن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾^{٤٠}، وقوله: ﴿أَأَرْبَابٌ

٣٧- الأعراف: ١٥٧.

٣٨- آل عمران: ٦٤.

٣٩- الصافات: ٩٥-٩٦.

٤٠- الأعراف: ١٩٤.

مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^{٤١}، وهكذا يُقَيِّمُ الإسلام التحرر من كل العبوديات على أساس الإقرار بالعبودية المخلصة لله تعالى، ويجعل من علاقة الإنسان بربه الأساس المتين الثابت لتحرره في علاقاته مع سائر الناس، ومع كل أشياء الكون الطبيعية.

” الخلاصة: الإسلام والحضارة الغربية، وإن مارسا معاً عملية تحرير الإنسان، ولكنها يختلفان في القاعدة الفكرية التي يقوم عليها هذا التحرير؛ فالإسلام يقيّمها على أساس العبودية لله والإيمان به، والحضارة الغربية تُقيّمها على أساس الإيمان بالإنسان وحده وسيطرته على نفسه، بعد أن شكت في كل القيم والحقائق وراء الأبعاد المادية لوجود الإنسان.“

ولأجل ذلك كان مرد فكرة الحرية في الإسلام إلى عقيدة إيمانية موحدة بالله، ويقين ثابت بسيطرته على الكون، وكلما تأصل هذا اليقين في نفس المسلم تركزت نظراته التوحيدية إلى الله، وتسامت نفسه، وتعمق احساسه بكرامته وحريته، وتصلبت إرادته في وجه الطغيان والبغي واستعباد الآخرين، حيث قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾^{٤٢}، وعلى العكس من ذلك فكرة الحرية في الحضارة الغربية: فإنّها كانت وليدة الشك لا اليقين، ونتيجة القلق والثورة لا اليقين والاستقرار.

٤١- يوسف: ٣٩.

٤٢- الشورى: ٣٩.

المبحث الثالث: الحرية عند الإمام الحسين (عليه السلام)

الإختراع في مبدأ الحرية:

إِنَّ لكل شيءٍ يُشتق من أصله وينشأ ويتبدع يُقال له خرع^{٤٣}، أي اخترع، فعندما يبحث العالم ليظهر شيئاً جديداً للناس، أو مندثراً من العدم إلى الوجود فعندها يسمى الإبداع.

ويجب علينا أن نجزم بأن الإختراع عند الله (عز وجل) قد أبدع وتفنن في صنْع الكون، كما في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^{٤٤}، هذه من الناحية الكونية التي يعجز البشر عن قدرة إبداع جزءاً بسيطاً من تلك الأشياء الكونية، وأما من الناحية البشرية فيأمكن الإنسان اختراع أداة أو شيئاً يسيراً من خلال العقل، والذي يلهمه الله للإنسان على التفكير في صنع الأشياء.

” فعندما نتكلم عن إبداع الحرية في التاريخ نجد بأنّها كانت موجودة قبل العصر الإسلامي، وحتى الأنبياء كانوا يدعون إلى الحرية، وأيضاً الفلاسفة تكلموا بها، ولكن الإمام الحسين (عليه السلام) قد اشتق ذلك الإختراع ويبن صورة الحرية من معناها الظاهري إلى معناها الجوهرية.“

أدوات الإختراع:

الكلمة (تكلم) (عليه السلام) عن الإنسان بأنه حرّاً من خلال خطابه في عاشوراء).

العدد (كان الإمام (عليه السلام) قليل الناصر).

٤٣- والخرع: الشق: يقال: خرعت فانخرع. واخترع كذا، أي اشتقه، ويقال: أنشأه وأبتدعه. ينظر: الصحاح في اللغة: ١٢٠٣، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣ هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين/ بيروت-لبنان، ط. الرابعة/ ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.
٤٤- البقرة: ١١٧.

العُدَّة (قليل السيف والأسلحة الحربية).

العمل (جَهَدَ الإمام ﷺ بنفسه، وبعياله، وبثلة قليلة لمحاربة الباطل، لكي يُبَيِّن الحرية الفردية).

أهداف الاختراع:

قام الحسين ﷺ بتلك التضحية الثورية لكي يُقَنَّ القوانين للبشرية حتى يسيروا على ذلك المنهاج، فإنَّ التضحية ليست بديهية وواضحة لدى الناس، بل هي ذو عمقٍ ونطاقٍ واسع، فقد تكون محسوسة وغير ملموسة، أو قد تكون ظاهرية عند بعض الناس من حيث المضمون بأنَّه: "ضحى من أجل الإسلام"، ولكن هي قضية باطنية ومستترة لا يعلمها إلاَّ الباري عزَّ وجلَّ، ولا نحيطها بكل حذافيرها، بل نعلم منها على مستوى المضمون.

لذا يجب علينا كمخلوقين أن نعرف تلك القضية المندثرة الباطنية ولو بعشر عُشيرٍ معشارٍ من مواردها ومصالحتها على الخلق، ونرى أنَّ القضية مُنْصَبَةٌ حول أهدافٍ معينة؛ منها:

من أجل الإسلام والمسلمين:

من ضمن تلك التضحية التي قام بها سيد الشهداء ﷺ هي من أجل بقاء بيضة الإسلام حيَّة، حيث كان الإسلام على وشك نهايته في زمان الإمام ﷺ، فأراد يزيد بن معاوية طمس راية الإسلام ومحو صورته وأركانه.

فالإسلام الذي جاء به نبينا محمد ﷺ هو خاتم الأديان السماوية على وجه الأرض، فليس بعده دين يُؤْتى كما كان من قبله دين الصحف التي نزلت على النبي إبراهيم، ودين اليهودية في كتاب التوراة على النبي

موسى، ودين المسيح في كتاب الإنجيل على النبي عيسى (عليه السلام أجمعين) إلى أن انتهى إلى الإسلام، فحافظ الإمام (عليه السلام) على الدين الإسلامي الأصيل من خلال تضحيتهِ العظيمة، وقد أثبت ذلك في مقولته الشهيرة:

إن كان دين محمد لم يستقيم إلا بنفسي يا سيوف خذيني^{٤٥}

وقد صرَّح بذلك الداعية الإسلامي الدكتور زكي بدوي، فقال:

” (علينا نحن المسلمين أن نستلهم الدروس والعبر من الثورة الحسينية العظيمة، لأنَّها أرسَّت الأسس الثابتة لنظام إسلامي متنور، خالي من تسلُّط المفسدين)^{٤٦}. “

من أجل الإنسانية:

يُعتبر هذا الهدف من أهم الأهداف الذي عَنَى به أبو عبد الله الحسين (عليه السلام)، لأنَّه من خلاله أراد للإنسان أن يعيش حرًّا في حياته، ويطالب بحقوقه متى ما أراد من السلطة والدولة الظالمة أن يستردها بالطرق السلمية.

وعن معنى الحرِّيَّة الإنسانية، قال الكاتب الفرنسي فكتور هيجو:

(أصبحت مبادئ الثورة الحسينية منهجًا لكل ثائر يريد أن ينتزع حقَّه من ظالميه)^{٤٧}.

٤٥ - الأمين، أعيان الشيعة: ١ / ٥٨١، السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١ هـ)، حسن الأمين، دار التعارف - بيروت، ط. الخامسة.

٤٦ - زمزم، سعيد رشيد زمزم (معاصر)، الحسين شاغل الدنيا: ٣٧، مؤسسة البلاغ - بيروت، ط. الأولى / ٢٠١٠ م - ١٤٣١ هـ.

٤٧ - المصدر نفسه: ١٠٥.

فمن الجمل التي من خلالها ضحى سيد الشهداء (عليه السلام) من أجلها هي بقاء كرامة الإنسانية، وحفظها من المهانة والظلم، وذلك لأنَّ يزيد أراد أن يغيّر مفهوم الإنسانية المشرّفة إلى وحشية ومزقة، والتي طالما شرفها عز وجل على سائر المخلوقات، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^{٤٨}.

إذن صوت الحسين (عليه السلام) يصل إلى كل بقعة من بقاع العالم، فأراد في ثورته تحقيق مبدأ الحرية الجوهرية، وأن يُبين للعالم الحضاري وجميع أطياف المجتمع على أنَّ الإنسان لا يقف مكتوف الأيدي ولا يقعد متكسّاً عندما يرى حقوقه تُسلب منه، بل يجب عليه أن يطالب بحقوقه في شتى الطرق والوسائل المشروعة، وبكل شجاعة وبسالة.

” فالعالم تأثر بقضية اختراع الحرية عند الحسين (عليه السلام)، وذلك من خلال احساسهم بأنَّ حقوقهم تسرق وعليهم أن ينهضوا بإرجاعها متى ما طالبوا بها فينتزعونها من الحكام، وعلى ذلك الأساس ظهرت مقولة مُعلّقة في إحدى الباصات المنتشرة في (مانشستر) التابعة إلى دولة بريطانيا، حيث تقول:

THE DAY HUSSAIN STOOD FOR YOUR RIGHTS

“ (يوم وقف الحسين من أجل حقوقك)

فقد يرى الإنسان نفسه بأنه بسيط ولا يقدر على اكتساب حريته من الدولة التي تتغلب عليه وتأخذ حقوقه أمام عينيه، بل بمقدوره استرداد كل ما يملك من خلال الحرية، والمطالبة بلسانه، وبكل ما يمكن بالوسائل المشروعة السلمية حتى يُغيّر الدولة الفاسدة والظالمة.

لذا فإنَّ جميع المخلوقات الواقفة على سطح الكرة الأرضية والمحيطه على الأقاليم السبعة -المليارات من الناس بمختلف طوائفهم ودياناتهم- كلهم مدينون إلى الإمام الحسين (عليه السلام)، لأنَّه وضع حجر الأساس على أعظم هدف لهم، لكي يحقق الجانب التكاملي لشخصية الإنسان ألا وهو: (حريته في عالم الدنيا)، وإنَّما لم يصل العالم في التقدم على حاله هذا إلاَّ من خلال تلك التضحية التي قدّمها سيد الشهداء (عليه السلام) في الثورة العظيمة.

وبين تلك الحقيقة الجليّة رئيس الدولة التركية (مصطفى كمال أتاتوك) في قوله:

(إنَّ الحسين (عليه السلام) قائد فذّ، علّمنا دروساً وافية في النضال، والحرية، والدفاع عن شرف النفس، فحملناها بعزيمة ثابتة تمكّنا من تحقيق النصر على أعدائنا)^{٤٩}.

” فكل مَنْ صرّح ونطق بإسم الحرية فإنَّ مرجعها إلى الحسين (عليه السلام) في العالم، فمهما يكون الشخص منصبه، ونبئت من أعلى منصب -رئيس دولة، ووزير، وقائد، وغيره- إلى أقل منصب -جندي، وغيره-، أو أي صفة يحملها بالتعبير عن حريته وبطلاقة كاملة، فالحرية نحث الآخرين بالمطالبة بحقوقهم، لأجل ارتكاز كيان الإنسان.“

٤٩- زمزم، الحسين شاغل الدنيا: ١١٤، سعيد رشيد زمزم (معاصر)، مؤسسة البلاغ-بيروت، ط. الأولى/ ٢٠١٠م-١٤٣١هـ.

فقد قال المصلح الألماني مارتن لوتر:

(أنا أدعو أبناء شعبي للإصلاح الديني، والتوافق فيما بينهم، أسوة بالإصلاح الديني الذي دعى إليه الزعيم العربي الحسين بن علي).^{٥٠}

لذا يرجع أصل ثبوت مستدركات الحرية التي أسس جذورها إلى الإمام الحسين عليه السلام، فقد أعطى المعنى الحقيقي للحرية بشكلٍ روحي في ثورةٍ قام بها ضد الظلم والعدوان؛ فمن جملة الظلم في ذلك الوقت: بأن يكون الإنسان خاضعاً وخاشعاً أمام القانون المتمثل بسلطة الدولة الأموية وبقيادة يزيد بن معاوية آنذاك، والذي أصدر قوانين ما أنزل الله بها من سلطان، حيث بثَّ قوانين قاهرة لا يستطيع الفقير والضعيف تحملها.

فكان دور الإمام الحسين عليه السلام الوقوف ضد ذلك الظلم، ومنع الدولة من السيطرة على حقوق الإنسان، وعدم جعل الفقير أو المسكين الذي لا يملك قوة يومه بأن يكون عبداً للحاكم الظالم، وعدم السكوت عن الباطل.

” لذا نرى بأن الحرية بدأت عند حركة الحسين عليه السلام

الثورية التي استلهمت العبر والدروس؛ منها: عيش الإنسان حراً بكامله، وقد ظهرت في زماننا هذا مقولات تُعبر عن الروح التي هبت إليهم من خلال جذور الحرية.

فلقد ظهرت مقولة في إحدى الباصات المتواجدة في لندن تقول:

٥٠- زميزم، الحسين شاغل الدنيا: ١٣٦، سعيد رشيد زميزم (معاصر)، مؤسسة البلاغ-بيروت، ط. الأولى/ ٢٠١٠م-١٤٣١هـ.

البحث عن الحرية، بدأ في عاشوراء

THE SEARCH FOR FREEDOM BEGAN IN THE 10TH

“

DAY

الخلاصة: الحسين عليه السلام أسس معنى الحرية الروحي في قلب كل إنسان، منذ الثورة الكبرى إلى يومنا ما شاء الله، فهي ممتدة من المدى البعيد إلى المدى القريب الواقعي الذي نعيشه الآن، فخلد ذلك المعنى؛ لكي يصبح ركنًا ثابتًا تتكئ عليه الأمة الإسلامية، بل لجميع شعوب العالم.

وفي الختام: نورد إليكم بعض أقوال الإمام الحسين عليه السلام التي من خلالها أثبت أساس الحرية؛ منها:

قال عليه السلام يوم قُتل:

الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْعَارِ وَالْعَارُ خَيْرٌ مِنْ دُخُولِ النَّارِ^{٥١}

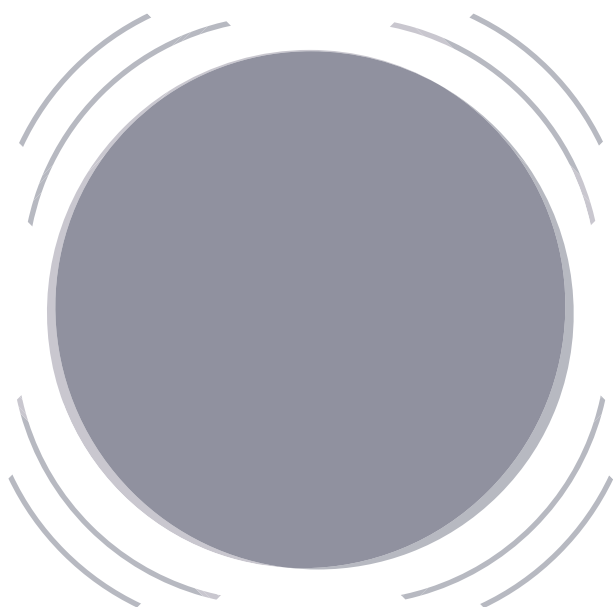
وقال عليه السلام يوم رأى بأن الأمر لا بُدَّ من النهوض ضد الظلم والجور، حيث قال: ((أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَالْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ، لِيَرْغَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَّهِ، فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً، وَالْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا))^{٥٢}.

٥١ - الحلواني، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ٨٨، حسين بن محمد بن حسن بن نصر (القرن ٥)، مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجة الشريف/ قم، ط. الأولى/ ١٤٠٨ هـ.
٥٢ - المصدر نفسه: ٨٨.

شعار آخر يرفعه الإمام الحسين رافضاً من خلاله حياة الذل مهما كان الثمن، حيث قال: ((أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ مِنَّا بَيْنَ اثْنَتَيْنِ بَيْنَ السَّلَّةِ وَالذَّلَّةِ وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذَّلَّةُ، يَا أَبَى اللَّهِ ذَلِكَ لَنَا وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَحُجُورٌ طَابَتْ وَطَهَّرَتْ، نُؤَثِّرُ مَصَارِعَ الْكِرَامِ عَلَى طَاعَةِ اللَّئِمِّ))^{٥٣}.

فتوجد الكثير من الأقوال التي نطق بها الإمام ﷺ لتحرير الفرد من القيود، فقد اقتصرنا على هذه الأقوال للاختصار لا للحصر، والله ولي التوفيق، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

٥٣- المسعودي، إثبات الوصية: ١٦٦، علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ)، أنصاريان / قم، ط. الثالثة / ١٤٢٦ هـ.



الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين

آية الله في العالمين

أبو الفضل العباس (عليه السلام) منارًا للبشرية

علي هاشم

إنَّ أبا الفضل العباس (عليه السلام) منارة الله تعالى في الأرض وحجته، وباب الإمام الحسين (عليه السلام) وقبلته، وملجأ المعتصمين، ومنارًا المهتدين، وغياث المستغيثين، ومنبع الكرم والوفاء للطالبيين.

”إنَّ أبا الفضل (عليه السلام) كان ولا يزال هو قبلة لك، إنسان حر وفي، يريد أن يكون قدوة للآخرين، فليس هناك أفضل من أبي الفضل العباس (عليه السلام) في هذا المجال؛ لأنَّه هو أفضل نموذج تتخذه البشرية بالالتزام والوفاء مع إمام زمانه الحسين بن علي (عليه السلام)، وكذلك هو خير أنموذج لكل من يريد أن يسير سيرة يرضاه الله تعالى وإمام زمانه، لما قدَّم أبو الفضل (عليه السلام) من المكارم والفضائل التي لا تعد ولا تحصى.“

وفيماء يلي سنورد لكم بعضاً من سيرته وفضائله من كتاب الخصائص العباسية للحاج محمد إبراهيم الكلباسي النجفي، حيث لخص جزءاً من سيرة أبي الفضل العباس (عليه السلام) العظيمة في كتابه، ونحن بدورنا أخذنا بعضاً منه لما فيه فائدة للقارئ الكريم.

حيث جاء في بداية الكتاب عن:

الرحم الطاهر

قال الإمام الصادق (عليه السلام): «تَزَوَّجُوا فِي الْحُجْزِ الصَّالِحِ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ»^١، وقال (عليه السلام): «اخْتَارُوا لِنُطْفِكُمْ»^٢، وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: «إِنَّمَا الْمَرْأَةُ قِلَادَةٌ، فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْلُدُهُ»^٣.

الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قال لأخيه عقيل، وكان نسابة عالماً بأنساب العرب وأخبارهم: (انظري امرأة قد ولدتها الفحول من العرب لأتزوجها فتلد لي غلاماً فارساً)^٤.

فقال له عقيل: تزوج يا أمير المؤمنين أم البنين الكلابية؛ فإنه ليس في العرب أشجع من آبائها، فتزوجها علي (عليه السلام).

وكان اسم أم البنين فاطمة، وأمها ثمامة بنت سهيل بن عامر، وكانت ثمامة هذه أديبة أريية، وعاقلة لبيبة، فأدبت ابنتها أم البنين (عليها السلام) بآداب العرب، وعلمتها ما ينبغي للبنات الرشيدة تعلمها من الأخلاق والآداب الحميدة، وأبوها اسمه حزام بن خالد بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، من شجعان العرب وفرسانهم، وكان أهلها من سادات العرب وأشرافهم، وزعمائهم وأبطالهم المشهورين.

الرؤية الصادقة

عندما تمّ الحديث الأمّ وابتنها ظهر عليها حزام وحيّاها بالسلام، وقال مبتسم الثغر، مبتهج القلب: لقد تحققت رؤياك يا بنيّة، فهذا ابن عمّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) عقيل بن أبي طالب (عليه السلام) جاء يخطبك منا.

١- مكارم الأخلاق: ١٩٧.

٢- الكافي: ٥/ ٣٣٢.

٣- الكافي: ١٠/ ٥٩٠.

٤- معالم أنساب الطالبين في شرح كتاب (سر الأنساب العلوية): ٢٥٩.

فوجئت الأم وابنتها بهذا النبأ السار الذي جاء مفسراً للرؤيا ومطابقاً لها، فطأطأت البنت رأسها حياءً، وغضت طرفها خجلاً، بينما رفعت الأم رأسها والتفتت إلى حزام وهي تقول: لمن يخطبها؟

قال حزام: لعلي بن أبي طالب عليه السلام.

فقالت الأم: وما الذي أجبت به عقيلًا؟

قال حزام: استمهلتته حتى أستشيرك في الأمر، وأرى رأيك في ذلك؟ هل ترين ابنتنا مؤهلة للزواج وكفو لأن تكون زوجة لوصي رسول الله صلى الله عليه وآله والحجة على خلق الله أمير المؤمنين علي عليه السلام؟

فأجابت الأم: نعم يا حزام، إن ابنتنا وبحمد الله رأيت فيها الكفاءة منذ صغرها، وأحسست التفوق والنبوغ من أيامها الأولى، فأدبتها بآداب العرب، وأرجو الله أن تبيض وجوهنا عند أمير المؤمنين عليه السلام.

عندها تهلل وجه حزام، وعاد إلى عقيل، فقال له عقيل: ما وراءك؟

فأجابه حزام: يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله، كل الخير إن شاء الله تعالى، لقد رضينا أن تكون ابنتنا خادمة في بيت النبوة والإمامة إن قبلها أمير المؤمنين عليه السلام.

في بيت أمير المؤمنين عليه السلام

بعد إمام الخطبة وإجراء العقد، زفت فاطمة أم البنين عليها السلام إلى زوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان ذلك بعد شهادة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام.

أم البنين عليها السلام لما جاءت في بيت أمير المؤمنين عليه السلام كانت له ولأولاده كما رجاها أبوها وأمهها، ثم أنجبت له بنين أربعة، أولهم وأفضلهم: قمر العشيرة أبو

الفضل العباس (عليه السلام)، وثانيهم: عبد الله، وثالثهم: جعفر، ورابعهم: عثمان.

” هؤلاء قد ورثوا الشجاعة من آبائهم وأسلافهم، كما أنهم ورثوا المكارم والفضائل والصدق والوفاء من أهل البيت (عليه السلام)، فكانوا لأخيهم الإمام الحسين (عليه السلام) مطيعين موالين.“

سبب تسمية أبو الفضل العباس بهذا الاسم

عندما ولد أبو الفضل العباس (عليه السلام) التفتت السيدة زينب الكبرى (عليها السلام) إلى أبيها أمير المؤمنين (عليه السلام) وقالت له: يا أبة، هل اخترت لهذا المولود اسمًا، وانتخب له كنية ولقبًا؟

فأجابها أمير المؤمنين (عليه السلام): نعم يا بنية، لقد اخترت له ذلك، قالت: وما هو؟ قال (عليه السلام): أمّا الاسم: فعباس، وأمّا الكنية: فأبو الفضل.

ملازمة السبطين (عليه السلام)

إنَّ أبا الفضل العباس (عليه السلام) بقي بعد أبيه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ملازمًا لأخويه السبطين الإمامين الهمامين الحسن والحسين (عليه السلام)، وقد رجع معهما إلى المدينة المنورة، وبقي في خدمتهما مدّة إقامتهما فيها، وتعلّم منهما معالم الدين وأصوله، وأحكام الإسلام وفروعه، ومحاسن الأخلاق.

وحتى استشهاد أخيه الأكبر الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام) على يد معاوية بالسم غدراً صار ملازمًا لأخيه الإمام الحسين (عليه السلام)، وبقي معه في المدينة المنورة، يتلقّى من علومه وآدابه، حتّى إذا خرج الإمام الحسين (عليه السلام) إلى العراق خرج معه أبو الفضل العباس (عليه السلام) ولازم ركابه إلى أن قُتل بين يديه شهيدًا صابرًا محتسبًا.

بعض من كرامات أبي الفضل عليه السلام

العباس يحير من استجار به

جاء في كتاب (الكبريت الأحمر) للشيخ البيرجندي عليه السلام أنه قال - وهو يتحدث عن نفسه -: أنه كان قد توسل بأبي الفضل العباس عليه السلام إلى الله تعالى في إنجاز بعض مهماته، ووسطه في حل شيء من مشكلاته، لكنه لم يرَ أثرًا من الإجابة.

فرأى ذات ليلة رؤيا صادقة في منامه أنه رأى شخصًا يقول له: كل مَنْ كانت له حاجة إلى الله تعالى فليقرأ هذه العبارة متوسلاً بأبي الفضل العباس عليه السلام إلى الله؛ فإنَّ الله تعالى يقضي له حاجته بوجاهة أبي الفضل العباس عليه السلام عنده، والعبارة هي كالتالي: عبد الله، أبا الفضل، دخيلك.

قال الشيخ البيرجندي: فما توسّلت إلى الله تعالى بعد ذلك بأبي الفضل العباس عليه السلام وقرأت هذه العبارة إلّا وقضى الله تعالى حاجتي، وكشف عني همّي وغمّي، وبلغني مناي وأملِي.

إغاثة العباس عليه السلام للمستغثين به

نقل أحد المراجع العظام نقلاً عن بعض العلماء المقيمين في قم المقدسة أنه قال: عرضت لي مشكلة فتوسّلت بإمام العصر الحجة بن الحسن العسكري عليه السلام إلى الله تعالى في حلها، وكنت أذهب في ذلك إلى المسجد جهمكران المعروف في قم المقدسة.

مضت على ذلك مدّة من الزمان ولم أرَ من الإجابة، فانكسر قلبي ذات مرّة وأنا في الصلاة المستحبة التي تصلّي في مسجد جهمكران، وأخذت أخطب سيّدي ومولاي الإمام الحجة عليه السلام وأقول: سيّدي ومولاي لقد

توسّلت بك إلى الله تعالى في حل مشكلتي وقضاء حاجتي فلم أرَ أثرًا
للإجابة، فهل يسوغ لي أن أتوسّل بغيرك وأنت أمامي، ومَن له حق
الطاعة عليّ في عنقي؟!

ثم قلت: فإنّي لا أسمح لنفسي أن أتوسّل إلى الله سبحانه وتعالى بأحد
سواك حتى لو كان وجيهاً عند الله مثل باب الحوائج أبي الفضل العباس (عليه السلام).

ثم قال: وهنا غلبني الحزن والبكاء وانكسار القلب والخطر، وبينما أنا
كذلك إذ سمعت مَن يقول لي: لا بأس عليك بالتوسّل إلى الله تعالى بعمّن أبي
الفضل العباس (عليه السلام)، ونحن ندلك على ما تقوله عند التوسّل إلى الله تعالى به، فإذا
كانت لك حاجة فتوسّل به إلى الله تعالى بهذه العبارة وقل: يا أبا الغوث أغثني.

في ألقاب العباس (عليه السلام)

” اللقب على ما عرفوه هو: ما يسمّى به الإنسان بعد

اسمه العلم من لفظ يدل على المدح أو الذم، وحيث إنّ أبا

الفضل العباس بن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان حاوياً على جميع

الخصال الحميدة، كان كل ما لقّب به دالاً على المدح والثناء،

“

والتعظيم والتبجيل.

وهو بالإضافة إلى نسبه الشريف ربيب أهل بيت الوحي والنبوة،

وأديب مَن تأدّبوا على يدي رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ هو أديب

الله تعالى، فقد ورد عنه ﷺ «أَدَبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي».

وعليه فقد ظهر من ذلك كله أنّ أبا الفضل العباس (عليه السلام) هو مَن ورث

الفضائل والمكارم من معدنه، ومن ألقابه (عليه السلام):

٥- بحار الأنوار: ٦٨ / ٣٨٢.

باب الحسين (عليه السلام)، باب الحوائج، السقاء، قمر بني هاشم، حامل اللواء،
بطل العلقمي، سبع القنطرة، العبد الصالح، المواسي...

ولذلك صار مجمعاً للجمال والكمال، وأصبح منبعاً يفيض بالجلود حتى
قال فيه الشعراء قصائد المدح، ومما جاء في حقه:

هو البحر من أي النواحي أتيته فلجته المعروف والجلود ساحله

وقال آخر:

أبا الفضل أنت الباب للسهل مثلما أبوك عليٌّ كان باباً لأحمدا

العباس (عليه السلام) مفخرة بني هاشم

من الطبيعي لكل عشيرة وقبيلة أن تنتخب نواذر شخصياتها ونوابغ
رجالها؛ لتجعلهم قدوة تقتدي بهم، وأسوة حسنة لغيرهم، وعلمًا تفتخر
على الآخرين بهم، ونبراسًا تستلهم من نورهم.

” والعباس ابن أمير المؤمنين (عليه السلام) هو مَنْ تفوّق بين

القبيلتين في كل معاني الخير والجمال، والشجاعة والشهامة

والفصاحة، لقد كان في حسن السيرة والأخلاق قَمّة، وفي

جمال الوجه والمحيا روعة. “

كان وجهه كالقمر ليلة البدر، حيث إنّه ورث الجمال من آبائه وأجداده
وفعاله، وإنّه قد تأدّب على يدي أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام)، وأخويه الحسن
والحسين (عليهما السلام)، ولذلك أسرع بنو هاشم إلى الافتخار به والاعتزاز بشخصيته،
فأطلقوا عليه وبكل كفاءة (قمر بني هاشم)، فاشتهر العباس (عليه السلام) بهذا
اللقب، ثم سرعان ما فشا بين الناس.

الخلاصة

إنَّ أبا الفضل العباس (عليه السلام) منارًا لكل من يريد أن يسلك طريق الهداية والوفاء والشجاعة والكرم، فإنَّ العباس (عليه السلام) كان للإمام الحسين (عليه السلام) قائدًا ومحامٍ ومفرج الكرب عنه يوم عاشوراء، والصابر المحتسب، الدافع عن أخيه، ساقى عطاشى كربلاء.

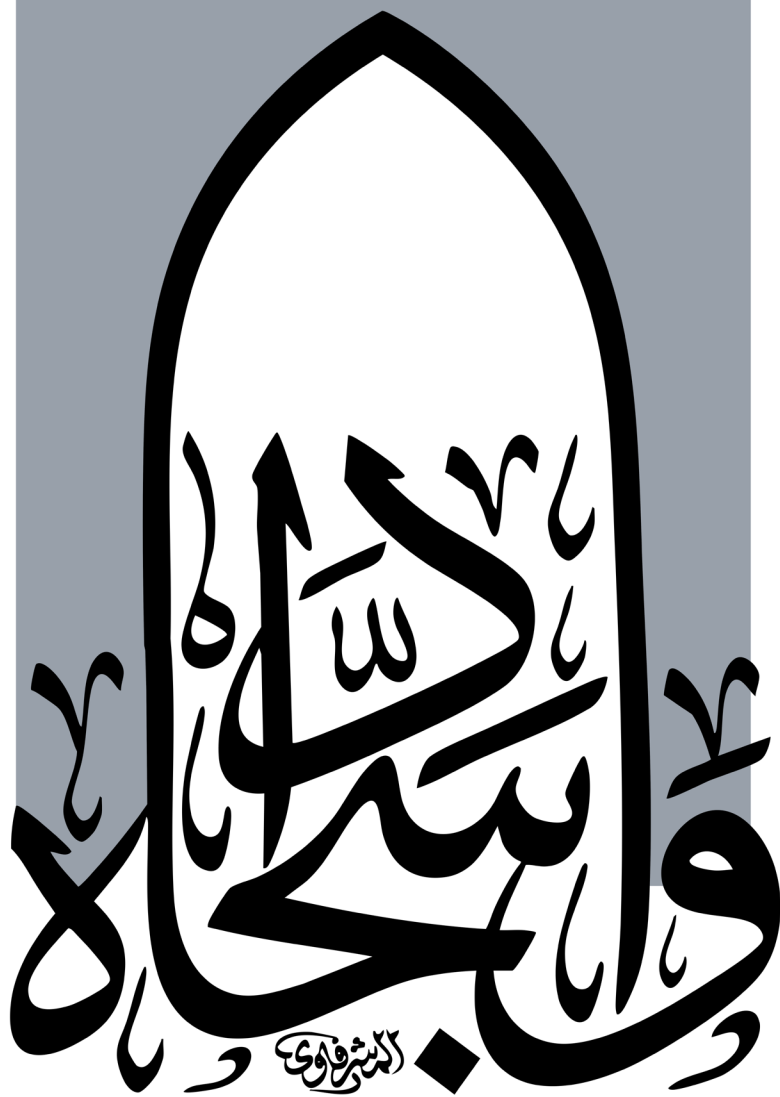
” فليكن أبو الفضل العباس (عليه السلام) قدوةً لنا في حياتنا؛ لكي

نغدو سعيدين بأننا اخترنا خير قدوة، فهو خير نموذج قدموه

لنا أهل البيت (عليهم السلام) لكل معاني الوفاء واتباع إمام الزمان. “

(السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ، الْمُطِيعُ لِلَّهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِلْحَسَنِ، وَالْحُسَيْنِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ وَرِضْوَانُهُ، وَعَلَى رُوحِكَ وَبَدَنِكَ، أَشْهَدُ وَأُشْهِدُ اللَّهَ أَنَّكَ مَضَيْتَ عَلَى مَا مَضَى بِهِ الْبَدْرِيُّونَ، وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الْمُنَاصِحُونَ لَهُ فِي جِهَادِ أَعْدَائِهِ، الْمُبَالِغُونَ فِي نُصْرَةِ أَوْلِيَائِهِ، الذَّابُّونَ عَنْ أَحْبَائِهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ أَفْضَلَ الْجُزَاءِ، وَأَكْثَرَ الْجُزَاءِ، وَأَوْفَرَ جَزَاءٍ أَحَدٍ مِمَّنْ وَفَى بِيَعَّتِهِ، وَاسْتَجَابَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَأَطَاعَ وُلاةَ أَمْرِهِ، أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَالِغْتَ فِي النَّصِيحَةِ، وَأَعْطِيتَ غَايَةَ الْمُجْهُودِ، فَبَعَثَكَ اللَّهُ فِي الشُّهَدَاءِ، وَجَعَلَ رُوحَكَ مَعَ أَرْوَاحِ السُّعَدَاءِ).^٦

٦- كتاب المزار - مناسك المزار (للمفيد): ١٢٢-١٢٣.



اَللّٰهُمَّ صَلِّ عَلٰى سَيِّدِنَا

اَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طالب

الْكَاشِفِ

يَا مُحَمَّدٌ . عَلِيٌّ الْقَلْبُ

تحليل ودراسة دور الإمامين السجاد والباقر (عليهما السلام) لتبيين موضع الإمامة استناداً للقرآن الكريم

أ.م.د. أصغر طهماسبى البلداجي

من وقائع اسبوع الإمامة الدولي الاول

المقدمة

كانت واقعة عاشوراء وحادثة كربلاء الكبرى من أصعب الأحداث في زمن الأئمة، وخلال هذه الفترة كانت الجراءة على مكانة الإمامة وآل النبي لدرجة أن التاريخ لم يشهد شيئاً مثلها. في الواقع بعد حادثة عاشوراء واجه آل النبي والشيعه وقتاً أكثر صعوبة، واستمر قمع الأمويين وإهانتهم لأهل بيت النبي.

وأهم الانحرافات والأذى التي حدثت في هذا العصر هو نسيان مكانة الإمامة وموقع آل بيت النبي بين الناس، وأدت انحرافات الأمويين في هذه الفترة إلى انحراف الناس عن الصراط المستقيم بسبب هذا الانحراف الكبير، فبدأت أعظم مهمة للإمام السجاد والإمام الباقر (عليهما السلام) اللذين كانا بعد حادثة عاشوراء وكانا حاضرين في تلك الحادثة، وكانت مهمة الإمام السجاد والإمام الباقر هي إحياء تعاليم القرآن والنبي عن أهل البيت النبوي، وشرح موقفهم ومكانتهم. وشرح هذان الإمامان الكرام موقف الإمامة وآل الرسول بالرجوع إلى آيات القرآن وأحاديث الرسول حتى يرتد الناس عن الانحراف الكبير الذي أحدثه الأمويون وينذرون به. وكانت نتائج جهود هذين الإمامين في هذا المجال إحياء ذكرى واسم

١- أستاذ مساعد جامعة فرهنغيان طهران، قسم المعارف الإسلامية.

آل البيت النبي، وتسبب في ظهور الوجه القبيح للأمويين للناس وتحول كثير من الناس إلى أهل البيت. حاول هذا البحث أن يشرح كفاح هذين الإمامين الكرام في عصر الأمويين، ويوضح منهجهم القرآني والسردى في شرح موقف الإمامة وموقف أهل البيت النبوي. وفي هذا البحث تمّ التحقيق في تعاليم الإمامين السجّاد والباقر حول الإمامة وتفسيرها وترقيتها بالرجوع إلى الآيات القرآنية. وتمّ تنظيم هذا البحث في أربعة محاور؛ في المحور الأول يتمّ تحليل عصمة الأئمة، وفي المحور الثاني شرح ولاية أهل البيت، وفي المحور الثالث تحليل وتفسير علم أهل البيت، وفي النهاية يتمّ تحليل حادثة الغدير، وشرح حديث الغدير من وجهة نظر الإمامين السجّاد والباقر (عليه السلام).

دور الإمامين (عليه السلام) لتبيين مكانة أهل البيت في عدّة محاور كما يلي:

الأول: عصمة أهل البيت (عليه السلام)

يؤكد الإمام السجّاد (عليه السلام) على عصمة أهل البيت في مختلف المواقف، وهذا التأكيد يشير إلى أنّ الإمام أراد أن يجعل الناس يفهمون أنّ آل بيت النبي خالون من الأخطاء والمعاصي، وأنّ عصمتهم دليل على المؤيّدات الإلهية، لهذا السبب هم وحدهم الذين تكون أقوالهم وأفعالهم صحيحة وحقيقية، وهم الوحيدون الذين يستطيعون أن يرشدوا الناس إلى الصراط المستقيم والطريق الإلهي، ويفسّر هذا الأمر بشكل غير مباشر أنّ من يستطيع أن يتولّى قيادة وخلافة الأمة الإسلامية هم أبرياء وخالون من الأخطاء والمعاصي. وهذا ما يقوله الإمام السجّاد (عليه السلام) في التأكيد على هذا الأمر المهم وإثباته: "رَبِّ صَلِّ عَلَى أَطَايِبِ أَهْلِ بَيْتِهِ الَّذِينَ اخْتَرْتَهُمْ لِأَمْرِكَ، وَجَعَلْتَهُمْ خَزَنَةَ عِلْمِكَ، وَحَفَظَةَ

دِينِكَ، وَخُلَفَاءَكَ فِي أَرْضِكَ، وَحُجَجَكَ عَلَى عِبَادِكَ، وَطَهَّرْتَهُمْ مِنَ الرَّجْسِ
وَالدَّنَسِ تَطْهِيرًا بِإِزَادَتِكَ، وَجَعَلْتَهُمُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْكَ، وَالْمُسْلِكَ إِلَى جَنَّتِكَ".^٢

وفي موضع آخر في وصف طهارة أهل البيت وعصمتهم قال: "عَلَى
خَيْرَتِكَ اللَّهُمَّ مِنْ خَلْقِكَ: مُحَمَّدٍ وَعِزَّتِهِ الصَّفْوَةِ مِنْ بَرِيَّتِكَ الطَّاهِرِينَ،
وَاجْعَلْنَا لَهُمْ سَامِعِينَ وَمُطِيعِينَ كَمَا أَمَرْتَ".^٣

أَكَّدَ أَيضًا الإمام الباقر (عليه السلام) على عصمة أهل البيت (عليهم السلام)، كما يقول في
الحديث: عَنْ جَابِرِ بْنِ يَزِيدَ الْجُعْفِيِّ، قَالَ: (قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ
عَلِيِّ الْبَاقِرِ (عليه السلام): لَأَيِّ شَيْءٍ يُجْتَنَاجُ إِلَى النَّبِيِّ وَالْإِمَامِ؟ فَقَالَ: لِبَقَاءِ الْعَالَمِ عَلَى
صَلَاحِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَرْفَعُ الْعَذَابَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذَا كَانَ
فِيهَا نَبِيٌّ أَوْ إِمَامٌ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾،
وَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله): (النُّجُومُ أَمَانٌ لِأَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلُ بَيْتِي أَمَانٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ،
فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى أَهْلَ السَّمَاءِ مَا يَكْرَهُونَ، وَإِذَا ذَهَبَ أَهْلُ بَيْتِي أَتَى
أَهْلَ الْأَرْضِ مَا يَكْرَهُونَ)، يَعْنِي بِأَهْلِ بَيْتِهِ الْأَئِمَّةَ الَّذِينَ قَرَنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
طَاعَتَهُمْ بِطَاعَتِهِ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾،^٤ وَهُمْ الْمُعْصُومُونَ الْمُطَهَّرُونَ الَّذِينَ لَا يُذْنِبُونَ وَلَا يَعْصُونَ،
وَهُمُ الْمُؤَيَّدُونَ الْمُوَفَّقُونَ الْمُسَدَّدُونَ، بِهِمْ يَرْزُقُ اللَّهُ عِبَادَهُ، وَبِهِمْ تُعْمَرُ بِلَادُهُ،
وَبِهِمْ يُنْزَلُ الْقَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَبِهِمْ يُخْرِجُ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، وَبِهِمْ يُمَهَّلُ أَهْلُ
الْمَعَاصِي وَلَا يُعَجَّلُ عَلَيْهِمُ بِالْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ، لَا يُفَارِقُهُمْ رُوحُ الْقُدُسِ وَلَا
يُفَارِقُونَهُ، وَلَا يُفَارِقُونَ الْقُرْآنَ وَلَا يُفَارِقُهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ).^٥

٢- الإمام السجاد (عليه السلام)، الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٧، ص ٢١٦.

٣- المصدر نفسه، الدعاء ٣٤، ص ١٥٨.

٤- الأنفال: ٣٣.

٥- النساء: ٥٩.

٦- الصدوق، علل الشرايع، ج ١، ص ١٢٤.

من أهم الاقتباسات القرآنية للإمامين السجّاد والباقر عليهما السلام عن عصمة أهل البيت عليهم السلام آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب / ٣٣).

” آيَةُ التَّطْهِيرِ هِيَ مَنْحَصَرٌ فِي شَرَفِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
وَالْإِمَامِ عَلِيِّ عليه السلام وَسَيِّدَةِ فَاطِمَةَ عليها السلام وَالْإِمَامِ الْحَسَنِ وَالْإِمَامِ
الْحُسَيْنِ عليهما السلام، وَلَا تَشْمَلُ الْآخَرِينَ بِأَيِّ شَكْلِ مِنَ الْأَشْكَالِ، وَمِنْ
نَاحِيَةٍ أُخْرَى تَبَيَّنَتْ عِصْمَتُهُمُ الْمَطْلَقَةُ لِأَسْبَابٍ؛ مِثْلُ: ”

أَوَّلًا: وَقَدْ وَرَدَتْ فِي هَذَا الصَّدَدِ رَوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ تُقَدِّمُ مُصْداقَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَى
أَنَّهُمْ خَمْسَةُ أَهْلِ الْعَبَا. وَيَكْتُبُ الشُّوْكَانِيُّ فِي هَذَا الصَّدَدِ: الرِّوَايَاتُ الصَّحِيحَةُ
وَالْمُعْتَبَرَةُ لَكَثِيرٍ مِنَ الرُّوَاةِ؛ مِنْهَا رَوَايَاتُ التِّرْمِذِيِّ، وَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ مُنْذَرٍ،
وَالْحَاكِمِ النَّيْشَابُورِيِّ، وَابْنُ مَرْدَوِيَّةَ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَنَحْوُهُمْ.

العديد من العلماء الآخرين الذين نقلوا آية التطهير وهي تضم خمسة
أهل العبا، وتستنني زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نطاق الآية^٧. ينقل صاحب
"المستدرک علی الصحیحین" نفس شأن النزول من أم سلمة: "عن أم سلمة
رضي الله عنها، أنها قالت: في بيتي نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، قالت: فأرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
إلي علي، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام، فقال: "اللهم هؤلاء أهل بيتي"،
قالت أم سلمة: يا رسول الله، ما أنا من أهل البيت؟ قال: "إنك أهلي
خير، وهؤلاء أهل بيتي اللهم أهلي أحق" هذا حديث صحيح على شرط

٧- فتح القدير: ٢٧٠ / ٤.

البُخَارِيُّ وَلَمْ يُجْرِجَاهُ^٨، قَدْ نُقِلَ الْمَوْضُوعُ نَفْسَهُ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْمَصَادِرِ السُّنِّيَّةِ، وَقَدْ وَرَدَتْ رِوَايَاتُ أُخْرَى فِي مَصَادِرَ سُنِّيَّةٍ تُؤَكِّدُ شَأْنَ النُّزُولِ، يَكْتُبُ التِّرْمِذِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَهُوَ أَحْسَنُ شَيْءٍ رُوِيَ فِي هَذَا الْبَابِ"^٩.

”الْعَلَامَةُ الطَّبَاطِبَائِي يَكْتُبُ عَنِ الرِّوَايَاتِ الْمُنْحَصِرَةِ لِـ"أَهْلِ الْبَيْتِ" فِي خَمْسَةِ أَهْلِ الْعَبَا: (وَهَذَا الَّذِي تَقْدُمُ يَتَأَبَّدُ مَا وَرَدَ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلِيٍّ، وَفَاطِمَةَ، وَالْحَسَنِ ﷺ خَاصَّةً، لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ. وَهِيَ رِوَايَاتٌ جَمَّةٌ تَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ حَدِيثًا، يَرَبُّو مَا وَرَدَ مِنْهَا مِنْ طُرُقِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى مَا وَرَدَ مِنْهَا مِنْ طُرُقِ الشَّيْعَةِ، فَقَدْ رَوَاهَا أَهْلُ السُّنَّةِ بِطُرُقٍ كَثِيرَةٍ؛ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، وَعَائِشَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَسَعْدٍ، وَوَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ، وَأَبِي الْحُمَرَاءِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَثَوْبَانَ مَوْلَى النَّبِيِّ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ، وَعَلِيٍّ، وَالْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ ﷺ فِي قَرِيبٍ مِنْ أَرْبَعِينَ طَرِيقًا)^{١٠}. الرِّوَايَاتُ الْمَرْوُودَةُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ فِي الْمَصَادِرِ السُّنِّيَّةِ الَّتِي قَالَهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ: "إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ"^{١١} إِنَّهُ قَدْ رَفَضَ نَظْرِيَّةَ صِدْقِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَى زُوجَاتِ الرَّسُولِ ﷺ. “

ثَانِيًا: إِنَّ (أَلْفَ) وَ(لَامَ) فِي أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ نَوْعِ الْعَهْدِيَّةِ يُشِيرُ إِلَى أَنَاسٍ مُعَيَّنِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ.

ثَالِثًا: الْآيَاتُ مِنَ التَّاسِعَةِ وَالْعِشْرِينَ إِلَى الرَّابِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ (مَاعَدَا آيَةِ التَّطْهِيرِ) عَنْ زُوجَاتِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ، وَفِي كُلِّ

٨- مستدرک علی الصحیحین: ٢ / ٤١٦.

٩- سنن الترمذی: ٥ / ٦٩٩.

١٠- المیزان فی تفسیر القرآن: ١٦ / ٣١١.

١١- سنن الترمذی: ٥ / ٦٩٩؛ المستدرک علی الصحیحین: ٢ / ٤١٦.

هَذِهِ الْآيَاتِ الضَّمَائِرُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِزَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ بِشَكْلِ أَثْوِيَّةٍ (كُتُنٌ، فَتَعَالَيْنَ، اتَّقَيْنَ، قَرْنِ فِي بُيُوتِكُنَّ)، لَكِنْ عِنْدَمَا يَصِلُ الْأَمْرُ بِآيَةِ التَّطْهِيرِ تَتَغَيَّرُ نَبْرَةُ الْآيَةِ، بِحَيْثُ يَتَغَيَّرُ الْمَخَاطَبُ أَيْضًا فَتُصْبِحُ ضَمَائِرُ الْمُؤَنَّثِ ذُكُورِيَّةً، هَذَا التَّغْيِيرُ فِي الْعُنْوَانِ وَاللَّهْجَةِ لَيْسَ إِلَّا حَقِيقَةً أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ نَزَلَتْ عَنْ جَمَاعَةٍ غَيْرِ زَوَاجَاتِ الرَّسُولِ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ ضَمَائِرِ الْمَذْكَرِ لَا يَجُوزُ لِلْأُنَاثِ^{١٢}، لِذَلِكَ فَإِنَّ الْمِصْدَاقَ الْحَقِيقِيَّ وَالْفَرِيدَ لِأَهْلِ الْبَيْتِ هُمْ خَمْسَةُ أَهْلِ الْعِبَادَةِ.

رَابِعًا: هَذِهِ الْآيَةُ دَلَالَةٌ مُطْلَقَةٌ عَلَى عِصْمَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ ﷺ.

الشرح: إِنَّ لِكَلِمَةِ رَجْسٍ فِي الْقُرْآنِ مَعَانٍ مُخْتَلِفَةً؛ مِنْهَا الْخُمْرُ وَالْمَقَامَرَةُ وَالصَّنَمُ (المائدة: ٩٠)، وَضَلَالَةٌ (الأنعام: ١٢٥)، وَالذَّبِيحَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ (الأنعام: ١٤٥)، وَالْعَذَابُ (الأعراف: ٧١)، وَأَهْلُ النِّفَاقِ (التوبة: ٩٥)، وَالْأَوْثَانُ وَالْأَصْنَامُ (الحج: ٣٠)، وَالْكَفْرُ وَالنِّفَاقُ (التوبة: ١٢٥)، وَالشُّكُّ وَالظَّنُّ (يونس: ١٠٠). أَلْفٌ وَلَا مَ لِكَلِمَةِ (الرَّجْسِ) فِي آيَةِ التَّطْهِيرِ هِيَ أَلْفٌ وَلَا مَ الْجِنْسِيَّةُ، وَهِيَ تَشْمُلُ جَمِيعَ مَا سَبَقَ وَغَيْرَهَا مِنْ الْحَالَاتِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْقَذَارَةِ؛ سَوَاءً أَكَانَتِ النَّجَاسَةُ الظَّاهِرِيَّةُ، أَوِ الْبَاطِنِيَّةُ، أَوِ الطَّبِيعَةُ الْبَشَرِيَّةُ، أَوِ الْعَقْلُ: إِمَّا الشَّرِيعَةُ، أَوْ كُلُّ هَذِهِ^{١٣}.

كَلِمَةُ "إِنَّمَا" تَدُلُّ عَلَى حَضَرِ الْإِرَادَةِ فِي إِذْهَابِ الرَّجْسِ وَالتَّطْهِيرِ، وَكَلِمَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ سَوَاءً كَانَ لِمُجَرَّدِ الْإِخْتِصَاصِ أَوْ مَدْحًا أَوْ نِدَاءٍ يَدُلُّ عَلَى إِخْتِصَاصِ إِذْهَابِ الرَّجْسِ وَالتَّطْهِيرِ بِالْمَخَاطِبِينَ، بِقَوْلِهِ: "عَنْكُمْ". فَفِي الْآيَةِ فِي الْحَقِيقَةِ قَصْرَان؛ قَصْرُ الْإِرَادَةِ فِي إِذْهَابِ الرَّجْسِ وَالتَّطْهِيرِ، وَقَصْرُ إِذْهَابِ الرَّجْسِ وَالتَّطْهِيرِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ^{١٤}. لِذَلِكَ فَإِنَّ مَعْنَى آيَةِ التَّطْهِيرِ

١٢- آية التطهير في أحاديث الفريقين: ١٠/٢.

١٣- تاريخ تفسير القرآن الكريم: ٥٨.

١٤- الميزان في تفسير القرآن: ٣٠٩/١٦.

عَلَى خَمْسَةِ أَهْلِ الْعَبَا وَعِصْمَتِهِمْ كَامِلَةً، لِأَنَّ شَرْطَ خِلَافَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ وَالْوِلَايَةِ مِنَ اللَّهِ عِصْمَةٌ تَامَّةٌ.

الثاني: ضرورة ولاية الإمام في المجتمع

ومن الأمور التي يشير إليها الإمام السجاد عليه السلام ويتناولها في أدعيته ضرورة وجود الإمام في المجتمع، وغني عن القول أن معنى الإمام في كلام الإمام السجاد عليه السلام هو الإمام على الحق، وولي، ووصي من الله على الناس وأفعاله؛ مثل أقوال وأفعال الله والنبى.

” شرح الإمام السجاد عليه السلام مكانة الولى والإمام في مجتمع ذلك اليوم، وكذلك للناس من بعده، حيث يقول الإمام في شرحه لضرورة وجود الإمام: "اللَّهُمَّ وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِكَ، وَالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِكَ، وَالْأَيْمَةِ الَّذِينَ حَتَمَتْ طَاعَتُهُمْ مَنْ يَجْرِي ذَلِكَ بِهِ وَعَلَى يَدَيْهِ، آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ" ١٥. في مكان آخر يقول في هذا الصدد: "اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَيَّدْتَ دِينَكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ بِإِمَامٍ أَقَمْتَهُ عِلْمًا لِعِبَادِكَ، وَمَنَارًا فِي بِلَادِكَ بَعْدَ أَنْ وَصَلْتَ حَبْلَهُ بِحَبْلِكَ، وَجَعَلْتَهُ الذَّرِيْعَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ، وَافْتَرَضْتَ طَاعَتَهُ، وَحَدَّرْتَ مَعْصِيَتَهُ، وَأَمَرْتَ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَالْإِنْتِهَاءِ عِنْدَ نَهْيِهِ، وَالْأَيُّقْدَمَةَ مُتَقَدِّمًا، وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ مُتَأَخِّرٌ، فَهُوَ عِصْمَةُ اللَّائِذِينَ، وَكَهْفُ الْمُؤْمِنِينَ، وَعُرْوَةُ الْمُتَمَسِّكِينَ، وَبَهَاءُ الْعَالَمِينَ" ١٦.

بالإضافة إلى ذلك تحدّث الإمام السجاد عليه السلام في أدعيته عن مشتقات كلمة الولى التي لها علاقة كبيرة بإمامة أهل البيت، إن هذه التفسيرات تشير إلى

١٥ - صحيفة السجادية، الدعاء ٤٨، ص ٢٣٨.

١٦ - نفس المصدر: الدعاء ٤٧، ص ٢١٨.

شرح موقف أهل البيت بأنهم أولياء الله، حيث يقول في طاعة أولياء الله: "وَأَجْعَلُهُمْ أَبْرَارًا أَتَقِيَاءَ بُصْرَاءَ، سَامِعِينَ مُطِيعِينَ لَكَ وَلِأَوْلِيائِكَ، مُحِبِّينَ مُنَاصِحِينَ، وَلِجَمِيعِ أَعْدَائِكَ مُعَانِدِينَ وَمُبْغِضِينَ، آمِينَ"^{١٧}. في دعاء دخول شهر رمضان يقول عن أولياء الله: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ هَذَا الشَّهْرِ، وَبِحَقِّ مَنْ تَعَبَّدَ لَكَ فِيهِ مِنْ ابْتِدَائِهِ إِلَى وَقْتِ فَنَائِهِ: مِنْ مَلِكٍ قَرَّبْتَهُ، أَوْ نَبِيٍّ أَرْسَلْتَهُ، أَوْ عَبْدٍ صَالِحٍ اخْتَصَصْتَهُ، أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَهْلُنَا فِيهِ لِمَا وَعَدْتَ أَوْلِيَاءَكَ مِنْ كَرَامَتِكَ، وَأَوْجِبْ لَنَا فِيهِ مَا أَوْجِبْتَ لِأَهْلِ الْمَبَالِغَةِ فِي طَاعَتِكَ، وَاجْعَلْنَا فِي نَظْمٍ مِنْ اسْتَحَقَّ الرَّفِيعَ الْأَعْلَى بِرَحْمَتِكَ"^{١٨}. يقول هكذا في اقتداء بأولياء الله: "اللَّهُمَّ اجْعَلْ رَغْبَتِي فِي مَسْأَلَتِي مِثْلَ رَغْبَةِ أَوْلِيائِكَ فِي مَسْأَلَتِهِمْ، وَرَهْبَتِي مِثْلَ رَهْبَةِ أَوْلِيائِكَ، وَاسْتَعْمَلْنِي فِي مَرْضَاتِكَ عَمَلًا لَا أَتْرُكُ مَعَهُ شَيْئًا مِنْ دِينِكَ خَافَةَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ"^{١٩}. في مكان آخر يقول عن التقرب إلى أولياء الله: "مَوْلَايَ وَارْحَمْنِي فِي حَشْرِي وَنَشْرِي، وَاجْعَلْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَ أَوْلِيَائِكَ مَوْقِفِي، وَفِي أَحْبَابِكَ مَصْدَرِي، وَفِي جَوَارِكَ مَسْكَنِي، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ"^{٢٠}. تشير هذه التفسيرات بشكل مباشر وغير مباشر إلى موقف ولاية أهل البيت، وسيتم ذكر إحدى هذه الحالات أدناه.

أكد الإمام الباقر عليه السلام على أهمية وضرورة الإمام في الإسلام، وأكد على أهمية الإمامة بعنوان (ركن الإسلام)، كما يقول: "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ؛ عَلَى الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالْوَلَايَةِ، وَلَمْ يُنَادَ بِشَيْءٍ كَمَا نُودِيَ بِالْوَلَايَةِ"^{٢١}. في حديث آخر نقل الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه هذا الحديث حول الولاية: "عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عِيْسَى قَالَ: حَدَّثَنِي جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ

١٧- نفس المصدر: الدعاء ٣٥، ص ١٢٠.

١٨- نفس المصدر: الدعاء ٤٤، ص ١٩٠.

١٩- نفس المصدر: الدعاء ٥٤، ص ٢٦٢.

٢٠- نفس المصدر: الدعاء ٥٤، ص ٢٥٨.

٢١- الكليني، الكافي، ج ٢، ص ١٨.

، عَنْ جَدِّهِ عليه السلام فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾^{٢٢}، قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^{٢٣} اجْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّا كَفَرْنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ نَكْفُرُ بِسَائِرِهَا، وَإِنْ آمَنَّا فَإِنَّ هَذَا ذُلٌّ حِينَ يُسَلِّطُ عَلَيْنَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالُوا: قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ فِيمَا يَقُولُ، وَلَكِنَّا تَتَوَلَّاهُ وَلَا نَطِيعُ عَلِيًّا فِيمَا أَمَرَنَا، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾، يَعْرِفُونَ يَعْنِي وَلَايَةَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ بِالْوَلَايَةِ^{٢٤}.

التحليل والدراسة

من أهم الوثائق القرآنية للإماميين السجاد والباقر عليهما السلام فيما يتعلق بضرورة الإمامة وولاية أهل البيت، والتي استخدمت بشكل غير مباشر مشتقات كلمة (الولي) هي آية الولاية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة/ ٥٥).

فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَذْكُرُ اللَّهُ دَرَجَةَ الْوَلَايَةِ، بِحَيْثُ تَكُونُ وَلَايَةُ اللَّهِ أَوَّلًا، ثُمَّ الْوَلَايَةُ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ صلى الله عليه وآله، ثُمَّ وَلَايَةُ الَّذِينَ آمَنُوا وَآتُوا الزَّكَاةَ أَثْنَاءَ الرُّكُوعِ. لَا شَكَّ فِي الْحَالَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ جَدَالُ الْمُفَسِّرِينَ حَوْلَ عِبَارَةِ "الَّذِينَ آمَنُوا"، وَالبَحْثُ عَنْ أَمْثَلَةٍ أَوْ مِثَالٍ رَئِيسِي لَهَا. إِنَّ التَّحْدِيدَ الْمُطْلَقَ لِعِبَارَةِ "الَّذِينَ آمَنُوا" هُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ وَلِيَّ الْمُسْلِمِينَ وَوَصِيَّهُمْ بَعْدَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ صلى الله عليه وآله. لِسَرَحِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ الْمَرْءُ أَوَّلًا كَرَامَةَ

٢٢- النحل: ٨٣.

٢٣- المائدة: ٥٥.

٢٤- الكليني، الكافي، ج ١، ص ٤٢٧.

نُزُولِ الْآيَةِ. يَعتَبِرُ الْمُفَسِّرُونَ الشَّيْعَةَ بِالإِجماعِ نُزُولَ الْآيَةِ عَنِ الإِمَامِ عَلِيٍّ (عليه السلام)، وَفِي هَذَا الصَّدَدِ يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ خَبَرَ نُزُولِ الْآيَةِ عَنْهُمْ يَعتَبَرُ أَكْثَرَ دَقَّةً وَمُتَوَاتِرَةً^{٢٥}. رُوِيَ عَنِ الإِمَامِينَ الْبَاقِرِ وَالصَّادِقِ (عليهما السلام) أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ تَكْرِيمًا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (عليه السلام) عِنْدَمَا أُعْطِيَ الزَّكَاةُ فِي الرُّكُوعِ^{٢٦}.

إِعتَبَرُ بَعْضُ مُفَسِّرِينَ السُّنَّةِ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ (عليه السلام) الْمُصْداقُ الْأَسَاسِي الْوَحِيدُ لِلْآيَةِ^{٢٧}. اِعتَقَدَ مُعْظَمُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ نُزُولَ هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ جَرِيانٌ تَدْفُقُ الإِمَامَ عَلِيَّ (عليه السلام)، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ اِعتَبَرُوا أَنَّ هَذَا الْوَعْدُ هُوَ الْوَحْيُ الرَّئِيسِيُّ لِلْآيَةِ؛ يَكْتُبُ ابْنُ عَطِيَّةَ الْأَنْدَلِسِيِّ: "هَذَا قَوْلُ الْمُفَسِّرِينَ وَلَكِنْ اِتَّفَقَ إِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَعْطِيَ صَدَقَةً وَهُوَ رَاكِعٌ"^{٢٨}. يَعتَبِرُ الثَّغَلْبِيُّ - كَأَحَدِ الْمُفَسِّرِينَ الْمَشْهُورِينَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ - أَنَّ شَأْنَ النُّزُولِ لِلْآيَةِ الْوَلَايَةِ حَوْلَ إعْطَاءِ الْخَاتَمِ مِنْ جَانِبِ الإِمَامِ عَلِيٍّ (عليه السلام) أَثناءَ الرُّكُوعِ^{٢٩}. وَقَدْ رَوَى كِبَارُ الرُّوَاةِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ رِوَايَاتٍ كَثِيرَةً؛ مِنْهَا مَا قَالَهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "إِنَّ عَلِيًّا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ بَعْدِي"^{٣٠}.

تَدُلُّ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى إِمَامَةِ الإِمَامِ عَلِيٍّ (عليه السلام) لِعِدَّةِ أَسْبَابٍ:

أَوَّلًا: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِحَقِّ الإِمَامِ عَلِيٍّ (عليه السلام) بِإِجماعِ الشَّيْعَةِ، وَبِنَاءً عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الرِّوَايَاتِ السُّنَنَِّةِ، بِحَيْثُ تَصُلُّ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ إِلَى مُسْتَوَى التَّكْرَارِ وَالتَّوَاتُرِ. يَرْوِي السَّيِّدُ هَاشِمُ الْبَحْرَانِيُّ فِي غَايَةِ الْمَرَامِ (٢٤) حَدِيثًا مِنْ جَانِبِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَ(١٩) حَدِيثًا عَنْ طَرِيقِ الشَّيْعَةِ أَنَّ سَبَبَ نُزُولِ

٢٥- تفسير القرآن المجيد: ج ١/ ١٨٢؛ دلائل الإمامة: ١٩؛ تفسير روح الجنان: ج ٧/ ٢٧؛ فقه القرآن في شرح آيات الأحكام: ج ١/ ١١٦؛ متشابه القرآن ومختلفة: ٢/ ٣٠؛ منهاج الكرامة في معرفة الإمامة: ١٧٢.

٢٦- مجمع البيان في علوم القرآن: ج ٣/ ٢١٠.

٢٧- جامع البيان: ٦/ ٣٨٨؛ أحكام القرآن: ٢/ ٥٥٧؛ تفسير القرآن العظيم: ج ٢/ ٧٤؛ تفسير الدر المنثور: ٨١.

٢٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ج ٢/ ٢٠٩.

٢٩- الكشف والبيان في تفسير الثعلبي، ٧٥؛ أيضا أنظر: جواهر الحسان في تفسير القرآن: ج ٢/ ٣٩٦.

٣٠- سنن الترمذي: ٢/ ٢٩٧.

هَذِهِ الْآيَةُ كَانَ وَلَايَةُ الْإِمَامِ عَلِيٍّ عليه السلام ^{٣١}. يَرْوِي الْحَاكِمُ الْحَسَكَانِي -عَالِمُ أَهْلِ السُّنَّةِ- فِي كِتَابِ شَوَاهِدِ التَّنْزِيلِ سَبَبَ نَزُولِهِ عَنْ (٢٦) طَرِيقًا ^{٣٢}. يَرْوِي الْجَلِصَّاصُ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ: "رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ، وَالسَّدي، وَأَبِي جَعْفَرٍ وَعُتْبَةَ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ تَصَدَّقَ بِخَاتَمِهِ وَهُوَ رَاكِعٌ" ^{٣٣}.

ثَانِيًا: "وَالَّذِينَ آمَنُوا" لَا يَشْمَلُونَ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ فِي هَذِهِ الْحَالِ سَيُصْبِحُ الْمَوْلَى وَالْمَوْلَى عَلَيْهِ وَاحِدًا. وَتَثْبُتُ أَيْضًا رَوَايَاتُ الْفَرِيقَيْنِ أَنَّ الْمُرَادَ عَنْ "وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ" هُوَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ عليه السلام وَلَيْسَ كُلُّ الْمُؤْمِنِينَ. مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ كَلِمَةَ "الْوَلِيَّ" فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَعْنَى أُولَى فِي التَّصَرُّفِ وَهُوَ مُرَادِفٌ لِمَعْنَى الْإِمَامِ وَالْخَلِيفَةِ وَلَيْسَ بِمَعْنَى النُّصْرَةِ وَالْمُحَبَّةِ، لِأَنَّ كُلَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمْ وَلَايَةُ فِي الْحُبِّ وَالنُّصْرَةِ لِبَعْضِهِمُ الْبَعْضُ، بَيْنَمَا بِحَسَبِ التَّحْلِيلِ الدَّاخِلِيِّ لِنَصِّ الْآيَةِ وَرَوَايَاتِهِمْ عَنْ شَأْنِ نَزُولِهَا، فَإِنَّ الْوَلَايَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْوُطٌ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ عليه السلام وَالْإِمَامِ عَلِيٍّ عليه السلام، وَلَا بُدَّ أَنْ مَعْنَى هَذِهِ الْوَلَايَةِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام هُوَ نَفْسُ الْوَلَايَةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ عليه السلام وَهِيَ الْأُولَى فِي التَّصَرُّفِ ^{٣٤}.

ثَالِثًا: يَسْتَنْبِطُ مِنَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ أَوْلِيَاءَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ: اللَّهُ، الرَّسُولُ عليه السلام، وَالْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ ثَلَاثُ خِصَالٍ، وَمِنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ يَكُونُ الْآخَرُونَ هُمْ "مَوْلَى عَلَيْهِمْ"، وَطَرَفُ الْآخِرِ لِلْوَلَايَةِ وَقَابِلُ الْوَلَايَةِ، وَلَنْ يَتَحَقَّقَ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ الْوَلِيُّ وَالْقَائِدُ وَصَاحِبُ الشُّؤْنِ الْمَالِيَةِ هُوَ الْمَوْلَى عَلَيْهِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْوَلَايَةَ هِيَ وَلَايَةُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِثْبَاتَهُ إِلَى سَبَبٍ خَاصٍّ، وَلَا

٣١- غاية المرام: ج ٢ / ٢٢-٥.

٣٢- شواهد التنزيل: ١ / ٢٠٩-٢٣٩.

٣٣- أحكام القرآن: ٤ / ١٠٢.

٣٤- ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٣ / ٥٥٩-٥٦٤؛ الميزان في تفسير القرآن: ٦ / ١٥٥-٥.

يَكْفِيهِ الْإِيمَانُ وَحْدَهُ. وَخِلَافًا لِلْوَلَايَةِ فَهِيَ بِمَعْنَى الْمَحَبَّةِ وَالْمُسَاعَدَةِ، لِأَنَّ هَذِهِ فِرْعٌ مِنْ فُرُوعِ الْإِيمَانِ، وَكُلُّ مُؤْمِنٍ مُحِبٌّ لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ وَمُسَاعِدِهِ.

” هُنَاكَ شَاهِدَانِ آخَرَانِ تُؤَكِّدَانِ تَفْسِيرَ الْوَلَايَةِ بِهَذَا الْمَعْنَى: أَحَدُهُمَا هُوَ الْإِنْحِصَارُ وَالْخُصُوصِيَّةُ الْمَفْهُومَةُ مِنْ كَلِمَةِ "إِنَّا"، وَالْآخَرُ: هُوَ شَأْنُ نَزُولِ الْآيَةِ عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَتَحَوَّلَ هَذِهِ الْجَوَانِبُ الثَّلَاثَةُ مِنَ الْآيَةِ إِلَى نَصِّ يُشِيرُ إِلَى النَّظَرِيَّةِ الْإِمَامِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ فِي مَسْأَلَةِ الْإِمَامَةِ^{٣٥}. “

رَابِعًا: مِنْ أَهَمِّ النِّقَاطِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اِحْتِجَاجُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى آيَةِ الْوَلَايَةِ فِي مَوَاقِفَ مُخْتَلِفَةٍ، قَدْ عَبَّرَ عَنْ هَذَا الْإِحْتِجَاجِ بِاخْتِلَافٍ طَفِيفٍ فِي الْكَلِمَاتِ فِي مَصَادِرَ سُنِّيَّةٍ مُهِمَّةٍ: "أَنشَدَكُمْ بِاللَّهِ أَتَعْلَمُونَ حَيْثُ نَزَلَتْ: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾... أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهَ أَنْ يَعْلَمَهُمْ وَلَاةَ أَمْرِهِمْ، وَأَنْ يَفْسِّرَ لَهُمْ مِنَ الْوَلَايَةِ كَمَا فَسَّرَ لَهُمْ مِنْ صَلَاتِهِمْ وَزَكَاتِهِمْ وَحُجَّتِهِمْ، فَنَصَّبَنِي لِلنَّاسِ بِغَدِيرِ خَم^{٣٦}. وَفِي مَصَادِرَ شَيْعِيَّةٍ عَبَّرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ إِحْتِجَاجِهِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي مُنَاسِبَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا زَمَنَ الْخُلَفَاءِ^{٣٧}.

وُخُلَاصَةُ الْقَوْلِ: فَإِنَّ مُعْظَمَ الْمَفَكِّرِينَ فِي مَجَالِ التَّفْسِيرِ وَالرَّوَايَاتِ يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ آيَةَ الْوَلَايَةِ نَزَلَتْ بِحَقِّ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالذَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ النُّقْطَةِ فِي حَدِّ ذَاتِهِ يُثْبِتُ وَلَايَتَهُ بَعْدَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ.

٣٥- محاضرات في الالهيات: ٣٣٠-٣٣١.

٣٦- ينابيع المودة: باب ٨٣ / ١١٤.

٣٧- الاحتجاج: ١ / ١٩٧.

الثالث: علم الإمام

يشير الإمام السجّاد عليه السلام في محور آخر، وفي شرحه لمكانة أهل البيت ومنزلتهم إلى علمهم اللدني. غرض الإمام من الإشارة إلى علم أهل البيت هو شرح إحدى أهم خصائص الخليفة الإلهي؛ وهذا يعني أنّه يمكن لأي شخص أن يتولى منصب الخلافة وإمامة المجتمع الإسلامي إذا كان علمه من الله وتأييده منه، ويجب أن يكون علماً يجيب على جميع أسئلة الناس حول الدين، وهذه الميزة موجودة فقط في آل بيت النبي.

قال الإمام في شرحه للموقف العلمي لأهل البيت عليه السلام: "رَبِّ صَلِّ عَلَى أَطَائِبِ أَهْلِ بَيْتِهِ الَّذِينَ اخْتَرْتَهُمْ لِأَمْرِكَ، وَجَعَلْتَهُمْ خَزَنَةَ عِلْمِكَ، وَحَفَظَةَ دِينِكَ، وَخُلَفَاءَكَ فِي أَرْضِكَ، وَحُجَجَكَ عَلَى عِبَادِكَ، وَطَهَرْتَهُمْ مِنَ الرَّجْسِ وَالذَّنْسِ تَطْهِيراً بِإِزَادَتِكَ، وَجَعَلْتَهُمُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْكَ، وَالْمُسْلَكَ إِلَى جَنَّتِكَ"^{٣٨}. يقول في مكان آخر: "فَكَمَا جَعَلْتَ قُلُوبَنَا لَهُ حَمَلَةً، وَعَرَفْتَنَا بِرَحْمَتِكَ شَرَفَهُ وَفَضْلَهُ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ الْخَطِيبِ بِهِ، وَعَلَى آلِهِ الْخَزَّانِ لَهُ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِكَ حَتَّى لَا يُعَارِضَنَا الشَّكُّ فِي تَصَدِيقِهِ، وَلَا يَحْتَلِبَنَا الزَّيْغُ عَنْ قَصْدِ طَرِيقِهِ"^{٣٩}. يقول في هذا الصدد: "اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْزَلْتَهُ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ مُجَمَّلاً، وَأَهْمَمْتَهُ عِلْمَ عَجَائِبِهِ مُكَمَّلاً، وَوَرَّثْتَنَا عِلْمَهُ مُفَسَّراً، وَفَضَّلْتَنَا عَلَى مَنْ جَهِلَ عِلْمَهُ، وَقَوَّيْتَنَا عَلَيْهِ لِتَرْفَعَنَا فَوْقَ مَنْ لَمْ يُطِيقْ حَمْلَهُ"^{٤٠}. أكد الإمام الباقر عليه السلام بعلم الأئمة وتفسير الآيات القرآنية حول علم الإمام؛ «عَنْ بُرَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ»، قَالَ: إِيَّانَا عَنَى، وَعَلَيَّ أَوْلُنَا وَأَفْضَلُنَا وَخَيْرُنَا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ"^{٤١}.

٣٨- الصحيفة السجادية: الدعاء ٤٦، ص ٢١٦.

٣٩- نفس المصدر: الدعاء ٤٢، ص ١٧٦.

٤٠- نفس المصدر: الدعاء ٤٢، ص ١٧٦.

٤١- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، المجلد ١، ص ٢٣٠.

التحليل والدراسة

من الآيات الأكثر وضوحاً التي تنص على السلطة العلمية لأهل البيت عليه السلام بمعنى معرفتهم المطلقة بالقرآن هي الآية (٤٩) من العنكبوت: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾، قد جاء الكليني في كتابه الكافي بباب اسمه "إن الأئمة قد أوتوا العلم وأثبت في صدورهم"، وفي تفسير هذه الآية ذكر أحاديث على شرف أهل البيت عليه السلام: "عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)، قَالَ هُمْ الْأَئِمَّةُ عليهم السلام؛ "وَعَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)، قَالَ: إِنَّا نَا عَنَى، الْأَئِمَّةَ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله".

قدّم الإمام علي عليه السلام أهل البيت عليه السلام باعتبارهم الوحيدين الذين اعتبروا الدين كما يستحقه وتعلّموا، كما قدّمهم كأركان للدين: "هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ وَمَوْتُ الْجَهْلِ، يُجْرِكُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكْمٍ [حُكْمٍ] مَنْطِقِهِمْ، لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ، وَلَا يُخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَهُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ، وَوَلَايُجُ الْإِعْتِصَامِ، بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نَصَابِهِ، وَأَنْزَاخِ الْبَاطِلِ عَنْ مَقَامِهِ [مَقَامِهِ]، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنَبَتِهِ، عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وَعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرِعَاتُهُ قَلِيلٌ" ^{٢١٥}.

من جهة أخرى يذكرهم الإمام عليه السلام في توبيخ الناس بوجود أهل البيت عليه السلام بينهم، ويعرّفهم على أنهم حكام الحق وآيات الدين، ويطلب من الناس أن يلجؤوا إليهم لإرشادهم وسعادتهم مثل الإبل التي تلجأ إلى الماء: "فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟ وَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ وَالْأَعْلَامُ قَائِمَةٌ، وَالْآيَاتُ وَاضِحَةٌ، وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ؟

٢١٥- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، المجلد ١، ص ٢١٥.

٢٣٩- نهج البلاغة، خطبة ٢٣٩.

فَأَيُّنَ يُنَاهُ بِكُمْ؟ وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِثْرَةُ نَبِيِّكُمْ وَهُمْ أَرَمَةُ الْحَقِّ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ، وَالسِّنَّةُ الصَّدُوقِ؟ فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَرِدُّوهُمْ وَرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ^{٤٤}. مما لا شك فيه أنه إذا كان الجميع يهتدون بالاعتماد على القرآن، فلن تكون هناك حاجة للإمام عليه السلام لتشجيع الناس على آل البيت عليه السلام للهداية، والتعريف بهم كأركان للدين. وهذا يدل على أن القرآن يحتاج لمفسر ومبين، للقرآن ظاهر وباطن، محكم ومتشابه، وتفسير وتأويل؛ وفقط أهل البيت عليه السلام هم من يدركون هذه الحالات تمامًا وقد وفر لهم الله هذه المعرفة، وسيجد الناس الطريق الصحيح للهداية، والسعادة بالرجوع إليهم.

” آية أخرى تدل على فضيلة العلم الذي أوتي لأهل البيت عليه السلام وثبتت جامعية القرآن المطلقة لهم وهذه الآية: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^{٤٥}، وقد وردت روايات عديدة وصحيحة السند في المجامع السردية والتفسيرية للفريقين، التي تعتقد أن المصادق لهذه الآية هو الإمام علي عليه السلام، وبنفس الطريقة، فإن بعض الروايات الأخرى تمد دائرة أمثلة: "مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ" إلى معصومين آخرين عليه السلام. الروايات في هذا الشأن: "عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؛ قَالَ: فَقَرَّجَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام بَيْنَ أَصَابِعِهِ فَوَضَعَهَا عَلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: عِنْدَنَا وَاللَّهِ عِلْمُ الْكِتَابِ كُلُّهُ"^{٤٦}.

كما أوردت بعض المصادر السنية روايات في هذا الشأن، وقد كتب البعض عن معنى هذه الآية في العلم المطلق لأهل البيت عليه السلام بالقرآن كما يلي: (ألف ولام) في الكتاب العهدية الحضورية، ومعنى الكتاب هو القرآن

٤٤ - المصدر نفسه، خطبة ٨٧.

٤٥ - الرعد/ ٤٣.

٤٦ - المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، المجلد ٢٦، ص ١٧١.

الكريم، أو (الف ولام) هو الجنسية ويعني اللوح المحفوظ، والمطلق من الكتب السماوية ومن بينها القرآن الكريم. على أية حال فإن هذه الكلمة بالإضافة إلى الروايات المفسرة تدل على أن علم القرآن عند أمير المؤمنين (عليه السلام). إن إضافة "علم" إلى "الكتاب" تعني أن كل علم الكتاب لديهم، لأن إضافة المصدر إلى الكل الذي يمكن أن تنتمي جميع مكوناته متعلقة إلى ذلك المصدر بشكل متساوٍ فتظهر في الاستيعاب والعموم؛ ومن ثم في آية أخرى يستخدم هذا التفسير عن شخص كان له جزء من علم الكتاب: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾^{٤٧-٤٨}. لذلك سواء كنا نعني "الكتاب" القرآن الكريم أو اللوح المحفوظ، فإن دلالة علم أهل البيت (عليهم السلام) عليها بشكل كامل.

الرابع: ولاية الإمام علي في غدير خم

والشيء الآخر المشهور في كلام الإمام السجاد والإمام الباقر (عليهما السلام) هو التفسير الصحيح لحديث الغدير وفلسفة تعبيره عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله). ورداً على أسئلة الناس يشرحان بشكل صحيح أن معنى حديث الغدير للرسول كان عن ولاية وخلافة الإمام علي (عليه السلام) وليس بمعنى الصداقة الذي حاول أعداء أهل البيت التعبير عنه باعتباره المعنى الرئيسي للحديث. قال الإمام السجاد (عليه السلام) ردّاً على السائل عن مفهوم المولى في حديث الغدير: "عَنْ شَرِيكٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ (عليه السلام): مَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله) "مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ"؟ قَالَ: أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ الْإِمَامُ بَعْدَهُ"^{٤٩}.

٤٧- النمل / ٤٠.

٤٨- البابائي، علي أكبر، المدارس التفسيرية، المجلد ١، ص ٥٠-٤٦.

٤٩- الصدوق، محمد بن بابويه، الأمالي، ص ١٢٣.

مثل هذا المضمون نقل عن الإمام الباقر عليه السلام: عَنْ أَبَانَ بْنِ تَغْلِبَ قَالَ: "سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام عَنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ "مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ" فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، تَسْأَلُ عَنْ مِثْلِ هَذَا عَلَّمَهُمْ أَنَّهُ يَقُومُ فِيهِمْ مَقَامُهُ"؛ يشرح الإمام الباقر عليه السلام واقعة غدير الخم بشكل الصحيح واستناداً بآيات القرآنية، حيث قال عليه السلام: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"، بِوَلَايَةِ وَلِيِّي، وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ عَلَيَّ عَبْدِي، وَوَصِيِّ نَبِيِّي، وَالْخُلَيْفَةَ مِنْ بَعْدِهِ، وَحُجَّتِي الْبَالِغَةَ عَلَى خَلْقِي، مَقْرُونٌ طَاعَتُهُ بِطَاعَةِ مُحَمَّدٍ نَبِيِّي، وَمَقْرُونٌ طَاعَتُهُ مَعَ طَاعَةِ مُحَمَّدٍ بِطَاعَتِي؛ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَانِي، جَعَلْتُهُ عَلَمًا بَيْنِي وَبَيْنَ خَلْقِي، مَنْ عَرَفَهُ كَانَ مُؤْمِنًا، وَمَنْ أَنْكَرَهُ كَانَ كَافِرًا، وَمَنْ أَشْرَكَ بَيْنَعْتَهُ كَانَ مُشْرِكًا" ^{٥١}.

في كلام آخر استند بآية التبليغ وفسرها بهذا الشكل: "فَلَمَّا بَلَغَ غَدِيرَ خُمٍ قَبْلَ الْجُحْفَةِ بِثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ أَتَاهُ جَبْرِئِيلُ عليه السلام عَلَى خَمْسِ سَاعَاتٍ مَضَتْ مِنَ النَّهَارِ؛ بِالزَّجْرِ، وَالْإِنتِهَارِ، وَالْعِصْمَةِ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُثْرِيكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ - فِي عَلِيٍّ - وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)، وَكَانَ أَوَائِلُهُمْ قَرِيبٌ مِنَ الْجُحْفَةِ، فَأَمَرَ بِأَنْ يَرُدَّ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ، وَيُحْبَسَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ؛ لِيُقِيمَ عَلِيًّا عَلَمًا لِلنَّاسِ، وَيُبَلِّغَهُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي عَلِيٍّ، وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ عِنْدَ مَا جَاءَتْهُ الْعِصْمَةُ مُنَادِيًا يُنَادِي فِي النَّاسِ بِالصَّلَاةِ جَامِعَةً، وَيُرَدُّ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ، وَيُحْبَسُ مَنْ تَأَخَّرَ، وَتَنَحَّى عَنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ إِلَى جَنْبِ مَسْجِدِ الْغَدِيرِ، أَمَرَهُ بِذَلِكَ جَبْرِئِيلُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَانَ فِي الْمَوْضِعِ سَلَامًا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقَمَّ مَا تَحْتَهُنَّ،

٥٠ - الصدوق، معاني الاخبار، ص ٦٦.

٥١ - الاحتجاج على أهل اللجاج، ج ١، ص: ٦٩.

وَيُنْصَبَ لَهُ حِجَارَةٌ كَهَيْئَةِ الْمِنْبَرِ؛ لِيُشْرِفَ عَلَى النَّاسِ، فَتَرَا جَعَ النَّاسُ وَاحْتَبَسَ
أَوَاخِرُهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ لَا يَزَالُونَ^{٥٢}. ثم يشير الإمام إلى خطبة النبي الأعظم
في غدير خم حول ولاية الإمام علي (عليه السلام) والائمة من بعده.

التحليل والدراسة

في خطابات الإمامين تم ذكر عدة أمور مهمة:

أولاً: توضيح حديث الغدير، يؤكدان أصل واقعة غدير خم، وإعلان
ولاية الإمام علي (عليه السلام).

ثانياً: يشرحان أهم أقوال الرسول في غدير خم، ومعني الولي هو
الإمامة والخلافة بعد النبي.

إنَّ حَادِثَةَ غَدِيرِ خَمٍ وَالْحَجَّ الْأَخِيرَ لِلنَّبِيِّ الْكَرِيمِ (عليه السلام) هُوَ مِنَ الْقَطْعِيَّاتِ
وَالْبَدِيَّاتِ لِلنَّبِيِّ (عليه السلام) وَالتَّارِيخِ الْأَكِيدِ. وَقَدْ أَقْرَبَتِ الْكُتُبُ التَّارِيخِيَّةُ وَالسَّرْدِيَّةُ
وَالْتَفْسِيرِيَّةُ لِلْفَرِيقَيْنِ بِصَحَّةِ حَادِثَةِ الْغَدِيرِ. ابْنُ كَثِيرٍ يَكْتُبُ عَنْ حَدَثِ
غَدِيرِ خَمٍ: "وَقَدْ خُطِبَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي هَذَا الْيَوْمِ الشَّرِيفِ خُطْبَةً عَظِيمَةً
تَوَاتَرَتْ بِهَا الْأَحَادِيثُ، وَنَحْنُ نَذْكُرُ مِنْهَا مَا يَسَّرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^{٥٣}. وَفِي
الْغَدِيرِ نَقَلَ الْعَلَامَةُ الْأَمِينِيُّ حَدِيثَ الْغَدِيرِ عَنْ (١١٠) صَحَابَةٍ، وَ(٨٤)
تَابِعًا، وَ(٣٦٠) عَالِمًا سُنِّيًّا. وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى (٢٦) كِتَابًا مُسْتَقْلًا عَنْ عُلَمَاءِ
الْفَرِيقَيْنِ تَمَّ تَأْلِيفُهَا لِإثْبَاتِ تَوَاتُرِ حَدِيثِ الْغَدِيرِ^{٥٤}. الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ أَحَدُ
الْمُؤَرِّخِينَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ فِي تَارِيخِ بَغْدَادٍ يَكْتُبُ بِالتَّفْصِيلِ عَنْ حَادِثَةِ غَدِيرِ خَمٍ

٥٢- المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٠.

٥٣- البداية والنهاية: ٥/ ٢١٣.

٥٤- الغدير: ٣١١-٤١.

فِي مَلْحَقِ آيَةِ الْإِكْمَالِ: "وَهُوَ يَوْمٌ غَدِيرٍ حَمَ لَمَّا أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: أَلَسْتُ وَلِي الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ"، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: بَخْ، بَخْ لَكَ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ، أَصَبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلِي كُلِّ مُسْلِمٍ، فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^{٥٥}.

يُرَوِّي ابْنُ كَثِيرٍ كَلَامَ عُمَرَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ: أَصَبَحْتَ الْيَوْمَ وَلِي كُلِّ مُؤْمِنٍ^{٥٦}. يُرَوِّي أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَحَدُ كِبَارِ رُوَاةِ السُّنَنِ بِالإِضَافَةِ إِلَى تَوْضِيحِ حَادِثَةِ غَدِيرِ حُمَ كَلَامَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ لِلْإِمَامِ عَلِيِّ ﷺ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي: بَخْ بَخْ لَكَ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ أَصَبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَا كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ^{٥٧}. الْحَاكِمُ النِّسَابُورِيُّ أَحَدُ الرُّوَاةِ السُّنَةِ الْبَارِزِينَ يَنْقُلُ حَدِيثَ الْغَدِيرِ كَمَا يَلِي: "عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى غَدِيرِ حُمَ فَأَمَرَ بِدَوْحٍ، فَكُسِحَ فِي يَوْمٍ مَا أَتَى عَلَيْنَا يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ حَرًّا مِنْهُ، فَحَمِدَ اللَّهُ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يُبْعَثْ نَبِيٌّ قَطُّ إِلَّا مَا عَاشَ نِصْفَ مَا عَاشَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ، وَإِنِّي أَوْشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"، ثُمَّ قَامَ فَأَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ ﷺ فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ؟" قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، "أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ؟" قَالُوا: بَلَى، قَالَ: "مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ" هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُجَرِّجْهُ^{٥٨}.

إِعْتَرَفَ الْعَدِيدُ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَةِ بِتَوَاتُرِ حَدِيثِ الْغَدِيرِ^{٥٩}. أَشَارَ الْمَفْسُرُونَ السُّنَةَ إِلَى حَادِثَةِ غَدِيرِ حُمَ فِي مَلْحَقِ آيَةِ التَّبْلِيغِ، فَيَكْتُبُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي

٥٥ - تاريخ بغداد: ٨ / ٢٨٤.

٥٦ - البداية والنهاية: ٧ / ٣٥٠.

٥٧ - مسند ابن حنبل: ٤ / ٢٨١.

٥٨ - المستدرک علی الصحیحین: ٣ / ٦١٣.

٥٩ - ينظر: المراجعات: ٢٠٧-٢٠٨.

هَذَا الصَّدَدِ: نَزَلَتِ الْآيَةُ: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" فِي فَضْلِ عَلِيٍّ، وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: "مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَآلِ مَنْ وَآلَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ".^{٦٠}

ترتبط واقعة الغدير وتشكيله بعدة آيات قرآنية موضحة أدناه:

آية التبليغ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة/ ٦٧).

” فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ أَنْ يُقْلَ أَمْرًا هَامًّا، أَهْمِيَّةُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي أَنَّ عَدَمَ تَوْصِيلِ الْمَوْضُوعِ الْمَذْكُورِ يُسَاوِي عَدَمَ إِنْجَازِ الرِّسَالَةِ، لَا شَكَّ أَنَّ رِسَالَةَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ مُهِمَّةٌ لِلْغَايَةِ لِدَرَجَةٍ أَنْ لَا شَيْءَ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَلَّلَ مِنْ قِيَمَتِهَا، كَانَ أَدَاءُ الْوَاجِبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَابْلَاغُ الْوَحْيِ، وَتَبَيُّنُ الْوَحْيِ، وَتَوْجِيهِ النَّاسِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَهَمِّ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي قَامَ بِهَا نَبِيُّ الْإِسْلَامِ ﷺ، وَمَعَ ذَلِكَ هُنَاكَ شَيْءٌ مُهِمٌّ فِي آيَةِ التَّبْلِيغِ وَهُوَ أَنَّ عَدَمَ الْقِيَامِ بِذَلِكَ وَابْلَاغَهُ يُسَاوِي عَدَمَ الْقِيَامِ بِالْمِهْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْعَظِيمَةِ. إِنَّ تَحْلِيلَ وَشَرْحَ مُضْدَاقِ التَّبْلِيغِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُحَدِّدُ تِلْكَ النِّقْطَةَ الْمُهْمَّةَ.

“

يَعْتَبِرُ الْمَفْسِّرُونَ وَالْمُفَكِّرُونَ الشَّيْعَةُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَتَحَدَّثُ عَنْ وِلَايَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ لِلْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (ع). كَمَا ذَكَرَ عُلَمَاءُ السُّنَّةِ أَقْوَالًا مُخْتَلِفَةً عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَفِي مَصَادِرِهِمُ الْمُهْمَّةِ رَوَايَاتٌ عَدِيدَةٌ عَنْ شَأْنِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ.

٦٠- مفاتيح الغيب: ٣/ ٦٣٦.

٦١- تفسير العياشي: ٢/ ٦٢-٦٣؛ تفسير فرات الكوفي: ١٨٠-١٨١؛ التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ١٤٤؛

مجمع البيان في علوم القرآن: ١/ ٦٦-٨٦.

يَرْوِي السُّيُوطِيُّ رِوَايَةً هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي تَفْسِيرِ الدَّرِّ الْمَشْهُورِ: "وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ على رسول الله ﷺ يوم غدِير خم في علي بن أبي طالب، وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود، قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ {إِنَّ عَلَيْنَا مَوَلَى الْمُؤْمِنِينَ} وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) ٦٣. وقد نقل المفسرون والرواة السُّنَّةَ الْآخَرُونَ نَفْسَ الْأَمْرِ ٦٣.

تَدُلُّ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى إِمَامَةِ وَخِلَافَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ لِلْأَسْبَابِ التَّالِيَةِ:

أولاً: إِنَّ سَبَبَ نُزُولِ الْآيَةِ فِي الرِّوَايَاتِ وَهُوَ الْمَوْضُوعُ الَّذِي نَشَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَالَّذِي يَأْمُرُ اللَّهُ بِنَشْرِهِ هُوَ وِلَايَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثانياً: أَلْوَلَايَةُ الْوَارِدَةُ فِي الرِّوَايَاتِ تَعْنِي الْوَلَايَةَ فِي الْحِيزَةِ وَالتَّصَرُّفِ وَلَيْسَ بِأَيِّ مَعْنَى آخَرَ، لِأَنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ مِنْ آخِرِ السُّورِ الَّتِي نَزَلَتْ وَهِيَ مِنْ الْمَوَاضِعِ الدِّينِيَّةِ الْمُهِّمَةِ حَتَّى الْآنَ مِثْلُ: التَّوْحِيدِ، النَّبُوَّةِ، الْمُعَادِ، الصَّلَاةِ، وَالْجِهَادِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُهِّمَةِ، وَمَا لَمْ يُعْلَنَ حَتَّى ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَمْ يُنَزَّ الْعَهْدُ وَالْوَلَاءُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ وَصِيَّةَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ وَخِلَافَتِهِ.

ثالثاً: الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي كَانَ عَدَمُ تَبْلِيغِهِ مُسَاوِيًا لِعَدَمِ تَبْلِيغِ كُلِّ رِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ هُوَ مَوْضُوعُ خِلَافَتِهِ؛ لِأَنَّ رِسَالَةَ الرَّسُولِ ﷺ تَمْتَدُّ إِذَا كَانَتْ خَلْفًا لِلنَّبُوَّةِ حَتَّى تَقْوِيَ الدِّينَ، لِذَلِكَ مَوْضُوعُ التَّبْلِيغِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَصَايَةُ وَخِلَافَةُ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٦٢ - الدر المنثور: ٢/ ٢٩٨.

٦٣ - فتح القدير: ٢/ ٦٠؛ روح المعاني في تفسير العظيم وسبع المثاني: ٥/ ٣٥٩؛ شواهد التنزيل: ١/ ٢٥٠.

رابعاً: مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ فِي مَصَادِرِ الْفَرِيقَيْنِ حَدِيثُ الْغَدِيرِ الَّذِي جَاءَ فِي اسْتِمْرَارِ آيَةِ التَّبْلِيغِ وَتَشْكِيلِ واقعة غدير خم^{٦٤}. عَلَى الرُّغْمِ مِنْ وُجُودِ إِجْمَاعٍ فِي حَدِيثِ الْغَدِيرِ مِنْ حَيْثِ التَّكْرَارِ وَلَا فَرْقَ إِلَّا أَنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ أَلْقَى خُطْبَةً غَرَاءَ فِي الْغَدِيرِ أَنَّهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْحَمْدِ لِلَّهِ، تَمَّ تَعْيِينَ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيفَةً، وَتَعْرِيفُ الْمَلَامِحِ الْمُنَافِقِينَ، وَتَقْدِيمُ الْأَئِمَّةِ الْإِثْنِي عَشَرَ.

آيَةُ إِكْمَالِ الدِّينِ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة/ ٣).

” فِي الْمَصَادِرِ الشَّيْعِيَّةِ بِإِخْلَافٍ أَنَّ آيَةَ الْإِكْمَالِ مَعْرُوفَةٌ بِإِعْلَانِ وَلَايَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. عِنْدَ انْجَازِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ مِثَالِ ”آيَةِ التَّبْلِيغِ“ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بَعْدَ تَعْيِينِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ^{٦٥}“

فِي الْمَصَادِرِ السُّنِّيَّةِ الْمُهَمَّةِ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمُتَوَافِقَةِ مَعَ وَجْهَةِ النَّظَرِ الشَّيْعِيَّةِ، يَنْقُلُ الْحَسَكَايْنِي مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي: ”لَمَّا نَصَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا يَوْمَ غَدِيرِ خُمِ فَنَادَى لَهُ بِالْوَلَايَةِ، هَبَطَ جَبْرِئِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ”الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ“^{٦٦}. وَيَنْقُلُ السُّيُوطِيُّ فِي شَرْحِ الدُّرِّ الْمَشْهُورِ مَا يَلِي: ”تَقَالَ ابْنُ مَرْدَوِيَّةَ، عَنْ ابْنِ عَسَاكِرَ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ أَنَّ: لَمَّا نَصَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا يَوْمَ غَدِيرِ خُمِ، فَنَادَى لَهُ بِالْوَلَايَةِ، هَبَطَ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ بَهَذِهِ الْآيَةِ ”الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ“^{٦٧}. يَرْوِي ابْنُ عَسَاكِرَ فِي كِتَابِهِ واقعة الغدير ونزول آية الإكمال عَلَى النَّحْوِ التَّالِي: ”عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

٦٤- عدد الأحاديث المتواترة نادر جداً. فِي تَعْرِيفِ الْحَدِيثِ الْمُتَوَاتِرِ ذَكَرُوا: إِنَّ الْمُتَوَاتِرَ هُوَ خَبَرُ مَجْمُوعَةٍ مَقْطُوعَةٍ بِشَكْلِ صَحِيحٍ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهَا. أَوْ إِذَا وَصَلَ الْأَفْرَادُ وَسُلْسَلَةُ الْأَخْبَارِ فِي كُلِّ فُتَّةٍ إِلَى نَقْطَةٍ يَتِمُّ فِيهَا تَأْمِينُ مُوَافَقَتِهِمْ عَلَى الْكُذْبِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارَ مُتَوَاتِرَةٌ. (صَدْر، نَهَايَةُ الدَّرَايَةِ، ٩٨).

٦٥- تَفْسِيرُ رُوحِ الْجَنَانِ: ٩٧/٢؛ مَجْمَعُ الْبَيَانِ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ: ٣١٢/١؛ مِنْهَاجُ الْكِرَامَةِ فِي مَعْرِفَةِ الْإِمَامَةِ: ١١٨ الْغَدِيرِ: ٢٣٤/١.

٦٦- شَوَاهِدُ التَّنْزِيلِ: ٢٠٧/١-٢٠٨.

٦٧- الدَّرُ الْمَشْهُورُ: ٢٥٩/٢.

قال: من صام يوم ثمانى عشرة من ذى الحجة كتب له صيام ستين شهراً، وهو يوم غدیر خم لما أخذ النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب فقال: ألسنت ولي المؤمنين؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، فقال عمر بن الخطاب: بخ، بخ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مسلم، فأنزل الله عز وجل: "اليوم أكملت لكم دينكم" ٦٨. يُمكنُ رؤية نفس الموضوع في مصادرٍ سنيةٍ أخرى ٦٩.

يُنبِئُ التحليلُ: الدّاخلِي لِلنصوص، والخارجِي لِلآيةِ أَنَّ مَعْنَى إِكْمَالِ الدِّينِ وَإِتِمَامِ النِّعْمَةِ هُوَ إِمَامَةُ الْإِمَامِ عَلِيِّ (عليه السلام) وَهَكَذَا:

أولاً: إِنَّ الْمَبْحَثَ مِنَ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْمَائِدَةِ: (الْيَوْمَ يَتِمُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) مَبْنِي عَلَى آيَاتٍ وَرَوَايَاتٍ مُنْفَصِلَةٍ عَنْ مَا قَبْلَهَا وَبَعْدَهَا، وَلَا عِلَاقَةَ لَهَا بِهَا ٧٠.

ثانياً: إِنَّ آيَةَ الْإِكْمَالِ نَزَلَتْ فِي حَجَّةِ الْوِدَاعِ بِحَسَبِ تَوَافُقِ الطَّرْفَيْنِ، وَيُشِيرُ تَفْسِيرًا "الْيَوْمَ" إِلَى يَوْمٍ مُعَيَّنٍ أَوْ إِلَى فِتْرَةٍ مُحَدَّدَةٍ الَّتِي يَقُومُ عَلَى ظُهُورِ الْآيَةِ، وَالذَّلِيلُ السَّرْدِي لِيَوْمٍ مُعَيَّنٍ ٧١.

ثالثاً: قِيلَ لَهُذَيْنِ "الْيَوْمَ" أَرْبَعُ خِصَالٍ: يَوْمُ يَأْسِ الْكُفَّارِ، وَيَوْمُ إِكْمَالِ الدِّينِ، وَيَوْمُ إِتِمَامِ النِّعَمِ، وَالْيَوْمُ الَّذِي أَجَازَ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ كَدِينٍ. وَالْآنَ بِالنَّظَرِ إِلَى أَنَّ الْآيَةَ الْمَذْكُورَةَ قَدْ نَزَلَتْ فِي حَجَّةِ الْوِدَاعِ، فَإِنَّ الْحَدَّثَ الْكَبِيرَ الْوَحِيدَ فِي هَذَا الْحُجِّ غَيْرَ حَادِثَةِ الْغَدِيرِ هُوَ حُجُّ الْمُسْلِمِينَ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا

٦٨ - تاريخ مدينة دمشق: ٧٥ / ٢.

٦٩ - مناقب علي بن أبي طالب (عليه السلام): ١٣٥، تاريخ بغداد: ٨ / ٢٩٠.

٧٠ - الميزان في تفسير القرآن: ١٦٧ / ٥.

٧١ - دراسة مقارنة لآيات الولاية في رأي الفريقين: ١٧٩-١٨١.

يُنَاسُ الْكُفَّارُ. لِذَلِكَ يَجِبُ الْبَحْثُ عَنْ خَصَائِصِ الْآيَةِ الْأَرْبَعَةِ فِي واقعة الغدير. الآن إذا قيلَ أَنَّ مَعْنَى حَدِيثِ الْغَدِيرِ هُوَ تَقْدِيمُ الْإِمَامِ عَلِيٍّ (عليه السلام) بِصِفَتِهِ مَحْبُوبِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ مَحْبُوبِيَّتَهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُشْمَلَ خَصَائِصُ الْآيَةِ الْأَرْبَعِ. مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْتَوِيَ عَلَى خَصَائِصِ الْآيَةِ هُوَ تَعْيِينُ الْإِمَامِ عَلِيٍّ (عليه السلام) فِي إِمَامَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ لِأَنَّهُ عِنْدَمَا يَرَى الْكُفَّارُ أَنَّهُ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هُنَاكَ مَنْ سَيُؤَاصِلُ طَرِيقَهُ، فَإِنَّهُمْ سَيُصَابُونَ بِالْيَأْسِ وَالْحُيْبَةِ^{٧٢}.

رابعاً: إجماع الروايات الشيعية على أَنَّ آيَةَ الْإِكْمَالِ نَزَلَتْ فِي حَجَّةِ الْوِدَاعِ (الْبَعْضُ يُشِيرُ إِلَى نَزُولِهَا يَوْمَ عَرَفَةَ، وَآخَرُ يَوْمِ الْغَدِيرِ) عَنْ وَلَايَةِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ (عليه السلام). كَمَا تَدُلُّ رِوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قَدْ نَزَلَتْ فِي غَدِيرِ خُمٍّ وَفِي وَلَايَةِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ (عليه السلام). وَبِحَسَبِ هَذَا التَّحْلِيلِ لآيَةِ الْإِكْمَالِ فَإِنَّهَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ عَنْ إِمَامَةٍ وَوَلَايَةِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ (عليه السلام).

النتيجة

اهتم الإمامان - السجاد والباقر (عليهما السلام) - بشرح التعاليم الصحيحة للقرآن والسنة، وفي هذا الصدد شرحا القيم والمعتقدات بأبعاد عديدة، بالإضافة إلى أدعيتها وأحاديثها.

وفي مجال الإمامة وبيان مكانة أهل البيت يبينان هذا الأمر في محاور مهمة: في المحاور الأول شرحا عصمة أهل البيت بالاستناد إلى القرآن الكريم، وقدموا أهل البيت خالية من الأخطاء والمعاصي، وهذا الموقف موثق في القرآن الكريم، وفي هذا الصدد استخدموا الكلمات الرئيسية لآية

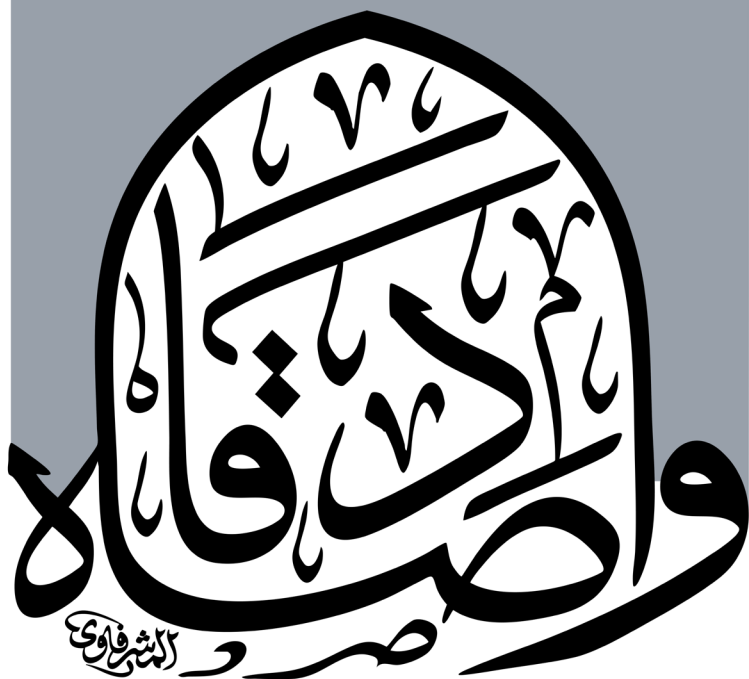
٧٢- الميزان في تفسير القرآن: ٥ / ١٦٨-١٧٦؛ دراسة مقارنة لآيات الولاية في رأي الفريقين: ١٨١-١٨٤.

التطهير وشرحاً هذا المهم بكلماتٍ اطائب مطهرين. في الواقع كان هدف الإمامين من شرح عصمة أهل البيت هو استحقاقهم لمنصب الخلافة وإمامة الأمة الإسلامية.

في المحور الثاني شرحاً ضرورة إمامة على الحق والإمام من عند الله للمجتمع الإسلامي، وهذا يعني أنه في أي وقت تحتاج الأمة الإسلامية إلى إمامٍ على الحق، وفي هذا الصدد يستخدمان الكلمات المناسبة للولي والولاية، وبالعديد من المقاربات والعبارات المتعددة يوضحان أهمية مكانة أولياء الله وكرامتهم، ومضمونها مأخوذ من آية الولاية، والآية (٥٥) من سورة المائدة، وآية أولوا الأمر.

وفي المحور الثالث يشرح أن علم أهل البيت بمعنى أن علم أهل البيت مأخوذ من علم اللدني من الله، وعلم أهل البيت يعني إحاطتهم بتعاليم الدين ومعارف القرآن والسنة التي ترتبط بها آيات عديدة من القرآن الكريم.

وفي المحور الرابع يتطرقان إلى أسئلة الناس حول الإمامة والولاية لأهل البيت، وفي غضون ذلك يشيران بوضوح إلى شرح الحقيقة كما كانت. ردَّ الإمام السجاد عليه السلام على أسئلة الناس حول واقعة الغدير، حيث شرح معنى حديث الغدير للنبي بمقاربة دقيقة. وقدّم الإمام السجاد مفهوم المولى في حديث الغدير كإمامة لا كما يحرفها الآخرون، وظنوا أن كلمة المولى تعني الصديق، لكن الإمام يؤكد بوضوح أن كلام الرسول يشير إلى تقديم الإمام من بعده. كما أكد الإمام الباقر لولاية الإمام علي والائمة من بعده، استناداً بالآيات القرآنية، وأيضاً شرح خطبة النبي الأعظم في غدير خم.



الإمام الصادق عليه السلام

ومواجهة التحديات الفقهية والفكرية

حيدر الدفاعي

إنَّ منهجية الإمام الصادق عليه السلام في ابطال مناهج المخالفين مرت بمحاور عدة؛ وفي هذا المقال المختصر سنتحدث عن واحد من تلك المحاور التي اعتمدها الإمام الصادق عليه السلام وهو: ابطال مناهج المخالفين في الفتوى والاحكام الشرعية، وقبل البدء في خوض التفاصيل لأبد لنا من أن نقف عند نقطة مهمة وهي: إن علماء المسلمين وعلى اختلاف مدارسهم الفقهية ومذاهبهم واتجاهاتهم -المخالف منهم، والمؤالف- ترجع علومهم في الحقيقة إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، بما في ذلك أئمة المذاهب الأربعة هم: إما تلاميذ مباشرين للإمام الصادق عليه السلام مثل: أبي حنيفة ومالك، وإما بواسطة تلاميذ للإمام الصادق عليه السلام، وهذه في الحقيقة قد بيَّنها وأقرَّ بها المؤرخون وأهل التراجم؛ على سبيل المثال: هناك عبارة للعلامة الحلي (رضوان الله عليه) في كتابه نهج الحق وكشف الصدق في أن:

مصدر العلوم كلها لعلي بن أبي طالب عليه السلام، وأيضًا: جميع العلوم مستندة إليه.

أما (الكلام وأصول الفقه) فظاهر، وكلامه في النهج يدل على كمال معرفته في التوحيد والعدل، وجميع جزئيات علم الكلام والأصول.

وأما (الفقه): فالفقهاء كلهم يرجعون إليه ، أما الإمامية فظاهر ..
وأما الحنفية، فإنَّ أصحاب أبي حنيفة أخذوا عن أبي حنيفة، وهو تلميذ
الصادق عليه السلام، وأما الشافعية، فأخذوا عن محمد بن إدريس الشافعي ،
وهو قرأ على محمد بن الحسن ، تلميذ أبي حنيفة ، وعلى مالك ، فرجع
فقهه إليهما، وأما أحمد بن حنبل ، فقرأ على الشافعي ، فرجع فقهه إليه،
وأما مالك، فقرأ على اثنين: أحدهما : ربيعة الرأي ، وهو تلميذ عكرمة،
وهو تلميذ عبد الله بن عباس ، وهو تلميذ علي عليه السلام، والثاني: مولانا جعفر
بن محمد الصادق^١ . في المحصلة أن أئمة المذاهب الأربع، والتي بدأت
منذ ذلك الوقت ولا زالت مستمرة إلى يومنا هذا، وأن أحكامها وآرائها
واعتقاداتها نافذة على عدد كبير من المسلمين في جميع انحاء العالم هم في
حقيقة الامر تلاميذ للإمام الصادق عليه السلام .

” إِنَّ الْمَسِيرَةَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْإِرْشَادِيَّةَ لِأَيِّ عَالَمٍ، أَوْ أَسْتَاذٍ كَبِيرٍ
لَمْ تَأْتِ مِنْ فَرَاغٍ أَوْ بِمَحْضِ الصَّدْفَةِ، بَلْ هِيَ نَتِيجَةُ لَأَسْبَابٍ
مَوْضُوعِيَّةٍ وَدَوَائِعِ مَنْطِقِيَّةٍ جَعَلَتْ مِنْهُ مَنَارَةً لِلْعِلْمِ. وَهَذَا يَقُودُنَا
إِلَى ضَرُورَةٍ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ قَارِئًا فَحْصًا لِلتَّارِيخِ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَمُرَ
الْأَحْدَاثُ أَمَامَ عَيْنِهِ مَرُورًا عَابِرًا، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَفْتَحَ قَلْبَهُ وَعَقْلَهُ
لِلتَّأَمُّلِ فِي الْحَقَائِقِ، وَالْبَحْثِ فِي جُذُورِهَا الْعَمِيقَةِ. “

عندما نضع الأمور في ميزان: العقل، والمنطق، والدين، ونقارن بين
الرجوع إلى مدرسة الإمام الصادق عليه السلام وبين المدارس الفقهية الأخرى
كأبي حنيفة، أو الشافعي، أو أحمد بن حنبل، نجد أن التوجه نحو
الإمام الصادق عليه السلام هو الخيار الذي يدعمه الدليل العلمي والمنطقي.

١ - نهج الحق وكشف الصدق للعلامة الخلي، ص ٢٣٧.

ومن هنا يُطرح تساؤل جوهري حول ابتعاد قطاع من المسلمين عن هذا الفكر وهذه المعرفة، رغم أن المسألة تعد من القضايا الواضحة والبدئية في التاريخ الإسلامي.

إنَّ ما أشار إليه العلامة الحلي في هذا الصدد ليس مجرد رأي عابر، بل هو حقيقة وثقها المؤرخون وعلماء التراجم والتحقيق بإجماع؛ حيث أكدوا أن جميع المدارس الفكرية والاتجاهات الفقهية، وكبار العلماء في تاريخ الأمة، قد استقوا علمهم من نبع الإمام الصادق (عليه السلام). فالعلاقة هنا لم تكن علاقة ندية أو تساوي في الرتبة العلمية، بل كانت علاقة تلميذ بأستاذه، حيث تتلمذ هؤلاء على يديه واستفادوا من مدرسته التي كانت هي الأصل والأساس لشتى العلوم والمعارف التي تفرقت في الأمصار لاحقاً.

إنَّ القراءة الفاحصة لتاريخ الفقه الإسلامي تكشف عن حقيقة تتجاوز مجرد التلمذة التقليدية لأصحاب المذاهب على يد الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)؛ إذ تشير الشواهد التاريخية إلى أن مكانة الإمام في نفوس فقهاء عصره وقضاته كانت تمثل "الحجية المطلقة" التي لا يرى لها مقابل، فكان قوله هو الفصل الذي تنتهي عنده الاجتهادات وتراجع أمامه الفتاوى. ويظهر هذا الجلال العلمي بوضوح في حوار جرى بين سيف الدولة الحمداني والقاضي عبد الحميد المالكي، الذي كان يُعد المرجع القضائي الأول في الكوفة، فبينما كان سيف الدولة يسأل القاضي المالكي عن مالك ومن أين استسقى علمه، لم يجد وصفاً أبلغ من ربط علمه بمنبعه الأصيل، حيث أشار إلى أن مالكا كان بمثابة "الربيب" الذي نشأ وتعلّم في كنف الإمام الصادق، مؤكداً أن مالكا كان كثيراً ما يستند في آرائه إلى ما سمعه مباشرة من الإمام دون أن يرى في نفسه أو في غيره نداً له، وهذا ما يتضح

في قوله: «وسأل سيف الدولة عبد الحميد المالكي قاضي الكوفة عن مالك، فوصفه وقال: كان جره بنده جعفر الصادق أي الربيب، وكان مالك كثيرًا ما يدعي سماعه، وربما قال: حدثني الثقة يعنيهِ عليه السلام»^٢.

وهذه المكانة لم تكن محصورة في مدرسة المدينة فحسب، بل امتدت لتفرض سطوتها العلمية على مدرسة الرأي والقضاء في الكوفة، وهو ما يتجلى في الشهادة التاريخية المدوية للقاضي ابن أبي ليلى، الذي عُرف بصلابته في أحكامه واعتداده الكبير باجتهاده الشخصي، لدرجة أنه لم يكن يرى أحدًا من العلماء يستحق أن يتراجع عن رأيه لأجله. إلا أن هذه القناعة كانت تسقط تمامًا أمام شخصية الإمام الصادق عليه السلام، فعندما سأله نوح بن دراج عما إذا كان هناك أحد في الدنيا يجعله يتخلى عن قضاء قضى به أو فتوى أفتى بها، أقرّ ابن أبي ليلى بأن الإمام الصادق هو الاستثناء الوحيد في حياته العلمية، مسجلًا اعترافًا يثبت أن قول الإمام كان فوق مرتبة النقاش، وذلك حين قال نوح بن دراج^٣ لابن أبي ليلى: أكنت تاركًا قولاً قلته، أو قضاء قضيته لقول أحد؟ قال: لا، إلا رجل واحد، قلت: من هو؟ قال: جعفر بن محمد عليه السلام^٤.

إن هذه الشهادات الصادرة من قمم المنظومة الفقهية والقضائية الرسمية في ذلك العصر، تؤكد أن الإمام الصادق لم يكن مجرد ناقل للعلم، بل كان الميزان الذي تُقاس به صحة الأقوال؛ فعبارة "سمعت جعفر بن محمد" التي كانت تتردد في أروقة الفقه، لم تكن مجرد رواية حديث، بل كانت حجة يغلق بها الفقهاء باب الجدل، مما يثبت أن إمامة الصادق العلمية

٢- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٤٧ - الصفحة ٢٨.

٣- نوح بن دراج من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام / تنقيح المقال: ٣ / ٢٧٥ وابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمن مفتي الكوفة وقاضيهما، راجع سير أعلام النبلاء: ٦ / ٣١٠.

٤- حلية الأولياء: ٣ / ١٩٣.

كانت حقيقة لا يختلف عليها اثنان، حتى ممن اتخذوا لأنفسهم مسارات فقهية مستقلة، فظل قوله هو الأصل الذي يرجع إليه الجميع والبوصلة التي توجه مسار الاستنباط الشرعي في الأمة.

” ولم يتوقف الإبهار العلمي للإمام الصادق (عليه السلام) عند حدود الفقه والقضاء فحسب، بل تعدى ذلك إلى كسر القواعد التقليدية المعروفة في "علم الرواية" وسلاسل الأسانيد، ليثبت أن علمه مستمد من منبع إلهي مباشر لا يحتاج إلى وسائط البشر. ويتجلى هذا المعنى بوضوح فيما رواه الشيخ المفيد عن "سالم بن أبي حفصة"، وهو أحد العلماء الذين عاصروا فترة انتقال الإمامة من الإمام الباقر إلى ابنه الصادق (عليه السلام). “

فبينما كان سالم وأصحابه يستعظمون مقام الإمام الباقر وكيف أنه كان يروي عن جده رسول الله ﷺ مباشرة دون ذكر واسطة بينهما رغم الفاصل الزمني الكبير، دخل سالم على الإمام الصادق ليعزيه برحيل والده، وأثنى على الإمام الباقر بتلك الصفة العلمية الفريدة. وهنا أراد الإمام الصادق أن يرفع سقف المعرفة لدى سالم، وينقله من التعجب من الرواية عن الرسول بلا واسطة، إلى معاينة حقيقة اتصال الأئمة بالله عز وجل بلا واسطة، فأجابه بحديث قدسي مباشر عن الله تعالى، مما جعل سالمًا يخرج لزملائه مذهولاً من عظمة ما سمع، وقد سجل التاريخ هذا الموقف في قوله: (قال: لما مات الباقر (عليه السلام) قلت لأصحابي: انتظروني حتى أدخل على جعفر بن محمد فأعزيه، فدخلت عليه فعزّيته، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب والله من كان يقول: قال رسول الله ﷺ فلا يسأل عمن بينه وبين رسول الله، فسكت ساعة، ثم قال-الإمام الصادق (عليه السلام): قال الله

عز وجل: إِنَّ مَنْ يَتَصَدَّقْ بِشَقِّ تَمْرَةٍ فَأَرْبِيهَا لَهُ كَمَا يَرْبِي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ حَتَّى أَجْعَلَهَا لَهُ مِثْلَ أَحَدٍ، فخرجت إلى أصحابي، فقلت: ما رأيتم أعجب من هذا! كنّا نستعظم قول أبي جعفر (عليه السلام) قال رسول الله ﷺ بلا واسطة فقال لي أبو عبد الله: قال الله عز وجل بلا واسطة!°.

إن هذا الموقف يمثل درسًا تعليميًا وتأديبيًا في آن واحد؛ حيث أراد الإمام الصادق أن يبين لعلماء عصره أن علوم أهل البيت ليست "تحصيلية" تكتسب من بطون الكتب أو عنعن الرواة، بل هي علوم إلهية، قلوبهم فيها أوعية للوحي، وعقولهم مستودع للسنة. وبذلك، تكتمل صورة الحجية المطلقة للإمام الصادق؛ فهو المرجع الذي يسقط أمامه اجتهاد الفقهاء، وهو القاضي الذي يتراجع لقوله القضاة، وهو العالم الرباني الذي يتحدث عن الله ورسوله بيقين المشاهدة، لا بنقل الرواة، مما يجعله القطب الذي دارت حوله رحى المعرفة في عصره بلا منازع.

وبناءً على هذه الشواهد، يتضح بجلال أن الإمام الصادق (عليه السلام) كان "أستاذ الكل" بلا منازع، وهي حقيقة لم يجرؤ حتى كبار مخالفي الإمام ومؤسسي المذاهب الأخرى على إنكارها، بل إننا نجد أن الإمام قد خاض مناظرات كبرى أثبتت تفوقه المعرفي، لاسيما مع "أبي حنيفة" الذي يمثل حالة خاصة لسبيين؛ الأول: أنه تتلمذ مباشرة على يد الإمام، والثاني: أنه كان يتزعم مدرسة "الرأي والقياس" التي تحكّم العقل الشخصي في النص الديني.

وهذه القضية لا تزال حية في واقعنا المعاصر؛ حيث نرى اليوم من يسمون أنفسهم باحثين أو مثقفين وهم لم يدرسوا قواعد الفقه أو أصول الاستنباط، ومع ذلك يحاولون إخضاع الدين لأهوائهم وعقولهم

٥- أمالي المفيد: ٣٥٤.

القاصرة، فيقبلون ما يوافق أمزجتهم، ويردون ما يخالفها، وهو عين ما حذر منه الإسلام في القاعدة النبوية: «من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماء، وملائكة الأرض، وملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه»^٦.

وفي هذا السياق، تبرز مناظرة تاريخية رواها "الحسن بن زياد اللؤلؤي" تكشف عن محاولة السلطة العباسية استغلال علم أبي حنيفة لمواجهة التأثير الشعبي المتزايد للإمام الصادق. يروي أبو حنيفة نفسه هذه التجربة بإنصاف واعتراف بالحق، حين سُئل عن أفقه مَنْ رأى؟ فكان جوابه قاطعاً بأن الإمام الصادق هو الأعلم، مستنداً بذلك إلى حادثة استدعاء المنصور العباسي له ليقوم بمهمة "إفحام" الإمام أمام الناس، حيث طالبه المنصور بإعداد أعقد المسائل وأصعبها ليواجه بها الإمام، ويقلل من شأنه أمام الرأي العام الذي افتتن به.

يقول أبو حنيفة واصفاً تلك الاستعدادات وذلك المجلس:

نضع هنا نص الرواية: روى ابن شهر آشوب، عن مسند أبي حنيفة، إنَّ الحسن بن زياد قال: سمعت أبا حنيفة وقد سُئل: مَنْ أفقه من رأيت؟ قال: جعفر بن محمد، لما أقدمه المنصور، بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة، إنَّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهَيِّئْ له من مسائلك الشداد، فهَيِّأت له أربعين مسألة، ثم بعث إلى أبي جعفر وهو بالحيرة، فأتيته، فدخلت عليه وجعفر جالس عن يمينه؛ فلما بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسَلَّمْتُ عليه، فأوماً إليّ، فجلست، ثم التفت إليهِ فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة، قال: نعم، أعرفه، ثم

٦- دعائم الإسلام، ج ١، القاضي النعمان المغربي، ص ١٢٦.

التفت إليّ فقال : يا أبا حنيفة أَلقِ على أبي عبد الله من مسائلك ؛ فجعلت أَلقي عليه فيجيبني، فيقول : أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، فربّما تابعنكم، وربّما تابعنهم، وربّما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على أربعين مسألة، فما أخلّ منها بشيء، ثم قال أبو حنيفة : أليس أنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس؟^٧.

” إن هذه الواقعة لا تكشف فقط عن سعة علم الإمام، بل تكشف عن عمق التأمر الذي كان يُحاك ضد مدرسته، وكيف أن العلم اللدني والحكمة الإلهية كانت دائماً هي الغالبة. وما يثير الدهشة في هذه المواجهة ليس مجرد الإجابة على الأسئلة، بل طبيعة "الاستحضار الذهني" الفائق الذي أبداه الإمام الصادق؛ فستان بين شخص استعد للمناظرة وهياً مسأله مسبقاً وبحث في ثناياها كأبي حنيفة، وبين شخص يُفاجأ في مجلس السلطان بوابل من الأسئلة "الشداد" المعقدة، فيتصدى لها فوراً دون تردد أو استمهال، ويجيب عنها إجابة شاملة ومستوعبة. “

لقد تجلّت عبقرية الإمام في كونه لم يكتفِ بإعطاء رأيه الخاص، بل كان يفك كل مسألة من المسائل الأربعين مبيّناً وجوه الاختلاف فيها؛ فيقول: "أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا"، فكان رأيه أحياناً يوافق هؤلاء، وأحياناً يوافق أولئك، وأحياناً ينفرد برأي ثالث يتجاوز الجميع. هذه الإحاطة الكاملة بكل التيارات الفقهية المعاصرة لها هي التي دفعت أبا حنيفة إلى الإقرار بالهزيمة العلمية والاعتراف بالحقيقة الكبرى، مسجلاً شهادته التي رواها الحسن بن زياد اللؤلؤي:

٧- منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، للشيخ عباس القمي، ج٢، ص١٦٤.

إِنَّ شهادة أبي حنيفة هذه لم تكن مجرد مجاملة، بل هي تقرير لواقع علمي؛ فمن يعرف رأيه فقط قد يكون فقيهاً، ولكن من يحيط بآراء الجميع واتجاهاتهم ومبانيهم، ثم ينقدها ويصححها، فهو "أستاذ الفقهاء" وإمامهم. وهذا الحضور الذهني الكبير كشف للعلماء وللحاضرين في مجلس المنصور أن علوم أهل البيت (عليه السلام) لا تقف عند حدود الحفظ والنقل، بل هي ملكة ربانية وقدرة استيعابية لا يحدها حد، مما جعل أبا حنيفة يضع الإمام الصادق في مقام «الأفقه» على الإطلاق، معتبراً أن منتهى العلم هو الإحاطة بمواضع الاختلاف والقدرة على الفصل فيها.

إِنَّ المتأمل في مسيرة الإمام الصادق (عليه السلام) يدرك أن السلطة العباسية حاولت جاهدة بصناعة "ندّ فقهي" يكسر هيبة الإمام المعرفية، فاتخذت من أبي حنيفة النعمان وسيلة لذلك، وشجعت على الإفتاء بالرأي والقياس، بعيداً عن الأصول الصحيحة للاستنباط. ولم تكن مواجهة الإمام لهذا المنهج مجرد ترف فكري، بل كانت صرخة لتنبية الأمة من خطر إخضاع الدين للمقاييس العقلية المحدودة التي قد تؤدي إلى الضلال، تماماً كما حدث مع "إبليس" الذي كان أول من قاس برأيه فأخطأ، حينما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾^٨.

ويبرز في هذا الصدد لقاء نقله «ابن شبرمة»^٩، يصور المواجهة الأولى بين الإمام وأبي حنيفة، حين قدمه ابن شبرمة للإمام الصادق (عليه السلام) قائلاً: (دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمد الصادق، فقلت: هذا رجل فقيه من العراق، فقال: لعله الذي يقيس الدين برأيه، أهو النعمان بن ثابت؟ قال: ولم أعلم باسمه إلا ذلك اليوم، فقال له أبو حنيفة: نعم، أنا ذلك أصلحك الله، فقال له جعفر: اتق الله، ولا تقس الدين برأيك،

٨- ص: ٧٦.

٩- عبد الله بن شبرمة (٧٢ - ١٤٤ هـ) ابن الطفيل الضبي، أبو شبرمة الكوفي القاضي. وُلد سنة اثنتين وسبعين. ينظر موسوعة طبقات الفقهاء: ١ / ٤٣٧.

فإن أول من قاس برأيه إبليس، إذ قال: (أنا خير منه) فأخطأ بقياسه فضل، ثم قال له: أحسن أن تقيس رأسك من جسدك؟ قال: لا، قال جعفر: فأخبرني لم جعل الله الملوحة في العينين، والمرارة في الأذنين، والماء في المنخرين، والعذوبة في الشفتين، لأي شيء جعل الله ذلك؟

قال: لا أدري، قال جعفر: إن الله تعالى خلق العينين فجعلهما شحمتين، وخلق الملوحة فيهما مناً منه على ابن آدم، ولولا ذلك لذابتا فذهبتا، وجعل المرارة في الأذنين مناً منه عليه، ولولا ذلك لهجمت الدواب فأكلت دماغه، وجعل الماء في المنخرين ليصعد منه النفس وينزل، ويجد منه الريح الطيبة من الريح الرديئة، وجعل العذوبة في الشفتين ليجد ابن آدم لذة الطعام والمشرب.

ثم قال لأبي حنيفة: أخبرني عن كلمة أولها شرك، وآخرها إيمان؟ قال: لا أدري، قال جعفر: هي كلمة لا إله إلا الله، فلو قال: لا إله، ثم سكت كان شركاً، ثم قال: ويحك، أيما أعظم عند الله إثماً: قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو الزنا؟ قال: بل قتل النفس، قال جعفر: إن الله تعالى قد قبل في قتل النفس شهادة شاهدين، ولم يقبل في الزنا إلا شهادة أربعة، فأني يقوم لك القياس؟ ثم قال: أيما أعظم عند الله الصوم أو الصلاة؟ قال: الصلاة، قال: فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ اتق الله يا عبد الله، ولا تقس الدين برأيك، فإننا نقف غداً ومن خالفنا بين يدي الله، فنقول: قال الله، وقال رسول الله، وتقول أنت وأصحابك: سمعنا، ورأينا، فيفعل الله بنا وبكم ما يشاء. والجواب في أن الزنا لا يقبل فيه إلا أربعة طلباً للستر، وفي أن الحائض لا تقضي الصلاة دفعا للمشقة، لأن الصلاة متكررة في اليوم واليلة خمس مرات، بخلاف الصوم، فإنه في السنة مرة والله أعلم^١.

١٠ - حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين ديميري، ج ٢، ص ١٤٢.

لقد سلك الإمام في هذا اللقاء مسلكين؛ الأول: هو "العلم الكوني والفسولوجي ليثبت أن الذي خلق الإنسان هو أدرى بما يصلحه في الدين، فسأل أبا حنيفة عن أسرار في جسده (الملوحة في العينين، المرارة في الأذنين، والماء في المنخرين، والعذوبة في الشفتين). وعندما عجز أبو حنيفة عن الإجابة، كشف له الإمام عن حقائق طبية ووقائية مذهلة تحفظ حياة الإنسان وحواسه، ومبيناً فضل الله ورحمته في هذا التكوين.

أما المسلك الثاني، فقد كان «التشريعي» الذي أثبت فيه الإمام تهافت «منطق القياس» أمام حكمة الله؛ فحين سألته عن المفاضلة بين قتل النفس والزنى، أجاب أبو حنيفة بظاهر عقله: إنَّ القتل أعظم إثماً، ولكن الإمام صدمه بحقيقة أن الله (عز وجل) جعل شهود الزنى أربعة بينما اكتفى في القتل بشاهدين، مما يثبت أن موازين الدين فوق موازين القياس البشري المحدود،

” إن هذا الكلام الذي يمثل قمة الإعجاز العلمي

والتشريعي، هو ما ينبغي أن يُدرس اليوم في الجامعات؛
ليعرف المسلمون حجم القيمة العلمية التي ضيعتها الأمة
بتركها الرجوع إلى المعصوم، فمنطق الإمام لا يرفض العقل،
بل يرفض "الافتاء بغير علم" وتحكيم الهوى والقياسات
البدائية في أحكام الله.

“

إن هذا المنهج الذي نراه اليوم، والذي يحاول إبعاد المسلمين عن جوهر دينهم عبر تحكيم "العقول البدائية القاصرة" في أمور الدين الواسعة، هو امتداد لمنهج قديم أثبت فشله أمام علم المعصوم. فلذا اليوم الشباب المسلم مطالب بالانتباه لخطورة تسليم الزمام للعقل

الاكتسابي النظري الذي يذهل ويخطئ وينسى، وتأسيس عقيدته على التسليم لدين الله. فالعقل إذا رتب مقدمات خاطئة، فستكون نتائجه حتمًا خاطئة مهما بدأ منطقيًا.

وتتجلى خطورة هذا «القصور العقلي» في الرواية التي جمعت أبا حنيفة بالإمام الصادق (عليه السلام) على مائدة طعام، والتي تقول: (ذكروا أن أبا حنيفة أكل طعامًا مع الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما الصلاة والسلام، فلما رفع الصادق (عليه السلام) يده من أكله قال:

الحمد لله رب العالمين، اللهم هذا منك، ومن رسولك ﷺ، فقال أبو حنيفة: يا أبا عبد الله، أجعلت مع الله شريكًا؟!

فقال (عليه السلام) له: ويلك، إن الله تبارك يقول في كتابه:

﴿مَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^{١١}، ويقول عز وجل في موضع آخر: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾^{١٢}، فقال أبو حنيفة: والله لكأنني ما قرأتها قط من كتاب الله ولا سمعتها إلا في هذا الوقت.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): بلى، قد قرأتها، وسمعتها، ولكن الله تعالى أنزل فيك وفي أشباهك: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^{١٣}، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^{١٤}(١٥).

١١- التوبة: ٧٤.

١٢- التوبة: ٥٧.

١٣- محمد: ٢٤.

١٤- المطففين: ١٤.

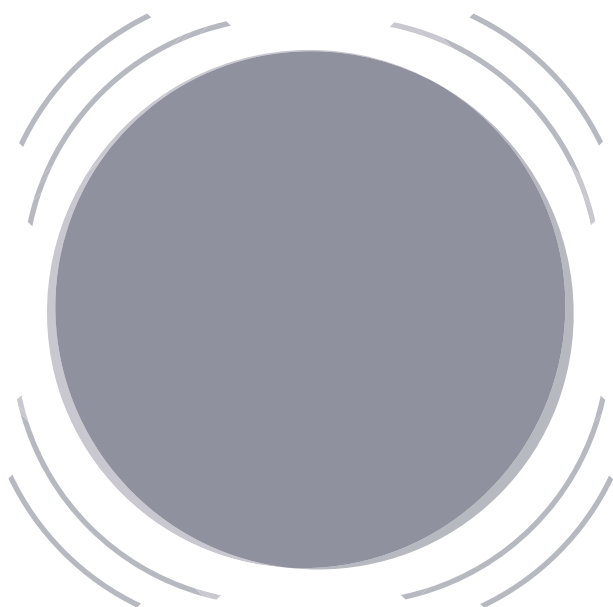
١٥- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٠ - ص ٢١٦.

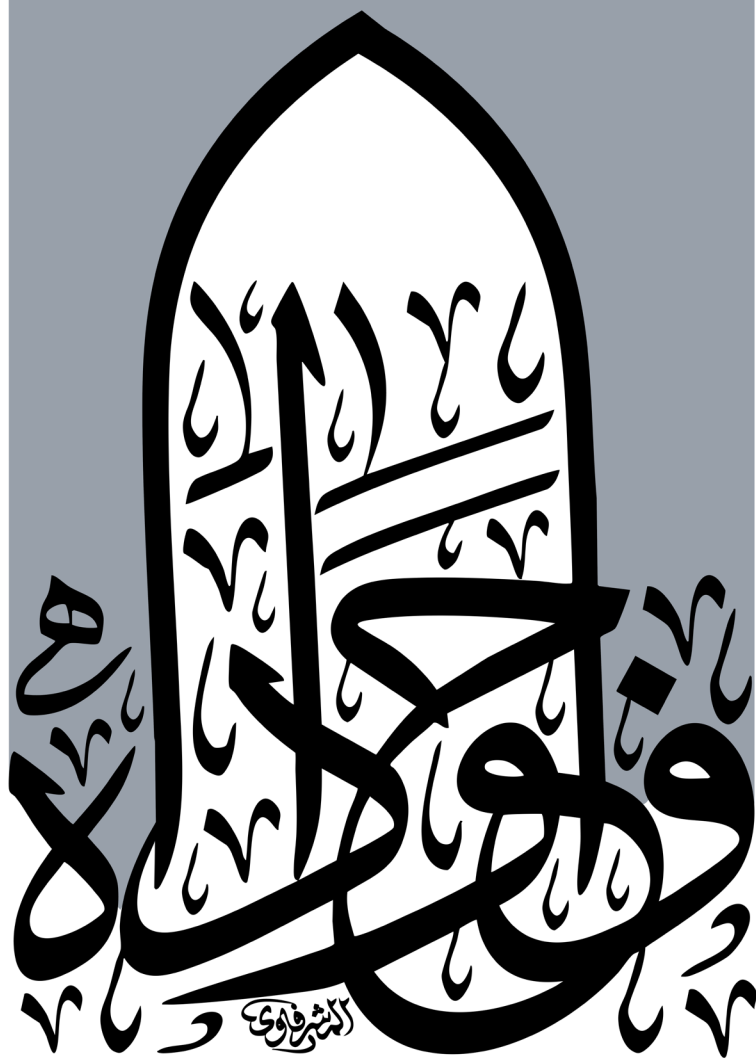
فبمجرد أن فرغ الإمام وحمد الله وأثنى على رسوله، اعترض أبو حنيفة بمنطقه الذي يرى في ذلك نوعاً من الشرك، ظناً منه أن نسبة الفضل للرسول تخدش التوحيد، وهو جهل بعمق القرآن الكريم، فجاء الرد المفحم من الإمام الصادق الذي ذكره بآيات لم يدرك أبو حنيفة أبعادها رغم كونه فقيه العراق، وكان وقع المفاجأة على أبي حنيفة كبيراً، حتى أقرّ بذهول قائلاً: "والله لكأنني ما قرأتها قط في كتاب الله، ولا سمعتها إلا في هذا الوقت"، وهو اعتراف يثبت أن الأمة لا غنى لها عن المعصوم المسدد من الله، فالعقل وحده قد يقرأ الآية ولا يفهم مرادها، وهنا عاجله الإمام بجواب يهز الضمائر:

وهنا يجب التفريق بدقة بين نوعين من العقل؛ فالعقل الذي حاربه الإمام ومنعه من التدخل في التشريع هو «العقل الاكتسابي النظري» القائم على الظنون والقياسات الشخصية، أما «العقل البديهي» (مثل: حسن العدل، وقبح الظلم)، فهو حجة ودليل رابع من أدلة الأحكام عند الإمامية، والشرع يؤيده ويقره. فالإشكال ليس في العقل كأداة، بل في «إقحام العقول الناقصة» في تفاصيل الشريعة التي لا تُدرك إلا بالوحي.

إنَّ المتأمل في مجموع هذه المواقف والمناظرات يخلص إلى أن الإمام الصادق (عليه السلام) قد رسم معالم النهضة الإسلامية الكبرى عبر منهجية ثلاثية الأبعاد؛ فقد كان المحور الأول لعمله منصباً على تثبيت ركائز الهوية الشيعية، وبناءً صرحها العلمي والفكري على أسس رصينة. وفي موازاة ذلك، حرص في المحور الثاني على ربط الأمة وجدانياً وعقائدياً بقضية سيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) لتظل القيم الأخلاقية والتضحية

مستمرة في ضمير الأمة. أما المحور الثالث فتمثل في وقوفه سدًا منيعًا لإبطال وتفنيد كل المناهج المنحرفة التي واجهت الإسلام، سواء كانت من الملاحدة الزنادقة، أو من الفقهاء الذين أقحموا عقولهم القاصرة وقياساتهم الظنية في التشريع، وحتى أولئك الذين انزلقوا في هاوية الغلو، مما جعل مدرسة الإمام الصادق هي الملاذ الآمن والحصن الحصين للدين القيم. نسأل الله تبارك وتعالى أن ينور عقولنا وقلوبنا بمعرفته ومعرفة أوليائه، ويرزقنا كمال الطاعة لهم والبراءة من أعدائهم، ببركة الصلاة على محمد وآله الطيبين الطاهرين.





الإمام محمد الجواد عليه السلام: المولود الأعظم بركة

حيدر محمد صالح

تُعد سيرة الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام انعطافاً جوهرياً في مسيرة الفكر الشيعي، فهو الإمام الذي جسّد برهاناً حياً على أن الإمامة عهد إلهي لا يحده زمن ولا يقيد عمر. وحين نقف عند الكلمة العظيمة التي أطلقها أبوه الإمام الرضا عليه السلام في حقّه حين وصفه بأنّه المولود الذي لم يولد مولود أعظم بركة منه على الشيعة: (هذا المولود الذي لم يولد مولود أعظم بركة على شيعتنا منه) ^١، فإننا نجد أن هذه البركة قد تجلّت في أبهى صورها من خلال تثبيت أركان العقيدة في مرحلة كانت تضج بالتشكيك، إذ إن ولادة الجواد عليه السلام جاءت لتخرس الألسن التي حاولت النيل من إمامة أبيه الرضا عليه السلام بدعوى عدم وجود خلف له، ثم جاءت إمامته المبكرة لتكون التمهيد الرباني لإمامة أحفاده الهادي والعسكري والحجة المنتظر عليه السلام.

إن المتأمل في هذه "البركة" يلاحظ أنها لم تكن مجرد كثرة في العطاء المادي، بل كانت حصانة لخط الإمامة، فبينما قضى أئمة آخرون كالصادق والكاظم عليه السلام عقوداً طويلة في نشر العلم، نجد أن الإمام الجواد عليه السلام رغم قصر عمره الشريف الذي لم يتجاوز خمسة وعشرين عاماً، قد استطاع في تلك الفترة الوجيزة أن يحقق نصراً عقائدياً حاسماً، حيث أثبت بوجوده وإمامته صدق دعوى آبائه جميعاً، وروي أنه جيء بأبي جعفر الجواد عليه السلام إلى مسجد رسول الله ﷺ بعد استشهاد أبيه عليه السلام وهو طفل، وجاء إلى المنبر ورقى منه درجة، ثم نطق فقال: "أنا محمد بن علي الرضا، أنا الجواد،

١ - الكافي للكليني: ج ١، ص ٣٢١.

أنا العالم بأنساب الناس في الاصلاب، أنا أعلم بسرائركم وظواهركم، وما أنتم صائرون اليه، علمٌ منحنا به من قبل خالق الخلق أجمعين، وبعد فناء السماوات والأرضين، ولولا تظاهر أهل الباطل، ودولة أهل الضلال، ووثوب أهل الشك، لقلت قولاً تعجب منه الأولون والآخرين. ثم وضع يده الشريفة على فيه، وقال: يا محمد اصمت كما صمت آباؤك من قبل".^٢

وبعيداً عن الجانب العقدي الصرف، فإن في تأخر ولادة الإمام الجواد عليه السلام درساً تربوياً واجتماعياً بليغاً لكل المؤمنين، فقد بلغ الإمام الرضا عليه السلام من العمر قرابة سبعة وأربعين عاماً ولم يُرزق بمولود، وفي هذا رسالة مباشرة لكل إنسان يعاني من تأخر الإنجاب بأن لا يجعل من هذا الأمر سبباً لتعكير صفو حياته الزوجية، أو مبرراً لتبادل الاتهامات بين الزوجين. إن الضغوط الاجتماعية التي قد يمارسها الآباء أو المجتمع على الزوجين في هذا الشأن هي ممارسات غير مستحسنة وتتنافى مع التسليم لأمر الله، فإذا كان الإمام المعصوم وهو المقرب من الله ومن بيده خزائن الرحمة قد تأخر إنجاب، فإن ذلك يعلمنا أن التوقيت بيد الخالق وحده، فهو الذي يهب لمن يشاء إنثاً ويهب لمن يشاء الذكور، أو يجعل من يشاء عقيماً، فلا ينبغي للإنسان أن يهدم استقرار حياته من أجل أمر يقع ضمن التقدير الإلهي المحكم.

ولا تقتصر العبرة في قصة تأخر إنجاب الإمام الرضا عليه السلام على الجانب الاجتماعي فحسب، بل تمتد لترسم ملامح العقيدة المتوازنة في فقه العبودية؛ فالإمام بالرغم من مقامه السامي وتصرفه في شؤون الكيان بإذن الله، يظل العبد الخاضع للإرادة الإلهية، يسير وفق المحكم من تقدير الله وتوقيته. إن بقاء الإمام لسنوات دون إنجاب لم يكن إلا تدبيراً ربانياً ومقاماً من مقامات الصبر والتسليم، وهو برهان ساطع على أن الأئمة عليهم السلام

٢- مستدرک عوالم العلوم: ٢٣ / ١٥٩.

عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ينتظرون أمر الله ليتجلى في وقته المعلوم لحكمة قد تحفى على العامة وتظهر آثارها في تثبيت أركان الدين لاحقاً، وتجلى ذلك فيما ذكر في الزيارة الجامعة الكبيرة: «فَعَظَّمْتُمْ جَلَالَهُ، وَأَكْبَرْتُمْ شَأْنَهُ، وَجَدَّيْتُمْ كَرَمَهُ، وَأَدَمَّيْتُمْ ذِكْرَهُ، وَوَكَّدْتُمْ مِيثَاقَهُ، وَأَحْكَمْتُمْ عَقْدَ طَاعَتِهِ، وَنَصَحْتُمْ لَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَدَعَوْتُمْ إِلَى سَبِيلِهِ (بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)، وَبَدَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي مَرْضَاتِهِ، وَصَبَرْتُمْ عَلَى مَا أَصَابَكُمْ فِي جَنْبِهِ، وَأَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ، وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ، وَأَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَجَاهَدْتُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَعْلَنْتُمْ دَعْوَتَهُ، وَبَيَّنْتُمْ فَرَائِضَهُ، وَأَقَمْتُمْ حُدُودَهُ، وَنَشَرْتُمْ شَرَائِعَ أَحْكَامِهِ، وَسَنَنْتُمْ سُنَّتَهُ، وَصَرَّيْتُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ إِلَى الرِّضَا، وَسَلَّمْتُمْ لَهُ الْقَضَاءَ، وَصَدَّقْتُمْ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ مَضَى»^٣.

” وهذا الدرس العقدي هو ذاته العلاج لكل المشاكل والنزاعات الزوجية؛ فالإنسان المؤمن يقتدي بإمامه في الصبر والرضا، فلا يجعل من تأخر الذرية سبباً لتعكير صفو حياته، بل يعلم أن الأمور مرهونة بأوقاتها عند الله. ومن الناحية التاريخية، فقد كان هذا التأخر في الإنجاب بمثابة محطة لاختبار قوة اليقين في نفوس الأتباع، حيث بدأت بعض الأصوات المشككة تتساءل عن مصير الإمامة وكيف ستستمر، مستغلين تأخر ولادة الخلف للإمام الرضا عليه السلام لإثارة الحيرة في القلوب.

لقد واجه الإمام الرضا عليه السلام تلك التساؤلات والحيرة بيقين المتصل بالوحي، فكان يطمئن القلوب القلقة بأن الله لا يترك حجته بلا عقب، وأن الحكمة الإلهية ستجلى في الوقت المناسب. فكان يؤكد لمن يسأله بلسان الواثق بعهد الله: «وَاللَّهِ، لَا تَمْضِي الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي حَتَّى يَرْزُقَنِي اللَّهُ وَلَدًا

٣- عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢ / ٣٠٦.

ذَكَرًا»، حيث قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ (الشورى: ٤٩).

وبالفعل، تجلّت إرادة الله بولادة الإمام محمد الجواد (عليه السلام) في الوقت الذي أَرَادَهُ اللهُ، لتكون ولادته ردًا إلهيًا حاسمًا يقطع الشك باليقين، ويثبت قلوب المؤمنين الذين انتظروا بزوغ هذا الفجر. فكان الجواد (عليه السلام) هو "المولود المبارك" الذي لم تكن بركته مجرد امتداد نسلي، بل كانت طمأنينة سكنت النفوس، ونورًا بدد ظلمات الحيرة التي أحاطت بالمؤمنين آنذاك، وهذا ما دلته الروايات الواردة في عيون المعجزات: (عن عبد الرحمن بن محمد، عن كليم بن عمران قال: قلت للرضا (عليه السلام): ادع الله أن يرزقك ولدًا، فقال: إنها أرزق ولدًا واحدًا وهو يرثني، فلما ولد أبو جعفر (عليه السلام) قال الرضا (عليه السلام) لأصحابه: قد ولدي شبيه موسى بن عمران، فالق البحار، وشبيه عيسى بن مريم قدست أم ولدته، قد خلقت طاهرة مطهرة، ثم قال الرضا (عليه السلام): يقتل غضبًا، فيبكي له وعليه أهل السماء، ويغضب الله تعالى على عدوه وظالمه، فلا يلبث إلا يسيرًا حتى يعجل الله به إلى عذابه الأليم، وعقابه الشديد، وكان طول ليلته يناغيه في مهده) °.

وبمجرد انبلاج فجر ولادة الإمام الجواد (عليه السلام)، تلاشت تلك الفقاعة التي نفخ فيها المشككون طويلاً؛ فكانت ولادته بمثابة البرهان الحسي الذي بدد أوهام من زعموا انقطاع الإمامة، حيث أثبتت للجميع أن الإمام الرضا (عليه السلام) لم يكن عقيماً، وبذلك سقطت كل الحجج التي بُنيت على ذلك الزعم، وتراجعت تلك التيارات المشككة وانحسرت أمام هذه الحقيقة الساطعة. إن هذه "البركة" لم تكن مجرد حدث عائلي، بل كانت نصراً عقائدياً ثبت إمامة الأب (الرضا) من جهة، ومهد لإمامة الأبناء من جهة أخرى.

٤- الكافي: ١/ ٣٢٠.

٥- بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٥٠ / ١٥.

لقد كانت إمامة الإمام الجواد عليه السلام هي التجربة الأولى من نوعها في تاريخ التشيع التي يتولى فيها إمامٌ منصبه وهو في سن الثامنة، وهو أمرٌ خرج عن المألوف الذي اعتاد عليه الناس، حيث كانت الإمامة تأتي لمن هم في أعمار متقدمة. ومن هنا، كان من الطبيعي أن يواجه المجتمع حالة من الاستغراب؛ فإذا كان الناس يستصعبون أحياناً اتّهامهم في الصلاة بطفل صغير، فكيف بقبول "الإمامة العظمى" لمن هو في هذا السن؟

لكن الإمام الجواد عليه السلام حسم هذا الملف تاريخياً وعقائدياً؛ فمن الناحية النظرية، أوضح أن الإمامة مقامٌ إلهي لا يخضع لمقاييس العمر البشرية، تماماً كما جرى في النبوة. فإذا كان الله قد جعل عيسى بن مريم نبياً وهو في المهد صبياً، وآتى سليمان عليه السلام الملك والنبوة وهو في مقتبل العمر، فإن مرتبة الإمامة ليست بدعاً من هذا القانون الإلهي.

حيث قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^٦.

أما من الناحية العملية، فقد كان رد الإمام الجواد عليه السلام على هذا التشكيك هو "العلم والمواجهة"؛ فلم يُعرض عليه سؤالٌ معجز أو مسألة فقهية إلا وأجاب عنها بفيض لدنيّ أذهل كبار العلماء والقضاة في عصره. لقد كان حضوره العلمي هو التحدي الأكبر الذي أثبت أن العقل الكامل والعلم المحيط لا يرتبطان بعدد السنين، بل بفيض رب العالمين وفي مناظرته مع يحيى ابن اكثم^٧ والتي نورد جزءاً منها أن «المأمون قال -قاصداً التقليل من شأن الامام؛ كونه صغير السن- : يا يحيى سل أبا جعفر عن مسألة في الفقه لننظر كيف فقهه ، فقال يحيى : يا أبا جعفر أصلحك الله ما تقول في

٦- مريم: ٢٩-٣٠.

٧- هو من قضاة العامة ومحبوب المأمون لم يقدم عليه أحدا.

محرم قتل صيداً؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: قتله في حل أو حرم؟ عالماً "كان أو جاهلاً"؟ عمدًا أو خطأ؟ عبدًا أو حرًا؟ صغيرًا أو كبيرًا؟ مبدئًا أو معيدًا؟ من ذوات الطير أو من غيرها؟ من صغار الصيد أو من كبارها؟ مصرًا أو عليها أو نادماً؟ بالليل في وكرها «أو بالنهار عيانًا»؟ محرماً «للعمره أو للحج»؟ قال: فانقطع يحيى بن أكثم انقطاعاً «لم يخف على أهل المجلس وتحير الناس تعجباً» من جوابه ^٨.

”وبذلك، أغلق الإمام الجواد عليه السلام باب التساؤل حول
 "صغر سن الإمام" إلى الأبد؛ فبسببه لم يُطرح هذا السؤال في
 زمان ابنه الإمام الهادي عليه السلام، ولا في زمان الإمام الحجة عليه السلام، لأن
 التجربة الجوادية كانت قد أرست القاعدة المتينة التي مفادها:
 أن الله إذا اختار عبداً لمقام الإمامة، أنه العلم والحكمة بغض
 النظر عن سني عمره.“

إن المتأمل في طبيعة العلاقة التي ربطت الإمام الجواد عليه السلام بالطاغية
 المأمون العباسي يدرك أنها لم تكن صراعاً عسكرياً مكشوفاً فحسب، بل
 كانت حرباً "ناعمة" وصراع إرادات خفياً خاضه الإمام ضد رجل يعد
 من أخطر حكام بني العباس دهاءً وحقداً. لقد حاول المأمون، الذي
 تلطخت يده بدم الإمام الرضا عليه السلام غدرًا بالسّم، أن يغلف عداؤه التاريخي
 لأهل البيت عليهم السلام بستار من التقدير المصطنع والمصاهرة الصورية، متهجاً
 استراتيجية "الاحتواء المسموم" بدلاً من المواجهة المباشرة التي أثبتت
 فشلها مع أسلافه. ومن هنا أراد المأمون من خلال تزويج ابنته "أم الفضل"
 للإمام الجواد أن يحقق غاية خبيثة، وهي محاولة تدجين مقام الإمامة وصبغه
 بصبغة البلاط العباسي، ليظهر الإمام أمام عامة الناس وكأنه قد ركن إلى
 الذين ظلموا وصار جزءاً من حاشية السلطة التي فتكت بآبائه.

٨- الاختصاص للشيخ المفيد: ٩٩.

ولم يكن دفع المأمون بابتته إلى بيت الإمام إلا سعيًا لزرع "جاسوسة" مقيمة ترصد أنفاس الإمام وتراقب زواره، في محاولة لفرض حصار أمني خانق بغطاء عائلي يهدف إلى عزل الإمام عن قاعدته الشعبية المخلصة إلا أن الإمام الجواد عليه السلام واجه هذا المكر السياسي بوعي إلهي وحذر بالغين؛ فقبل هذا الزواج اضطرارًا لدرء مفاسد أعظم وحفظًا لما تبقى من دماء الشيعة، لكنه أظهر للعالم أجمع بطلان زعم المأمون ومسرحيته الهزيلة من خلال تمسكه بزهده المطلق، وترفعه عن موائد السلطة الجائرة.

لقد ظل الإمام غريبًا في قلب القصر العباسي، محافظًا على نقاء رسالته، مؤكدًا بفعله وزهده أن دماء أبيه الرضا عليه السلام التي سفكها المأمون لا تُنسى بالمصاهرة، وأن الحق لا يصفاح اليد التي غدرت بإمام زمانها. وعن الريان بن شبيب قال: "لما أراد المأمون أن يزوج ابنته أم الفضل أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام، بلغ ذلك العباسيين، فغلظ عليهم ذلك، واستنكروا منه، وخافوا أن ينتهي الأمر معه إلى ما انتهى مع الرضا عليه السلام، فخاضوا في ذلك، واجتمع منهم أهل بيته الأدنون منه، فقالوا: نشدك الله يا أمير المؤمنين أن تقيم على هذا الأمر الذي عزمته عليه من تزويج ابن الرضا، فإننا نخاف أن يخرج به عنا أمر قد ملكناه الله، ويتنزع منا عزاً قد ألبسناه الله، وقد عرفت ما بيننا وبين هؤلاء القوم قديماً وحديثاً، وما كان عليه الخلفاء الراشدون قبلك من تبعيدهم والتصغير بهم، وقد كنا في وهلة من عملك مع الرضا ما عملت، وكفانا الله المهم من ذلك، فالله الله أن تردنا إلى غمٍّ قد انحسر عنا، واصرف رأيك عن ابن الرضا واعدل إلى من تراه من أهل بيتك يصلح لذلك دون غيره.

فقال لهم المأمون: أمّا ما بينكم وبين آل أبي طالب فأنتم السبب فيه، ولو

أنصفتهم القوم لكان أولى بكم، وأمّا ما كان يفعله من قبلي بهم ، فقد كان به قاطعاً للرحم ، وأعوذ بالله من ذلك، ووالله ما ندمت على ما كان منّي من استخلاف الرضا ، ولقد سألته أن يقوم بالأمر وأنزعه من نفسي فأبى ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً. وأمّا أبو جعفر محمّد بن عليّ، فقد اخترته لتبريزه على كافّة أهل العلم والفضل ، مع صغر سنه والاعجوبة فيه بذلك وأنا أرجو أن يظهر للناس ما قد عرفته منه ، فيعلموا أن الرأي ما رأيته. فقالوا : إن هذا الفتى وإن راقك منه هديه فإنه صبي لا معرفة له ولا فقه ، فأملهه ليتادب ثم اصنع ما تراه بعد ذلك .

فقال لهم : ويحكم إنّي أعرف بهذا الفتى منكم ، وإنّ هذا من أهل بيت علمهم من الله تعالى ومواده وإلهامه ، لم يزل آباؤه أغنياء في علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة عن حدّ الكمال، فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يتبيّن لكم به ما وصفت لكم من حاله .

قالوا: لقد رضينا لك يا أمير المؤمنين ولأنفسنا بامتحانه، فخلّ بيننا وبينه لننصب من يسأله بحضرتك عن شيء من فقه الشريعة ، فإن أصاب في الجواب عنه لم يكن لنا اعتراض في حقّه ، وظهر للخاصّة والعامة سديد رأي أمير المؤمنين فيه، وإن عجز عن ذلك فقد كفينا الخطب في معناه. فقال لهم المأمون : شأنكم وذلك متى أردتم^٩.

لتأتي بعد ذلك مناظرته مع يحيى ابن أكثم والتي أوردناها في موارد سابقة، وحين حاول المأمون استغلال صغر سن الإمام لترتيب مناظرات تهدف إلى الخط من شأن الجواد عليه السلام وإظهار عجزه أمام فقهاء البلاط

٩- الاحتجاج للطبرسي : ٢ / ٢٤٠.

المأجورين، انقلب كيد هذا الحاكم عليه؛ إذ تحولت تلك المحافل إلى محاكمات علنية فضحت جهل علماء السلطة وأثبتت التفوق اللدني للإمام الشاب. وبدلاً من أن يسقط المأمون هيبة الإمام، ساهم في إثبات أن علمه هو نور الله الذي لا يطفئه مكر الجبابرة.

” وفي ذروة هذا التدافع، تجلت الإرادة الإلهية بقطع دابر المأمون من نسل الإمام، فلم يولد له من ابنته أي عقب، ليبقى النسل الطاهر بعيداً عن كيد الظالمين. لقد خرج الإمام الجواد من بغداد ومن تلك الزيجة ثابتاً على نهج آبائه، كاشفاً زيف ادعاءات المأمون الذي حاول تمثيل دور المحب لأهل البيت، بينما كان يضمهم للحقد والقتل، ليثبت التاريخ أن مكر الطغاة يتبدد أمام يحى هذا العصر الذي أوتي الحكم صبيّاً. “

لم تكن الحرب التي خاضها الإمام الجواد عليه السلام ضد الطاغية المأمون ومن بعده المعتصم سياسية فحسب، بل كانت حرباً فكرية شعواء استهدفت هوية التشيع في صميمها. ففي الوقت الذي كان المأمون يغدق الأموال على المترجمين والفقهاء الموالين للسلطة لإنتاج فكر هجين يخدم أركان عرشه، ويشجع التيارات الفلسفية والكلامية التي تثير الشكوك حول المعتقدات الحققة، كان الإمام الجواد عليه السلام يشيد حصوناً معرفية من نوع آخر. لقد أدرك الإمام بوعيه الإلهي أن القتل الجسدي للأئمة لا ينهي رسالتهم، بل إن الخطر الحقيقي يكمن في "تميع" العقيدة واختراقها من الداخل، لذا ركز جهده على بناء نخبة من الفقهاء الواعين والوكلاء الثقات الذين لا يتأثرون بإغراءات البلاط العباسي ولا بتهديداته.

” لقد أسس الإمام الجواد عليه السلام مدرسة فكرية تميزت بالعمق والارتباط المباشر بمنابع الوحي، وكان يحث أصحابه على تدوين الحديث وتبويبه، مؤكداً أن العلم هو السلاح الوحيد لمواجهة حملات التضليل المنهجية التي كانت تقودها السلطة العباسية وأبواقها الفكرية. ولم يكن الإمام يكتفي بإعطاء الأجوبة الجاهزة، بل كان يزرع في أصحابه "منظومة الحماية المعرفية" وقواعد التمييز بين الحق والباطل، ليكونوا مرجعية واعية للأمة في غيابه. ٦٦

وفي هذا السياق، وضع الإمام الجواد عليه السلام قاعدة ذهنية لضبط مصادر التلقي، محذراً من الاستسلام الفكري للتيارات المشبوهة التي كانت السلطة تدعمها، حيث قال:

(مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ عَبَدَ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ)¹.

بهذا التحذير الصارم، حوّل الإمام "الاستماع" إلى "عبادة"، منبهاً أصحابه إلى خطورة ما يثبت في مجالس السلطة وفلاسفتها، وداعياً إياهم لتمحيص الأفكار قبل اعتناقها. وبفضل هذه البصيرة، استطاع الإمام أن يُحرّج ثلة من العلماء الذين وقفوا كالطود الأشم أمام متكلمي السلطة، كعمر بن فرات، وعلي بن مهزيار، وغيرهم ممن حملوا أمانة العلم في أصعب الظروف الأمنية، محولين بيوتهم إلى قلاع لنشر فكر أهل البيت عليهم السلام، بعيداً عن أعين الرقابة العباسية الخبيثة، ومطبقين عملياً منهج الإمام في العبودية الخالصة لله من خلال الإصغاء لنطقه الحق وحده.

١٠- الكافي: ٦/ ٤٣٤.

لقد كانت بركة الإمام الجواد عليه السلام في هذا الجانب تتجلى في "الاستمرارية"؛ حيث وضع القواعد التي مكنت الفكر الشيعي من الصمود أمام موجات التشكيك المنهجية التي كان يغذيها المأمون بهدف الحط من شأن الإمامة. وحين كان فقهاء السلطة يحاولون إحراج الإمام بمسائل معقدة في الفقه أو التوحيد، كان الإمام يحول تلك التحديات إلى دروس تربوية وعقائدية تنسف الأسس التي بنيت عليها شرعية بني العباس الزائفة. وبذلك، لم تكن مدرسة الجواد مجرد حلقة للدرس، بل كانت تنظيمًا عقائديًا متكاملًا أعدّ الأمة نفسيًا ومعرفيًا لعصور قادمة من المحن، غارسًا في نفوس أتباعه أن العلم الحقيقي هو الذي يقترن بالعمل والولاء الصادق، وليس الذي يباع ويشترى في دهاeliz القصور المظلمة.

ومصادق ذلك: ما ورد في الرواية التاريخية التي تنقل حال النخبة من فقهاء الشيعة في تلك المرحلة الحرجة:

«وكان وقت الموسم، فاجتمع من فقهاء بغداد والأمصار وعلماهم ثمانون رجلاً، فخرجوا إلى الحج وقصدوا المدينة ليشاهدوا أبا جعفر عليه السلام، فلما وافوا أتوا دار جعفر الصادق عليه السلام لأنها كانت فارغة، ودخلوها وجلسوا على بساط كبير، وخرج إليهم عبد الله بن موسى، فجلس في صدر المجلس، وقام مناد وقال: هذا ابن رسول الله، فمن أراد السؤال فليسأله. فسئل عن أشياء أجاب عنها بغير الواجب، فورد على الشيعة ما حيرهم وغمهم، واضطربت الفقهاء، وقاموا وهموا بالانصراف، وقالوا في أنفسهم: لو كان أبو جعفر عليه السلام يكمل لجواب المسائل لما كان من عبد الله ما كان، ومن الجواب بغير الواجب»^{١١}.

١١- بحار الأنوار: ٥٠ / ١٠٠.

استكمالاً للبحث، نصل إلى أحد أخطر المحاور في حياة الإمام الجواد عليه السلام، وهو بناء "المنظومة المؤسساتية" للشيعة. فعلى الرغم من الحصار الذي فرضه المأمون والمعتصم، استطاع الإمام الجواد أن يدير شؤون أتباعه عبر شبكة معقدة ودقيقة من الوكلاء. لم تكن هذه الشبكة لمجرد جمع الأموال، بل كانت "قناة اتصال" عقائدية وسياسية تضمن بقاء الشيعة ككيان واحد متصل برأسه القيادي.

لقد اعتمد الإمام في هذا النظام على السرية المطلقة والاحترافية في اختيار الرجال، مثل «علي بن مهزيار الأهوازي»^{١٢}، و«صفوان بن يحيى»^{١٣}، فكان هؤلاء يمثلون الإمام في مختلف الأقاليم (من خراسان شرقاً إلى مصر وغرب أفريقيا). هذا النظام هو الذي أحبط محاولات السلطة العباسية لقطع صلة الجماهير بإمامهم، فكان الإمام حاضراً في كل مدينة من خلال وكيله، يحل المشكلات، ويفتي في النوازل، ويوحد الموقف السياسي تجاه السلطة الجائرة.

وفي رسالة الامام عليه السلام الى علي بن مهزيار جاء فيها: (بعد البسملة، يا علي: أحسن الله جزاك، وأسكنك جنته، ومنعك من الخزي في الدنيا والآخرة، وحشرك الله معنا، يا علي: قد بلوتك وخبرتكَ في النصيحة والطاعة والخدمة والتوقير والقيام بما يجب عليك، فلو قلت: إني لم أر مثلك لرجوت أن أكون صادقاً، فجزاك الله جنات الفردوس نزلاً، وما خفي عليّ متاعك ولا

١٢ - علي بن مهزيار الأهوازي أبو الحسن دورقي الأصل من عيون العلماء و من كبار الفقهاء، روى عن الامام الرضا عليه السلام والامام أبي جعفر الجواد عليه السلام واختص به وتوكل له، وكذلك اختص وتوكل للامام الهادي عليه السلام، وكان من المتقين العباد. ينظر في حياة الامام الرضا: ١٥١ / ٢.

١٣ - صفوان بن يحيى البجلي الكوفي، من رواة الحديث في القرن الثاني الهجري، ومن أصحاب الإجماع، ومن أصحاب الإمام الكاظم، والإمام الرضا، والإمام الجواد عليه السلام، والموثوقين لديهم، توفي سنة ٢١٠ هـ في المدينة المنورة. ينظر: معجم رجال الحديث، ج ١٠، ص ١٣٧.

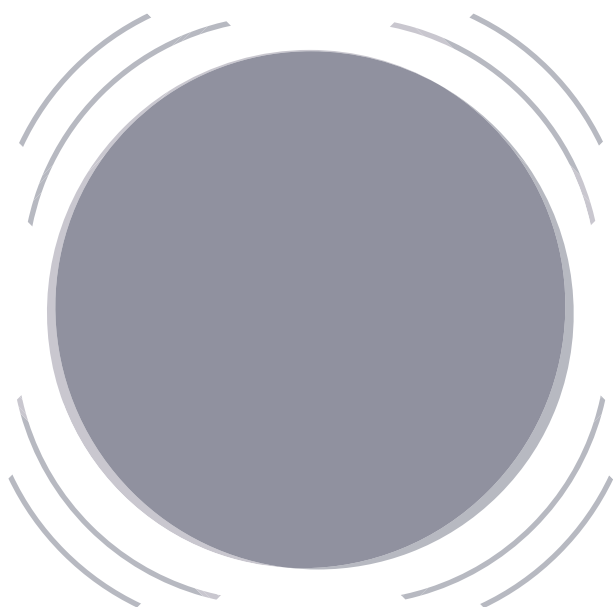
خدمتك في الحر و البرد و الليل و النهار، فأسأل الله إذا جمع الخلائق للقيامة أن يحبوك برحمة تغتبط بها، إنه سميع الدعاء) ١٤.

” إن نجاح الإمام في إدارة هذا النظام وهو في سن الشباب، وبوجوده في قلب العاصمة بغداد تحت مراقبة العباسيين، يعد إعجازاً إدارياً وسياسياً. فقد أثبت أن الإمامة ليست مجرد مقام روحي، بل هي قيادة ميدانية قادرة على اختراق أجهزة السلطة وحماية القاعدة الشعبية من التشتت. وبذلك، وضع الإمام الجواد اللبنة الأساسية لما عُرف لاحقاً بـ "نظام السفراء"، ممهداً الطريق للأمة لتتعد على نمط القيادة غير المباشرة، وهو التمهيد الأكبر لغيبة حفيده المهدي عليه السلام.

“

إن ختام هذه السيرة المباركة لم يكن أقل إعجازاً من بدايتها؛ فاستشهاد الإمام الجواد عليه السلام وهو في سن الخامسة والعشرين لم يكن إلا اعترافاً صريحاً من السلطة العباسية بالعجز التام عن احتوائه، أو كسر شوكته العلمية والروحية. لقد أدرك المعتصم العباسي، الذي ورث الحقد والكرسي من أخيه المأمون، أن وجود هذا الإمام الشاب في بغداد يمثل تهديداً وجودياً لشرعية بني العباس، خصوصاً بعد أن فشلت كل محاولات التشويه والمصاهرة في تدجينه. فكان القرار الخبيث بإنهاء حياته مسموماً عن طريق زوجته "أم الفضل"، التي أغرتها السلطة بالمال والجاه لتغتال من كان بركة الوجود في زمانه.

لقد رحل الإمام الجواد مظلوماً محتسباً، تاركاً خلفه أمةً تعلقت به في سنوات قصيرة، ومنظومةً فكريةً وتنظيميةً لا تزال تمد الشيعة بالبصيرة حتى يومنا هذا. إن شهادته في هذا السن المبكر هي الصرخة المدوية التي فضحت مكر المأمون وغلّ المعتصم، وأثبتت أن الحق لا يُقاس بالعمر، وأن النور الذي يقذفه الله في قلب عباده لا يُطفئه سمُّ الغادرين ولا مكر الطغاة. وبذلك خُتمت سيرة "المولود الأعظم بركة" لتبدأ رحلة جديدة مع ابنه الإمام الهادي، حاملةً معها ذات المنهج وذات اليقين.



مَدَن

آلشرفوی

التعبير اللغوي في حكم الإمام علي
الهادي عليه السلام (ت ٢٥٤ هـ) قراءة تحليلية لقوله:
(رَاكِبِ الْحَرُونَ أَسِيرَ نَفْسِهِ، وَالْجَاهِلِ أَسِيرُ
لِسَانِهِ).

أ.م.د. حسام عدنان الياسري
م.م. حلا غازي مهدي

من الأبحاث المشاركة في أسبوع الامامة الدولي الثاني

المقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْخَلْقِ، بَاسِطِ الرِّزْقِ، فَالِقِ الْإِصْبَاحِ، ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ،
وَالْفَضْلِ وَالْإِنْعَامِ، الَّذِي بَعْدَ فَلَا يُرَى، وَقَرَبَ فَشَهِدَ النَّجْوَى، تَبَارَكَ
وَتَعَالَى. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مُنَازَعٌ يُعَادِلُهُ، وَلَا شَيْءٌ يُشَاكِلُهُ، وَلَا ظَهِيرٌ
يُعَاضِدُهُ، فَهَرَبَ عِزَّتِهِ الْأَعَزَّاءُ، وَتَوَاضَعَ لِعَظَمَتِهِ الْعُظَمَاءُ، فَبَلَغَ بِقُدْرَتِهِ مَا يَشَاءُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، وَأَمِينِكَ وَصَفِيِّكَ، وَحَبِيبِكَ
وَخَيْرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ، وَحَافِظِ سِرِّكَ وَمُبَلِّغِ رِسَالَاتِكَ، أَفْضَلَ وَأَحْسَنَ
وَأَجْمَلَ وَأَكْمَلَ وَأَزْكَى وَأَنَمَى وَأَطْيَبَ وَأَطْهَرَ وَأَسْنَى وَأَكْثَرَ مَا صَلَّيْتَ
وَبَارَكْتَ وَتَرَحَّمْتَ وَتَحَنَّنْتَ وَسَلَّمْتَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ عِبَادِكَ وَأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ
وَصَفْوَتِكَ وَأَهْلِ الْكِرَامَةِ عَلَيْكَ مِنْ خَلْقِكَ.

اللهم وصل على آله المعصومين الميامين أئمة الهدى، وقادة الثقى.

يسعى هذا البحث إلى قراءة مدونة الإمام الهادي (عليه السلام) اللغوية من خلال انتخاب بعض حكمه ومقولاته، التي أنتجها لسانه الفصيح ومنطقه البليغ، الذي ورثه عن القرآن الكريم وعن جده المصطفى الأحمد وأبيه علي الأجد.

ومنطلق الفكرة لهذا البحث أنهم (عليهم السلام) (أهل الفصاحة، والبلاغة، والبيان، وعليهم تهدلت غصونها، وفيهم تنشبت فروعها)، فلا مشاحة في القول من بعد أن لغتهم الأفصح، وسليقتهم في الخطاب الأنجع والأنجح، إذ ليس في لسانهم عجمة، ولا في فصاحتهم من لحن يخرجهم عن دائرة البلاغة، ويبعدهم عن مقاعد البيان والاعجاز اللغوي، فلسانهم (نسيج وحده) وأسلوبهم في التعبير فريد عصره، يُتخذى بهم منطقاً ولغة، وإن تباعد بهم عصر الاحتجاج على حد اللغويين، أو تناهى وتناءى بهم مكان الانجاز وفقاً لمعايير أهل العربية فهم مُكتةٌ، وهي لديهم طيّعة مطيعة، تجري على ألسنتهم جريان الماء القراح، لأنها من سَمَتِهِمْ وَسَمَتِهِمْ، وهم بها أُمْلِكُ، وهي بهم أَلْيَقُ.

وكانت المحاولة البحثية هذه منطلقة من الفكرة أعلاه في قراءة تحليلية لقولته في حكمة له نصها: (رَاكِبِ الْحُرُونِ أَسِيرَ نَفْسِهِ، وَأُجَاهِلِ أَسِيرَ لِسَانِهِ)¹.

إذ تم تحليلها وفقاً لمناهج التحليل اللغوي، وبيان مزاياه التعبيرية الصوتية، والمورفولوجية، والبنوية التركيبية، والمعجمية بلحاظ السياق، وقضايا الربط، والتأليف النصي، بغية استكناه أهم خصال التعبير اللغوي للإمام (عليه السلام)، ومقاربة ذلك بالأصول والقواعد التي اجترحها اللغويون، لمعرفة مستوى الأحكام والإحكام في النص موضوع القراءة.

١ - بحار الانوار، الشيخ محمد المجلسي: ٣٦٩ / ٧٥.

ومن ثم الخروج بالتائج المتحصلة التي تكشف المزايا اللغوية، وتلاحظ الفروقات المعنوية والدلالية للتعبير عند الإمام الهادي عليه السلام.

وكان من الطبيعي اعتماد جمهور من المصادر والمراجع في هذه القراءة، بغية الوقوف على المقولات الواصفة والأصول التي تحكم العربية، بوصفها لغة معيارية، وإبلاغية بلاغية عالية المقام. والحمد لله أولاً وآخراً على ما تفضل به وأنعم.

الكلمات المفتاحية : (التعبير، اللغوي، الإمام، تحليل)

أولاً : مهاد في التعبير اللغوي وآليات الكشف الدلالي عند العرب.

التعبير اللغوي في اللغة والمفهوم

يتوجب علينا تعريف العناصر المكونة للتعبير اللغوي للوقوف على حقيقته، والمتمثلة في (التعبير ، واللغة).

فالتعبير لغةً : (عَبَّرَ)أصل صحيح ، يدل على النفوذ في الشيء والمضي، يقال عبر النهر، وعبرت النهر عبوراً، وناقاة (عبر) أسفار: أي سافر عليها، وعَبَّرْتُ عنه أي تكلمت عنه^٢، وقيل: "عَبَّرَ الرَّؤْيَا يَعْبُرُهَا عَبْرًا، وَعِبَارَةٌ وَعَبَّرَهَا: فَسَّرَهَا وأخبر بما يؤول إليه أمرها ... وعبر عن فلان : تكلَّم عَنْهُ؛ واللسان يُعَبَّرُ عما في الضمير ..."^٣.

٢- ينظر: مقاييس اللغة : لابن فارس (عبر) : ٤/ ٢٠٧ .

٣- لسان العرب : لابن منظور (عبر) : ٤/ ٢٢٩ - ٢٣٠ .

يُستخلص مما سبق أنَّ التعبير هو : قدرة الإنسان على إيصال الخلجات والأفكار المستقرة في أعماق النفس، ومن الطبيعي أنها تختلف من فرد إلى آخر، فهناك من يملك القدرة للتعبير عن أفكاره بنفسه، في حين يلجأ بعضهم إلى من يساعده للتعبير عن الأفكار التي تدور في ذهنه. أما التعبير اصطلاحاً: فهو مختص بتغيير الرؤيا، أو العبور من الظاهر إلى الباطن، ويقال: هو ملكة يفصح بها عن المقصود بلفظ واضح^٥.

يمكن القول: إن معنى التعبير هو ايضاح ما يدور في خاطر المتكلم من أفكار ومشاعرٍ بألفاظٍ متينةٍ ولغة واضحة .

ويرتبط معنى التعبير عند اللسانيين المحدثين بالشكل المادي؛ فهو الشكل اللغوي للكلام، كمنطوق (دال) يقابله المضمون (كمدلول) لغوي للكلام، فالمادة اللغوية والصوتية المكتوبة أو المحكية يتم فصلها سطح المضمون مع سطح التعبير^٦.

أما اللغة، فقد ذكر صاحب المقاييس أن الأصل في اشتقاقها من (لغى)، إذ يقول: "لغى بالأمر، إذا لهج به. ويقال: إن اشتقاق اللغة منه، أي يلهج صاحبها بها"^٧.

وقيل: إن الكلام الذي يلهج به فرقة فرقة لغة، واللغو كلام بشيء لم ترده^٨.

ومن أدق وأشهر تعاريفها أنها: «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، وهي «فعلة» من لغوت: أي تكلمت أصلها: لغوة، ككرة وقلة ووثبة، كلها لاماتها ووات والجمع: لغات...»^٩.

٤- ينظر: الكليات، لابي بقاء الكفوي: ٣١٢/١.

٥- ينظر: التعريفات، للجرجاني: ١٦٧.

٦- ينظر: اللغة والاسلوب: عدنان بن ذريل: ٨٤.

٧- مقاييس اللغة (لغى): ٢٥٦/٥.

٨- ينظر: التوقيف على مهات التعاريف، زين العابدين المناوي: ٢٩٠.

٩- المحكم والمحيط الاعظم، لابن سيده (لغى): ٦٢/٦، ولسان العرب، لابن منظور (لغى): ٢٥١/١٥، وتاج العروس، للزبيدي (لغو): ٤٦٢/٣٩.

ومن الصعوبة وضع تعريف موحد ومحدد للغة؛ لأنها نظام موروث يتشكل طبقاً لقوالب معينة، ويتخذ صفته في السياقات المختلفة تبعاً لاستعمالاته، التي تعمل ضمن هذا النظام الموروث.

آليات الكشف الدلالي عند اللغويين

الدلالة لغةً: تعني الإفهام والتوضيح بقرينة موجودة في الشيء، يقال: «دلتُ فلاناً على الطريق»، والدليل الأمانة في الشيء^{١٠}، ومن معانيها الهداية يقال: «أدلت الطريقَ: اهديت إليه»^{١١}. والدليل: «ما يستدل به، والدليل: الدالُّ»^{١٢}. فالدلالة لفظاً تعني الإبانة عن الشيء الغامض، والاهتداء إلى المعنى المراد.

الدلالة اصطلاحاً:

الدلالة في الاصطلاح هي "كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المولول"^{١٣}. فالدلالة في عرف اللغويين ما اتصلت باللفظ، بحيث متى أطلق هذا اللفظ، أو تخيل فهم معناه للعلم بوضعه^{١٤}.

تعد الأسس النظرية التي بُني عليها المصطلح القديم جزء من الدرس الفقهي، الذي يركز على فهم كتاب الله ومعرفته أحكامه. لذا نجد أن مختلف علوم التراث العربي تشترك إلى حدٍ كبير في أدوات ومصطلح البحث العلمي، ولم يخرج الدرس الدلالي عن هذه الأسس النظرية كونه

١٠- مقاييس اللغة (دل): ٢/ ٢٥٩.

١١- أساس البلاغة، للزمخشري، (دل): ١/ ٢٩٥.

١٢- ينظر: لسان العرب: ١١/ ٤٤٨.

١٣- التعريفات، للجرجاني: ١٠٤.

١٤- ينظر: المصدر نفسه: ١٠٤.

يدور في الفلك نفسه^{١٥}؛ ومن هذه الأسس :

اللفظ والمعنى

اهتم علماءنا القدامى بعرض ثلاث علائق مهمة في هذا الجانب هي :

-العلاقة بين اللفظ والمعنى .

-العلاقة بين اللفظ واللفظ .

-العلاقة بين الحروف ببعضها^{١٦} .

وأفردوا لذلك أبواباً، فقد أفرد ابن جني (ت ٣٩٢هـ) باباً سماه: (باب تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني)، عرض فيه اشتراك بعض الأسماء في المعنى الواحد، وأرجع هذا الاشتراك لوجود تقارب دلالي بين تلك الأسماء^{١٧}.

كما أشتهر ابن جني بإبراز ظاهرة مهمة هي تقارب الدلالات لتقارب حروف الألفاظ، وأطلق عليها اسم ((تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني))^{١٨}، ذكر فيها وجود تقارب في مخارج بعض الألفاظ.

التفريع الدلالي للفظ

يعد التفريع الدلالي القطب الأساسي في العملية الدلالية، لذا فقد اهتم العلماء بالتفريع؛ ومنهم ابن جني الذي اهتم بضبط تفريعات الفعل، وبيان سماته الذاتية والانتقائية. فقد حصَّ الفعل بهذا التوزيع، وكان

١٥ - ينظر: فنون التقعيد وعلوم اللسنية، ريمون طحان و دنيير بيطار: ٢٦.

١٦ - ينظر: الخصائص، لابن جني ١/ ٢٨.

١٧ - ينظر: المصدر نفسه ١/ ٢٨.

١٨ - ينظر: المصدر نفسه ٢/ ١٤٦.

يسميه اللفظ؛ لأنه النواة الأساسية المستمدة من الأحداث المحققة في الواقع اللغوي، ويقسم ابن جني الدلالة الى ثلاثة أقسام^{١٩}:

١- الدلالة اللفظية .

٢- الدلالة المعنوية.

٣- الدلالة الصناعية.

ثانيًا: تحليل النص

” إِنَّ النص يكشف عن إمكانية لغوية وفطنة تعبيرية تتشح فيها بطراز النسج التقابلي اللغوي؛ لأنهم من أهل بيت زُقُوا العلم زُقًا، فعتبة المقول مكونة من جملتين؛ الأولى: قوله: (رَأَى الْحَرُونَ أُسِيرَ نَفْسِهِ) ، والثانية: (وَأَجَاهِلُ أُسِيرَ لِسَانِهِ). “

وهما على صعيد التعاقب النصي مقارنة بين نمطين وضربين من الناس، لبيان طبيعة الموقف والتصرف ، والبرهان لكل منهما بلحاظ وثاقة العقل، وجودته لكل منها .

أبنية النص ومفرداته

يكشف القول موضوع الدرس عن مفردات لغوية ذات طابع فريد في الاستعمال مقارنة بنظمها سياقيًا، وهو ما منحها جودة أخرى تنوف بها على ما سواها من ألفاظٍ كان بالإمكان تَجَبُّرُها من لدن الامام عليه السلام . غير أن فكرة النص، وحكمة المعنى ساقَت التعبير أعلاه .

١٩- ينظر: المصدر نفسه: ٣٠ / ٩٨.

فأما البناء العلمي الذي يبحث في صور الأشياء أو اشكالها للألفاظ المنتظمة في التعبير، فمطلعها صيغة (فَاعِلٌ)، في قوله (رَاكِبٌ)، وهو بناء يدل على الفاعلية المستمرة المقرونة بالحدث، إذ يقول فيه اللغويون والنحويون: إنه من صيغ الفعالية الدائمة زمنا عند الكوفيين^{٢٠}.

وهذا هم يحكمون على استمرارية الحدث و صاحبه المتلبس به. وفي النص أيضًا صيغة (فَعُول) التي تستعمل اسما ووصفًا ومصدرًا في العربية، وهي من أبنية المبالغة إذا كانت وصفًا وبلحاظ السياق^{٢١}.

وعليها في قول الإمام عليه السلام، (الْحُرُون)، وهذه البنية الصرفية متداخلة المعاني كما تقدم مشتركة المضمون في وزنها وبنيتها التركيبية بوصفها مفردة، تعالقت معها في السياق نفسه رديفتها في الصياغة العلمية التي تبحث في صور الأشياء أو أشكالها، وهي بنية، (فَعِيل) التي تكرر ورودها في المقول مرتين في الجملتين كلتيهما، مصداقها كلمة (أَسِيرٌ) الواردة في شطر العبارة الأولى، وفي ضربها الثاني، بلحاظ الإضافة التركيبية نحوياً، لدن قوله عليه السلام (أَسِيرٌ نَفْسِهِ)، و(أَسِيرٌ لِسَانِهِ)، وهما على كل حال محور الموازنة، ورفيق المقارنة بين النوعين من الأنماط الاجتماعية الإنسانية، غداة الحدث الانجازي الفعلي، بين من يرتفق الحرون، وبين الجاهل.

وصيغة (فَعِيل) أيضًا من الصيغ المشتركة بين الإسمية والوصفية، وربما المصدرية أيضًا كما يشير اللغويون^{٢٢}. وهي نتاج المبالغة إذا كانت وصفًا، والثبوت إذا استعملت إسما أو مصدرًا.

٢٠- ينظر: المكون الدلالي لل فعل في اللسان العربي، أحمد حساني: ٣٢.

٢١- ينظر: اسفار الفصيح، للهروي: ١/ ٣٤٥.

٢٢- ينظر: اوضح المسالك الى الفية ابن مالك، لابن هشام: ٣/ ٢١٧، والنحو الوافي: ٤/ ٦٥٢ - ٤/ ٦٨٩.

البنى التركيبية للنص

تعد البنية التركيبية للنصوص أهم المرتكزات التي تتواشج فيها العناصر النحوية، وفاقاً لموقعيتها في صياغة الجمل والتراكيب النحوية، إذ تنتظم البنية في شكل تركيب نحوي؛ أما أن يبدأ فيه بنمط الفعل، ليكون جملة فعلية صدرها الفعل الدال على الحدث بزمانه وحركيته.

أو أن يكون طليعتها الإسمية، بلحاظ كونها جملة إسمية خبرية ربما، خبرها الاسم في الأصل لدى النحاة، أو أن يكون خبرها الجملة بشتى أنماطها. ومن قراءة المقول للإمام الهادي يظهر أن التركيب الذي نسجه الإمام عليه السلام مكون من بنيتين نحويتين اسميتين:

الأولى: منهما تركيب إسمي إضافي، وهو قوله:

(رَاكِبُ الْحُرُونِ أَسِيرُ نَفْسِهِ).

” وهذا النص تركيب خبري اسمي مؤلف من المبتدأ (رَاكِبُ)، وهو اسم فاعل مضاف إليه ما بعده على سبيل الإضافة اللفظية غير المحضة، وهي عند النحويين من الإضافة الوصفية^{٢٣} نظيرها قراءة لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف/ ١٨] ^{٢٤}. “

أما خبر التركيب الوصفي الإضافي، فهو قوله (أَسِيرُ نَفْسِهِ)، الذي يمثل تركيباً إضافياً مصدراً بصيغة الوصف (فَعِيل)، مناسبة، فيما يظهر، لنسق الاعتداء الذي صدره الوصفية بصيغة باسم الفاعل^{٢٥}، لتنتظم الجملة بركنيها الاسناديين.

٢٣- ينظر: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، للاشموني: ٤٣٨/١.

٢٤- ينظر: معاني القرآن للأخفش: ٨٩/١، وغرائب التفسير وعجائب التأويل، محمود الكرمانى: ٦٥٤/١، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزخشري: ٧٠٩/٢.

٢٥- ينظر: أوضاع المسالك إلى الفية ابن مالك: ١٩٢/١.

وفي قبالة هذا التعبير النحوي، نجد التركيب الثاني من المقول، الذي يمثل طرف الجملة الخبرية التالية للإخبار الأول، وهو قوله ﷺ:

(وَالجَاهِلُ أُسِيرُ لِسَانِهِ) .

والجملة أعلاه تركيب خبري مصدرّ بالمبتدأ، بزنة (فَاعِل) المخبر عنه بصيغة (فَعِيل) المضاف إليه ما بعد.

وهنا لحاظ تعبيرى تركيبى هام، يليه التفكيك النحوي للوحدات التركيبية، إذ يتقابل طرف الجملة الأولى بالجملة الثانية على حد ما يسمّى (التوازي التركيبى) ^{٢٦} في علم نحو النص ولغته ^{٢٧} .

وهذا الضرب من التعبير النحوي يظهر تشابهاً في أنماط التركيب بين طرفي الجملة، وتقابلاتها التعبيرية ^{٢٨} .

وهي تقنية نحوية معبرة، تفيد لدى المعنى، وتفتح عندها الدلالات التعبيرية أتباً انفتاح، بلحظات الموازنة والمقارنة والمقابلة التي تخدم معاني النحو، ودلالاتها العميقة الناتجة من بنية التركيب، وتعدده لفظاً، بحيث ينتقل النص من كونه نصاً نحوياً بسيطاً في تراكيبه، إذ هو لا يتعدى الابتداء والخبر، إلى نمط عالٍ من الإفادة من راء التكرار أو التوازي التعبيري الإسنادي المتعدد .

٢٦- التوازي التركيبى: هو تأليف لمجموعة من الثوابت والمتغيرات فالثوابت عبارة عن تكرارات خالصة مقابل المتغيرات التي هي بمثابة اختلافات خالصة . وينقسم التوازي التركيبى على نوعين هما: ١- توازي البنى المتشابهة، ٢- توازي البنى المتغايرة، ينظر: التوازي التركيبى في القرآن الكريم، د. عبد الله خليف خضير الحياىى: ٣٨-٣٩.

٢٧- ينظر: التوازي التركيبى في القرآن الكريم: ٢٦- ٢٧ .

٢٨- ينظر: المصدر نفسه: ٣٩.

التعبير اللفظي اللغوي

والمقصود به هنا المفردات التي استعملها الإمام الهادي عليه السلام في مقولته. إذ يعد مستوى الألفاظ من أهم أركان التعبير اللغوي النصي، فهي وسيلته للمعنى وسبيله للمغزى، وغايته القصد المراد تحقيقه وإبلاغ السامع به^{٢٩}. لذا عني بهذا الضرب اللغويون القدامى الذين يعدون الألفاظ والمفردات أصل النسيج اللغوي، وبها يتم انتقاء الفهم وتوجيه المعاني، بوصفها قرينة معجمية عند اللغويين. وكذا صنع المحدثون الذين اعتبروها أسس اللغة وأساسها، ولا يقل دورها عن دور بقية مستويات التعبير، بما فيها المستوى الفني الذي ينتج عنها، ويتفاعل من نسيجها وسبكها. لذا صار للكلمات دور في اللغة على حد ستيفن اولمان^{٣٠}، ومن قبله ابن جني^{٣١}، وابن فارس^{٣٢}، والانباري^{٣٣} (ت ٥٧٧ هـ).

”ويلاحظ في التعبير موضوع التحليل أن الإمام استعمل مفردات سهلة متداولة ذات معانٍ جارية في الحقل اللغوي في زمان النص ومكانه، فضلاً عن لحاظ القابل من الأيام التي سيعيش فيها اثنائها المقول تاريخياً، وهو تدرجه في البيئة اللغوية الاجتماعية اللغوية، وفاقاً لمبدأ العرف اللغوي الذي تتكلم به الجماعة اللغوية، ولحاظ ذلك أنه عليه السلام لا يقصد إلى التعقيد المعجمي من جهة غرابة الألفاظ أو ندرتها، وعدم سهولة نسيجها الصوتي أو التعبيري، لأنه يقصد إلى تحقيق المعنى، ويبغي تثبيت المغزى في ذهن السامعين، لغرض تحقق إلزام والتقيد بالمقول.“

٢٩- ينظر: اللغة والاسلوب: ٨٤.

٣٠- ينظر: دور الكلمة في اللغة، ستيفن اولمان: ١٣.

اللهم إلا مفردة واحدة في العبير، تعد وفق علم الدلالة مهيمنة النص ومحوره، لصفتهما التعبيرية وفرادتها اللفظية، ودلالاتها الاجتماعية والنفسية لدى المتلقين، وهي كلمة (الحُرُون)، وهي مضافة إلى (راكب)، إذ يقع بالمقابل اللفظي لها كلمة (الجَاهِل)، بلحاظ المفارقة اللغوية، والتقابل الإفرادي على سبيل المقارنة والمشابهة بين حالين وصورتين وموقفين .

و من استقراء المدونة المعجمية التراثية فـ(الحُرُون) فيها صفة الدابة الصعبة المراس. وهي التي لا تكاد تستقر أو تهدأ أو تمكث، فلا تلبث أن تهيج براكبها^{٣١}.

و الحرون الشُّمُوس الجامح من الدواب^{٣٢}.

وهو ما لا ينقاد من الخيل كما ذكر الخليل^{٣٣}.

وحمار حرون يقاوم بعناد^{٣٤} .

وأصل الوصف للخيّل، وعده ابن سيده (ت٤٥٨هـ) عامًّا لذوات الحوافر، قال ابنُ سيِّده: ((خاصُّ بذَوَاتِ الحافِرِ، ونَظِيرُهُ في الإِبِلِ اللَّجَانُ و الخِلاءُ))^{٣٥}.

فمنها ما يسبق مسرعًا ثم يحرن.

ومنه قيل لمن لا يكاد يبرح مكانه في الحرب و موضعه إنه: حَرْنٌ أو يَحْرُن^{٣٦}.

٣١- ينظر: معجم ديوان الادب ، للفارابي ١/ ٤٦٩، والتلخيص في معرفة اسماء الأشياء : ٣٣٥.

٣٢- ينظر: كتاب الجرائم ،لابي محمد الدينوري ٢/ ١١١، والزاهر في معاني كلمات الناس ،لابي بكر

الانباري ٢/ ٢٥، وتهذيب اللغة ، للأزهري ٦/ ٩٧، والتلخيص في معرفة اسماء الاشياء : ٣١٤.

٣٣- ينظر: كتاب العين ، للخليل ٣/ ٢٠٩، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ،لابي نصر الفارابي

(حرن): ٥/ ٢٠٩٧، والتلخيص في معرفة أسماء الاشياء : ٣٣٥، والمحكم والمحيط الاعظم ، لابن سيده

(حرن): ٣/ ٣٠٣، والمخصص ، لابن سيده: ٢/ ١٠٦، ولسان العرب ، لابن منظور ١٣/ ١١٠، والقاموس

المحيط الاعظم ، للفيروز ابادي: ٢٨١ .

٣٤- ينظر: معجم اللغة العربية المعاصر (حرن): ١/ ٤٨٣.

٣٥- ينظر المحكم والمحيط الاعظم (حرن): ٣/ ٣٠٣، والقاموس المحيط: ١١٨٩، وتاج العروس (حرن): ٢٤/ ٤٠٦.

٣٦- ينظر: جوهرة اللغة ، لابن فارس (حرن): ١/ ٥٣٤، والمحكم والمحيط الاعظم (حرن): ٣/ ٣٠٣،

والمخصص: ٢/ ١٠٦، واساس البلاغة (حرو): ١/ ١٨٥.

ومن ثَمَّ فإن الوصف المعجمي المفردة أعلاه يشير إلى صفة العناد، والشماس، والمطالبة، وعدم البسط، والاستقرار، مع الاخافة والرغبة من المنقلب. إذ لا يكاد الفرس المنطلق يسير سراعاً جنى يقف حَرِنا الفجاءة، فيرهب صاحبه ويقلق وضينه، بل يسقطه من هول الوقفة والقهقري .

ولذا يكون أسير نفسه التي ألقت به في مهاوي الردى، وعدم الفكاك من الخيل الشماس التي لا مستقر لسيرها ولا نمط لانطلاقها، فكأنها جموح لاتلين لفارس ولا تطيع الراكب، فما بالك بمن لا يحسن القيادة غداة ذاك .

المقول في ضوء التحليل الدلالي .

يعرض النص المسبوك بلغة سجيتها الإيضاح، ولغتها الابانة، وتركيبها الجزالة مع الإيجاز غير المخل بالمعنى جملة من المزايا الدلالية الي تمثل ضروبا من بديع التعبير اللغوي الذي تنماز به لغة المعصومين (عليه السلام)، مع لحاظ جزالتهم وفصاحة ألسنتهم ودقة تعابيرهم التي أمتها في ذلك القرآن الكريم، ففي المستوى الصوتي والصرفي نلاحظ انسجام الصوامت والصوائت والمصوتات التي جرت في أبنية المفردات الصرفية بشكل سلس من غير ذي ركاقة، برغم يسر الابنية الصرفية واعتيادها، فجلبها من الأوصاف والمشتقات كما تقدم القول التي جرى على منوالها المثال اللفظي بتتابع لغوي منسجم لصالح المعنى ومن ثم الدلالة المبتغاة .

فإسم الفاعل، والوصف (فَعُول)، وصيغة (فِعْلٌ)، ومن بعدها قسيم الجملة الثاني، كلها عملت متآزرة لرفد المغزى والمضمون، بلحاظ الوصف والثبوت والاسمية والمصدرية .

إذ نلمح دلالة لفعل مثلًا على المفعولية، في أسير بمعنى (مأسور) أي (مُرْتَهَنٌ)^{٣٧}، وكذا دلالة التحول التصريفي لمعنى الاتساع وتحقيق المراد في فعل التي أفادت المبالغة مع الوصفية والاسمية^{٣٨}، ومثل ذلك يصلح قوله في فعول التي عليها كلمة (حرون)، وهي وصف في المدونة المورفولوجية لإفادة الحال وصاحبه.

وفيها مغزى دلالي سياقي يحسب لصالح المعنى، إذ تدل على ثبوت الموضوع وعدم الحركة، عنادًا ومشاكسة، لبيان الاضطراب والنفار والامتناع عن القيادة. ففعول بمعنى مُفْعَل، حرون بمعنى (مُحْرَن)، أي ممتنع غير منقاد^{٣٩}.

وبلحظات التركيب النحوي، ففي الجملة الأولى من نمط التوازي اللغوي تقنية أسلوبية أدت إلى الإيجاز في الخطاب، بلحاظ كونه حكمة، يتناسب وإياها منطق الاختزال اللغوي، والاقتصاد في المفردات التركيبية^{٤٠}.

إذ عمد النص إلى حذف الموصوف وابقاء الصفة محله، في قوله **رَاكِبُ الْحُرُونِ** (راكبُ الحرون...) والمراد فيما يفهم من قرائن التركيب وسياقه (راكب الفرسِ الحرونِ أسير نفسه...)، أو (راكبُ الدابةِ الحرونِ أسير نفسه...). فحذف (الفرس / الدابة)، وبقيت الصفة مقامه، لأنها تؤدي المضمون وتفيد المعنى وتبلغ به حد الدلالة القصدية، مع إرادة العموم والشمول وانفتاح التعبير اللغوي في التركيب اعلاه.

٣٧- ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس: ٧٧/٢، وتهذيب اللغة: ٤٣/١٣، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (أسر): ٢١٣/١.

٣٨- ينظر: أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك: ٢١٧/٣، والنحو الوافي: ٦٥٢/٤ - ٦٨٩/٤.

٣٩- ينظر: كتاب العين، للخليل: ٢٠٩/٣، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لابي نصر الفارابي (حرن): ٢٠٩٧/٥، والتلخيص في معرفة أسماء الأشياء: ٣٣٥، والمحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده (حرن): ٣٠٣/٣، والمخصص، لابن سيده: ١٠٦/٢، ولسان العرب، لابن منظور: ١١٠/١٣، والقاموس المحيط الأعظم، للفيروز ابادي: ٢٨١.

٤٠- ينظر: التوازي التركيبي في القرآن الكريم: ٢٦-٢٧.

انفتاح الدلالة بلحاظ السياق .

تعد قضايا الدلالة ومجالاتها المعرفية نقطة هامة في البحث اللغوي،
فبها تستمد اللغة معانيها الدقيقة، ومن خلالها تأخذ النصوص غاياتها
المرتدة من خلال حال التكلم والموقف اللغوي الذي يدعو إلى تحيّر النص
وألفاظه بهذه النمطية التعبيرية دون سواها، فالمعلوم أن لكل نص او مقول
توليدات نسقية تركيبية تتبادل فيها المفردات مواقعها بالزيادة أو النقصان
أو الإضافات من جراء ادخال عناصر لغوية في التركيب الملفوف، فقولنا
مثلا (عبدُ الله قائمٌ) يمكن أن يتولد منه جمهور من الجمل التي تتعدد
بتعدد موقعية عناصره المكونة له، إذ يقال فيه: (إن عبد الله قائمٌ)، و(إنَّه
لقائمٌ)، و(هُوَ قائمٌ)، و(إنَّه لسوف يَقُومُ)، و(سَيَقُومُ عَبْدُ اللَّهِ)¹، إلى
غير ذلك من أنماط التعبير الذي فطن إليه اللغويون التراثيون وأبأنوا عن
معانيه بكل تغاير في الصياغة والنسج وطريقة النظم، ولكن بلحاظ المتكلم
والسامع، بل وحتى بلحاظ القائل نفسه بتعدد غاياته اللغوية والدلالية .

أما النص موضوع القراءة التحليلية، فيظهر مزية دلالية تنفتح فيها
الدلالة الرمزية على نمط الحمة والالتزام والالزام، فهي خبر بمعنى
التحقق والوقوع بنسج ارشادي وعظي، غايته التنبيه وسيله الإرشاد،
ونوعه الاحتياط بالألا يكون المرء السامع كراب الفرس الحرون غداة
ارتهانه نفسه لها، فيمون قلق الوضين، محاطًا بالفرع والرهبة مما ارتهن
به، ووقع بازائه من مركب صعب، وموضع لا يكاد فيه الحراك، ولا
يبارى فيه الأمن والطمأنينة، فلا يعرف منها -الفرس/ الدابة الحرون-

٤١- ينظر: كتاب سيبويه: ١٠٧/٢-٥٢، و الاصول في النحو، لابن السراج: ٢٠٦/١، والجنى الداني في
حروف المعاني، لابي محمد المرادي: ١/ ١٣٣.

إلا العصيان^{٤٢}، ولا يتبادر منها إلا الشّمس والعناد^{٤٣}، بل ربما الإلقاء والايقاع بالراكب، فكأنما بركوبته هذا صار مجازفًا، طمعًا في البطولة، ورغبة في الفروسية التي لا تليق بالحرون من الخيل، ولا تنسجم مع مهارة راكبها الذي أغوته نفسه ارتقاء الصعاب، زهوًا وغرورًا.

” كل ذلك المنحى، بإزاء الجاهل الذي وقع أسيرًا للسانه، الذي لم يكن طبعًا لها، إذ لا يعرف بم يتكلم وما تكلم، من دون أعمال الحكمة، وإنعام البصر والبصيرة غداة الكلام، فالجاهل بلحاظ المقول هو راكب المرونة على سليل المقابلة، والموازاة اللغوية، والمقاربة اللسانية، والمواءمة اللفظية، إذ الشبه اللغوي، وليس البلاغي ظاهر بينهما، لعلاقة مفادها الأسر والارتهان وعدم المهارة والإتقان للعمل والقول دونها إحكام ومهارة، فكلهما أسيرٌ بهذا.“

٤٢- ينظر: كتاب العين: ٢٠٩/٣، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (حرن): ٢٠٩٧/٥، والتلخيص في معرفة أسماء الأشياء: ٣٣٥، والمحكم والمحيط الأعظم (حرن): ٣٠٣/٣، والمخصص: ١٠٦/٢، ولسان العرب: ١١٠/١٣، والقاموس المحيط الأعظم: ٢٨١.

٤٣- ينظر: كتاب الجرائيم: ١١١/٢، والزاهر في معاني كلمات الناس: ٢٥/٢، وتهذيب اللغة: ٩٧/٦، والتلخيص في معرفة أسماء الأشياء: ٣١٤.

الخاتمة

وفي المسك ، فللدرس اللغوي والتحليل الدلالي للمقولات النصية، نصيب من الإبانة عما تنفرد به من خصائص النسيج و بديع التعبير. ولاريب أن مقولة الامام الهادي عليه السلام موضوع الدرس ، في طليعة هذا الامتياز اللغوي، لما بدأ فيها من أسلوب لغوي و دلالي غرضه التوجيه، وغايته الحكمة، و مغزاه الإرشاد .

وبهذا أمكن إنجاز المراد منه بلغة نتائجها الآتي :

١- مثل النص أسلوباً في الأداء اللغوي المتفرد في أصواته وبنيته الصرفية التعبيرية، لتسخّر هذه العلامات اللفظية لصالح المعنى .

٢- يقع النص في مجال الأسلوب اللغوي السهل الممتنع في محاكاته للصياغة من لدن السامعين، فبرغم ايجازه وقصر عبارته، إلا أنه ارتفع بمعانيه ودلالاته وإشارات الإلماحية، لتحقيق الغرض الرئيس مما يقصد اليه الامام عليه السلام.

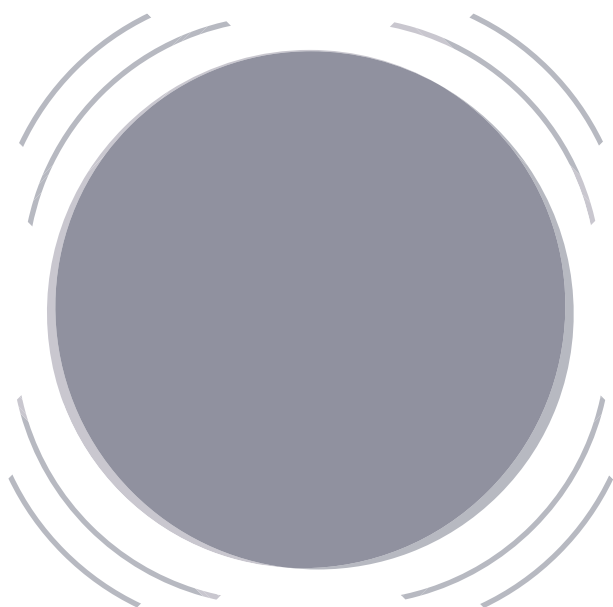
٣- سجّل المقول نمطاً من أنماط التعبير النحوي، بلحاظ الجمل المركبة ذات الطرفين، وهو تقنية متميزة لغوية يطلق عليها في علم النص (التوازي التركيبي)، بيد أنه توازٍ بالحذف والايجاز والاختزال والاقتصاد اللفظي، اجتزأ منه التعبير الموصوف، وأبقى محله الصفة الدالة عليه، ليسد مسد التعبير بالمعنى والدلالة .

٤- لغة المقولة بناء على ما تقدم ، عالية المقام، رفيعة النظم، فقد راعت سياقات الموقف والمسرح اللغوي، و ماجريات النص، لتحقيق الانجاز

والقصد لدى المخاطب منذ زمان النص إلى ما يتلوه مستقبلاً، فليس النص رهنًا بزمنه، لكنه مستمر خطابًا طيلة التقادم، ليكون مناسبًا للذوق التعبيري والفهم اللغوي مستقبلاً.

٥- في المقول مصاحبات اللفظية كان عريفها مهيمنة دلالية مثلت مفتاحات للعبارة، و ضرباً من الإشارة، وفق ثنائية (الإشارات والعبارات) في التراث اللغوي، أو مبدأ (التصريح والتلميح) في علم الدلالة، إذ ينتهي المضمون برّمته، في لغة الامام (عليه السلام)، إلى عبارة النص، و يفتح في ضوء علم الدلالة إلى (معنى المعنى)، وفقاً للمركز والهامش .

٦- في المغزى الذي يتضمنه التعبير، ثمة معنى الإلزام والالتزام والنهي عن الوقوع مصاديق ألفاظ النص، فليس المقول مقتصرًا على (رَاكِبِ الحُرُون) حقيقة، إنما (رَاكِبِ رَأْيِهِ)، و (مُرْتَقِي نفسه الأُمارة بالسوء)، وسوى ذلك ونظيره، كراكب الحرون غداة أَلَمَتْ به وأعْغَفَتْ و شَمُسَتْ.





الإمام المهدي عليه السلام في الموروث التفسيري للقرآن الكريم القرآن والمطهرون

أ.د. فارس حسن السلطاني

من وقائق أسبوع الإمامة الدولي الأول

المقدمة

لم تغب الأطروحة المهدوية في مضامين الذكر الحكيم، بوصفها أساساً من أسس الإيمان باليوم الموعود الذي أشارت إليه آيات الكتاب المبين، إذ تمحضت مجموعة من الآيات الكريمة التي أشارت إلى الدولة الإلهية التي أرادها الله عز وجل خاتمة لدول الأرض التي أنشأها الإنسان، لتكون بذلك نصراً وعزاً للمؤمنين وشفاء لما في الصدور، وخزياً وذلاً للكافرين، وهذا هو مضمون قوله تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾^١.

وليست الآية المشار إليها وحدها التي أشارت إلى ذلك، ولكن ثمة آيات أخر أفادت المضمون ذاته، وقد خلصت الروايات التفسيرية التي وردت من أهل بيت الوحي والعصمة، وما أقرّبه علماء المذاهب الأخرى إلى أنها تشير إلى دولة الحق على الأرض التي بها ستملاً قسطاً وعدلاً، بعد أن تملأ ظلمًا وجوراً.

وما هذا الالتقاء بين نصوص كثيرة من الفريقين إلا شاهد حق على تمحض بعض آيات القرآن العظيم على رسم صور المستقبل الإيماني

١ - القصص: ٨٣.

للمؤمنين، وتحقق الوعد الإلهي بالنصر، وإقامة دولة العدل الرباني ليس على الأرض وحدها، بل في كل العوالم الأخرى التي ستشهد مع الإنسان في الأرض تحقق الإرادة الإلهية في التسخير الذي أراده الله عز وجل للإنسان بوصفه الخليفة، واستثمار طاقات الأرض والكون، من أجل الوصول إلى الحكومة الكونية التي مركزها الأرض ومساحتها كل هذا الكون.

وتحاول هذه الوريقات أن تقف على النماذج التفسيرية التي صرح بها الفريقان بإشارتها للدولة الخاتمة وما ورد من مروياتنا الخاصة عن طريق أهل البيت (عليه السلام)، وما عليها من حياة موصوفة بالمجد الإلهي لعباده الصالحين، وما للأحاديث الكريمة من إشارات واضحة إلى تلك الدولة، فتكون بذلك صورة واضحة لمستقبل المجتمع الإيماني بفضل من الله ورحمة.

” إن تداول حديث الإمام المهدي (عليه السلام) وذكر ما يتصل به من جوانب متعددة يعد من ضمن الوفاء الذي وجب علينا لإمامنا سلام الله عليه، وهو جزء من الانتظار المثمر الذي حث عليه حديث رسول الله ﷺ: «أفضل أعمال أمتي انتظار الفرَج»^٢.

إن مسؤوليتنا اليوم كبيرة توازي حجم التحديات التي تواجه الأمة المؤمنة، وما يجب على المجتمع الواعي ورجاله العارفين إلا التعريف بالمشروع السماوي لبناء خاتمة الدول لتكون من خلال ذلك على استقامة من العمل، والثبات على الدين من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال.

٢- كمال الدين وقام النعمة: ٦٤٤.

الإمام المهدي في آيات الذكر الحكيم:

إن مضامين الآيات القرآنية لا يمكن الإحاطة بها إلا على نحو ما يردنا من نصوص المعصومين (عليه السلام)، إذ هم الأدلاء على كتاب الله والمرشدون لبيانه والعارفون بحقائقه التي لا يحيط بها إلا المطهرون ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^٣، «المطهرون - اسم مفعول من التطهير - هم الذين طهر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصي وقذارات الذنوب، أو مما هو أعظم من ذلك وأدق وهو تطهير قلوبهم من التعلق بغيره تعالى، وهذا المعنى من التطهير هو المناسب للمس الذي هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث كما هو ظاهر، وقد ورد عن مولانا باقر العلم أبي جعفر محمد بن علي (عليه السلام) قال: "ما يستطيع أحد أن يدعي أنه جمع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء"^٤.

فالمطهرون هم الذين أكرمهم الله تعالى بتطهير نفوسهم كالملائكة الكرام، والذين طهرهم الله من الرجس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^٥. ولا وجه لتخصيص المطهرين بالملائكة كما عن جل المفسرين لكونه تقييداً من غير مقيد^٦، قال الألوسي في تفسيره: (أخرج الترمذي والحاكم وصحاحه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه من طرق أم سلمة رضي الله عنها قالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ وفي البيت فاطمة، وعلي، والحسن، والحسين. فجلّلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: (هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)^٧.

٣- الواقعة: ٧٩.

٤- ظ: بصائر الدرجات: ١/ ١٩١.

٥- الأحزاب: ٣٣.

٦- الميزان (محمد حسين الطباطبائي): ١٩/ ١٣٧.

٧- ظ: روح المعاني: ١١/ ١٩٥.

” وجاء في بعض الروايات أنه ﷺ أخرج يده من الكساء وأومأ بها إلى السماء وقال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي، وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً) ^٨ ثلاث مرّات. وفي بعض آخر أنه ﷺ ألقى عليهم كساءً خبيرياً، ثم وضع يده عليهم، ثم قال: (اللهم إن هؤلاء أهل بيتي...) ^٩. وفي لفظ: (آل محمد)، (فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد، كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد) ^{١٠}.

وكما ورد في أسباب نزول آية التطهير رواية أخرجه الطبراني عن أم سلمة أمّها قالت: (.. فرفعت الكساء لأدخل معهم، فجذب ﷺ وقال: إنك على خير) ^{١١}. وفي أخرى رواها ابن مردويه عنها أمّها قالت: (ألسْتُ من أهل البيت؟ فقال ﷺ: إنك إلى خير، إنك من أزواج النبي) ^{١٢}. وفي آخر هذه الرواية ما رواها الترمذي وجماعة: (عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي عليه الصلاة والسلام قال: قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنتِ على مكانك، وإنك على خير) ^{١٣}.

ومما ورد عن أهل البيت (عليهم السلام) رواية زيد بن علي (عليه السلام): "قال أبو الجارود: قال زيد بن علي بن الحسين: "إنَّ جُهاًلاً من الناس يزعمون إنَّها أراد الله

٨- مسند أحمد بن حنبل: ٦ / ٢٩٢.

٩- مجموع فيه مصنفات أبي جعفر ابن البخاري: ١٣٤.

١٠- ظ: مسند أحمد: ٦ / ٢٩٢ ومثله في صحيح مسلم الحديث رقم (٢٤٢٤) كتاب فضائل الصحابة وصحيح الترمذي: ٥ / ٣٥١.

١١- أخبار الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام): ٨٥.

١٢- مناقب علي بن أبي طالب (عليه السلام) وما نزل من القرآن في علي: ٣٠٣.

١٣- ظ: روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: ج ١٢ و ج ٢١: ٢٢، أقول ومع ورود آية التطهير في سياق آيات خوطبت بها نساء النبي ص ولكن لم تدعي واحدة من نساء النبي ص أنها داخلة ضمن أهل البيت بخلاف ما رواه عكرمة وعروة، بل المروي عن عائشة وأم سلمة أنها نازلة في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ظ: صحيح مسلم عن عائشة ٤ / ٢٢٩ وسنن الترمذي عن (أم سلمة): ٥ / ٦٩٩ رواية رقم: ٣٨٧١.

بهذه الآية أزواج النبي ﷺ، وقد كذبوا وأثموا، وأيم الله لو عنى بها أزواج النبي ﷺ لقال: ليذهب عنكنّ الرجس ويظهر كنّ تطهيراً، ولكان الكلام مؤثماً كما قال: (وَإِذْ كُنَّا مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ)، (وَلَا تَبْرَجْنَ)، و(لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ) "١٤".

وقد ورد في صحيح الترمذي، ومسند أحمد، والطيالسي، ومستدرک الصحيحين، وأسد الغابة، وتفسير الطبري، وابن كثير، والسيوطي عن أنس بن مالك «إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ؓ ستة أشهر، كلما خرج إلى صلاة الفجر يقول: الصلاة يا أهل البيت»^{١٥}.

الإمام المهدي في الروايات التفسيرية:

لعل من الأهمية بمكان مناقشة موضوع ما ذكر من الأسماء وما لم يذكر في القرآن الكريم، وهنا نقف على طرفي نقيض مع المدرسة الأخرى المناقضة لمبدأ أهل البيت ؑ في عدم قبولهم بالإمامة، بحجة أن هذا الأمر لو كان ذا عناية بالغة لما تركه الله دون أن يذكره في القرآن وبينه للناس بيئاً شافياً.

وهذه حجة غير ناهضة بدليل أنه لو كان القرآن قد نزل إلى الناس من دون أن يكون معه نبي مرسل، لكان للأمر قبول بنحو من الأنحاء، فكيف وكل آية فيه كان النبي ﷺ هو الذي يفصلها ويذكر مرادها وما ينبغي فيها من حكم، ولا يقتصر الأمر عليه بل تعال وانظر الى آثار أهل البيت ؑ فقد كان لهم الكثير من الآراء بذلك.

١٤ - بحار الأنوار: ٣٥ / ٢٠٧. وعن تفسير القمي: ٥٠٣.

١٥ - ظ: مستدرک الصحيحين: ٣ / ١٥٨.

ومن جملة ذلك مصطلح كبير ذكره النبي ﷺ لهذه الأمة بعد أن رسم مستقبلها وما ستؤول إليه أمورها في المستقبل الذي تراه عين النبي لأمته وللأرض كلها وأنها ستملأ ظلماً وجوراً، ولكن الله سيردها ملأى قسطاً وعدلاً على يد رجل من أهل بيته، وهو آخر الحجج وخاتم الأوصياء، وهو الذي سماه رسول الله بـ(المهدي) عليه السلام.

ولأن الأمر عظيم وخطير، فإن القرآن الكريم ذكر ذلك في مطاوي آيات الذكر الحكيم في آيات كثيرة تكاد تكون محل اتفاق بين المفسرين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم.

ثم إن الحديث عن الإمام المهدي عليه السلام ينقسم في المنظور القرآني على أوجه؛ منها:

أولاً: إرهاصات الظهور:

وتسمى علامات الظهور، وهي الأحداث الممهدة للتغير الكوني الكبير الذي يسبق ظهور الإمام، إذ إن حدثاً عظيماً كالיום الموعود الذي أعده الله لقيام الدولة الخاتمة لا يمكن أن يمر دون أن ترسم له خارطة تملأ ذهن المسلم في كل زمان ومكان، لكي يكون ذلك مما لا يغيب عنه، ولا ينساه.

ولذا كان منهج القرآن واضحاً في رسم هذه الحقيقة العظيمة في بعض آياته الكريمة التي حملت أكثر من معنى، وأشار إليه النبي وأهل البيت عليه السلام.

البلاء قبل الظهور:

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾^{١٦}، فقد ورد في تفسيرها عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أنه قال:

«إن قدام قيام القائم علامات بلوى من الله تعالى لعباده المؤمنين، قلت: وما هي؟ قال: ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾»، قال: لنبلونكم يعني المؤمنين، بشيء من الخوف ملك بني فلان في آخر سلطانهم، والجوع بغلاء أسعارهم، ونقص من الأموال فساد التجارات وقلة الفضل فيها، والأنفس قال: موت ذريع، والثمرات قلة ريع ما يزرع وقلة بركة الثمار، وبشر الصابرين عند ذلك بخروج القائم»^{١٧}.

وعنه (عليه السلام): (لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قُدَامَ الْقَائِمِ سَنَةٌ يَجُوعُ فِيهَا النَّاسُ، وَيُصِيبُهُمْ خَوْفٌ شَدِيدٌ مِّنَ الْقَتْلِ وَنَقْصٌ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، فَإِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَبَيِّنٌ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾)^{١٨}.

ورب سائل يسأل: لماذا البلاء هو السابق لظهور الدولة الخاتمة؟

فإنه لا يخفى على ذي بصيرة ما للبلاء من أثر في بناء شخصية الإنسان، وتقوية إرادته في مواجهة الامتحان، وتحقيق النتائج المرجوة منه في قوة الصبر والتحمل، وبناء الشخصية النموذجية القادرة على مواجهة الصعاب وتقلب الظروف.

١٦ - البقرة: ١٥٥.

١٧ - الغيبة (محمد بن إبراهيم النعماني): ١/ ٢٥٦.

١٨ - الغيبة (النعماني): ١/ ٢٥٧.

كما يمكن الاستدلال من خلال ذلك: إن المؤمن حين يتدبر الآية الشريفة فإنه يرى أن البلاء منصوص عليه بكلمة (بشيء) وفيها دلالة واضحة على القلة، وهو ما يمكن للمؤمن إطاقة، لأنه على وسعه (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)، وحين ينزل البلاء؛ فالمؤمن يواجهه بالصبر، والمصابرة، والتواصي بالحق، والدعاء، والعلم، والمعرفة، والوعي.

الخسف في البيداء:

وإليه أشار الله بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^{١٩}، فقد ورد في تفسيرها عن الإمام الباقر (عليه السلام): (فإذا خرج رجل منهم (من آل محمد) معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ومعه راية رسول الله ﷺ، عامداً إلى المدينة، حتى يقول (فيقول): هذا مكان القوم الذين يخسف (خسف) الله بهم، وهي الآية التي قال الله عز وجل: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^{٢٠}.

وقد وردت الروايات في حتمية الخسف، وأنه من العلامات المحتومة، ذكر النعماني (رحمه الله) بسنده عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: (قلت له: جعلت فداك، متى خروج القائم (عليه السلام)؟ فقال: يا أبا محمد، إننا أهل بيت لا نُؤَقَّتْ، وقد قال محمد ﷺ: كذب الوقّاتون. يا أبا محمد، إنَّ قُدَّامَ هذا الأمر خمس علامات: أولاهنَّ النداء في شهر رمضان، وخروج السفيناني، وخروج الخراساني، وقتل النفس الزكية، وخسف بالبيداء)^{٢١}. ولثله أشار الإمام الباقر (عليه السلام) فيما نقله الشيخ الصدوق (رحمة الله عليه) بسنده عن محمد بن مسلم الثقفي، قال: (سمعت أبا جعفر محمد بن

١٩- النحل: ٤٥.

٢٠- تفسير العياشي: ١/ ٦٥-٦٦.

٢١- الغيبة (النعماني): ٦/ ٣٠١-٣٠٢.

علي الباقر عليه السلام، يقول: "القائم منا منصور بالرعب مؤيد بالنصر..."، قال: قلت: يا بن رسول الله متى يخرج قائمكم؟ قال: "إذا تشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال... وخروج السفيناني من الشام، واليماني من اليمن، وخسف بالبيداء، وقتل غلام من آل محمد عليه السلام بين الركن والمقام، اسمه محمد بن الحسن النفس الزكية، وجاءت صيحة من السماء بأن الحق فيه وفي شيعته، فعند ذلك خروج قائمنا) ٢٢.

وجاء من طريق أهل السنة عن الحاكم الحسكاني في المستدرک: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «يُخْرَجُ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: السَّفِينَانِي فِي عُمُقِ دِمَشْقَ، وَعَامَّةٌ مَن يَتَّبِعُهُ مَن كَلْبٍ، فَيَقْتُلُ حَتَّى يَبْقَرَ بَطُونُ النِّسَاءِ، وَيَقْتُلُ الصَّبِيَّانَ، فَتَجْمَعُ لَهُمْ قَيْسٌ فَيَقْتُلُهَا حَتَّى لَا يُمْنَعُ ذَنْبٌ تَلْعَةٍ، وَيُخْرَجُ رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي الْحَرَّةِ فَيَبْلُغُ السَّفِينَانِيَّ، فَيَبْعَثُ إِلَيْهِ جُنْدًا مِّنْ جُنْدِهِ فَيَهْزِمُهُمْ، فَيَسِيرُ إِلَيْهِ السَّفِينَانِيُّ بِمَنْ مَعَهُ حَتَّى إِذَا صَارَ بِبَيْدَاءٍ مِّنَ الْأَرْضِ خَسَفَ بِهِمْ، فَلَا يَنْجُو مِنْهُمْ إِلَّا الْمُخْبِرُ عَنْهُمْ» هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ٢٣.

الصبر والمصابرة قبل ظهوره بين أظهر شيعته:

”وقد ورد عن أئمة الهدى عليهم السلام في تأويل قوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٢٤، فقد ورد عن إمامنا الباقر عليه السلام أنه قال:
(اصبروا على أداء الفرائض، وصابروا عدوكم، ورابطوا
إمامكم المنتظر) ٢٥.“

٢٢- كمال الدين (الشيخ الصدوق): ١٦ / ٣٣٠.

٢٣- مستدرک الحاكم: ٤ / ٤٧٨.

٢٤- آل عمران: ٢٠٠.

٢٥- الغيبة (النعمان): ١٩٩.

وفي ذلك إشارة واضحة لمن يعيش عصر الانتظار الإعدادي الاستعدادي بما يجب له من تدريب وملازمة على الصبر بوصفه المطلوب الأول في عملية الإعداد النفسي والعقلي لاستقبال أكبر وأهم حدث تنتظره الإنسانية جمعاء، ولا شيء أكرم على الله من فعل الصابرين المنتظرين.

ثالثاً: الوعد القرآني في قيام دولة الإمام المهدي (عليه السلام)

لقد وردت آيات متعددة تشير إلى هذه الحقيقة وهي قيام دولة الإمام المهدي (عليه السلام) ومنها:

أولاً: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^{٢٦}، فقد ورد عن أئمة الهدى (عليهم السلام) ومن مصادر العامة أنها تشير إلى دولة المهدي (عليه السلام)، «قال ابو عبدالله (عليه السلام): في قول الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ فقال: والله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم (عليه السلام)، فاذا خرج القائم (عليه السلام) لم يبق كافر بالله (العظيم) ولا مشرك بالإمامة إلا كره خروجه، حتى (أن) لو كان كافراً (أو مشركاً) في بطن صخرة (ل) قالت: يا مؤمن في بطني كافر، فأكسرنى واقتله»^{٢٧}.

ومثله عن الطبرسي: «قال أبو جعفر (عليه السلام): إِنَّ ذَلِكَ (يكون) عند خروج المهدي من آل محمد صلوات الله عليه، فلا يبقى أحد إلا أقرَّ بمحمد (عليه السلام)»^{٢٨}.

٢٦- التوبة: ٣٣ والصف: ٩.

٢٧- كمال الدين (الصدوق): ٢ / ٦٧٠.

٢٨- مجمع البيان: ٥ / ٢٥.

” عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام يقول: (القائم منا منصور بالرعب، مؤيد بالنصر، تطوى له الأرض، وتظهر له الكنوز، ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهر الله عز وجل به دينه على الدين كله {وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}، فلا يبقى في الأرض خراب إلا عُمِّر، وينزل روح الله عيسى بن مريم عليه السلام فيصلي خلفه) ٢٩. ٦٦

ولا ريب أن إرادة الله المذكورة في الآية الشريفة لا تتخلف بحال من الأحوال، وأن ظهور الإسلام لم يتحقق واقعاً حتى اليوم، والله لا يخلف وعده، ومن أصدق من الله قيلاً، فالله ليس عنده مثل ما عندنا من قسمة للزمن ماض وحاضر ومستقبل، وإنما هو أمر واحد لا تفصيل فيه، والله لا يخلف وعده، لذا فلا مفر من تفسيرها بما يكون من ظهور للدين على يد رجل أخبر به وعرفه جده رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام ولا تكاد ترى إماماً إلا وقد عرّف به وأشار إليه ولدولته التي بها يظهر الإسلام ظهوراً بيناً على كل دين بدلالة (لام التعليل) في ليظهره على الدين كله لا بالعلبة والقهر كما يتوهم، بل بالحجة والبرهان.

وكذلك فقد سمي الله الأديان كلها بالدين في إشارة إلى جنس الدين وقد عدها بـ (على) لمعنى النصر أو التفضيل أي لينصره على الأديان كلها ٣٠.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ٣١، الآية الشريفة بصدد رسم صورة مستقبلية للواقع الأرضي في حكومته المنتظرة، التي تمتد إليها الأعناق وتشرئب النفوس.

ورد في تفسير معنى الزبور هو زبور النبي داود عليه السلام لقوله تعالى:

٢٩- إعلام الوري بأعلام الهدى: ٢ / ٢٩١.
٣٠- ظ: التحرير والتنوير (ابن عاشور) ١٠ / ١٧٤.
٣١- الأنبياء: ١٠٥.

﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾^{٣٢}. وقيل: "كل كتاب يصعب الوقوف عليه من الكتب الإلهية، قال: ﴿وَأِنَّهُ لَفِي زَبْرِ الْأَوَّلِينَ﴾^{٣٣}، وقال: ﴿والزبر والكتاب المنير﴾^{٣٤}، وقال بعضهم الزبور: اسم للكتاب المقصور على الحكم العقلية دون الأحكام الشرعية، والكتاب: لما يتضمن الحكام والحكم، ويدل على ذلك أن زبور داود عليه السلام لا يتضمن شيئاً من الأحكام^{٣٥}.

وقال بعضهم: «ويعتقد بعض الباحثين بأن الزبور المذكور في القرآن هو المزامير في الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى»^{٣٦}.

” وذكر الطبرسي أقوالاً في تفسير الزبور: "أحدها: أن الزبور: كتب الأنبياء، والذكر: اللوح المحفوظ، وثانيها: أن الزبور: الكتب المنزلة بعد التوراة، والذكر: التوراة، وثالثها: أن الزبور: زبور داود والذكر: التوراة «أن الأرض» أي أرض الجنة، وقيل: هي الأرض المعروفة يرثها أمة محمد ﷺ، وقال أبو جعفر عليه السلام: هم أصحاب المهدي عليه السلام في آخر الزمان^{٣٧}. “

ومهما كان توجيهات الزبور فليس البحث فيما تعنيه، ولكن فيما تحمله في الآية في طياتها من أنباء المستقبل الحكومي للأرض كلها، على أيدي الصالحين من عباد الله.

فالمعنى الأول وهو وراثته الأرض، وهو انحسار كل القوى المتحكمة في الأرض وفشلها مجتمعة في إيصال المجتمع البشري إلى الحياة المتوازنة المستقيمة التي يطمح إليها كل إنسان على الكوكب، واستبدالها بحكومة إلهية تقودها مجموعة من الصالحين الذين أضافهم الله إلى نفسه (عبادي) تشریفاً لهم وتعظيماً.

٣٢- النساء: ١٦٣.

٣٣- الشعراء: ١٩٦.

٣٤- آل عمران: ١٨٤.

٣٥- ظ: المفردات في غريب القرآن (الأصفهاني): (مادة: زبر): ٢١١.

٣٦- عن موقع ar.wikishia.net.

٣٧- مجمع البيان (أبو الفضل الطبرسي): ٦٦/٧.

ومن خلال هذا الوصف يتضح لك المعنى الآخر وهو: مؤدى كلمة (عبادي الصالحون) بما تحمله من دلالات تحمل معها كل ما يخطر في البال من القابليات التي أتخف بها هؤلاء الصالحون من البأس والصلاح والإصلاح، بما لهم من علم في تدبير هذا الكون وليس الأرض وحدها.

وأما ما ورد من أهل البيت عليه السلام في تفسيرها هي الرواية المتقدمة آنفاً عن مولانا الإمام الباقر عليه السلام، ورواية أخرى أوردها صاحب البحار عن أبي جعفر عليه السلام نقلاً عن كتاب (جامع الفوائد وتأويل الآيات الطاهرة) بإسناده، «عن أبي الورد أنه قال في قوله عز وجل: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ هم آل محمد صلوات الله عليهم»^{٣٨}، ويقول بعدها عن أبي صادق: "سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾؟ قال: نحن هم، قال: قلت ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾؟ قال: هم شيعتنا»^{٣٩}.

وقد وردت إشارات واضحة في ما ترجم من مزامير داود عليه السلام في جملة مقاطع:

١- في المزمور ٣٧ / جملة ٩: «...لأنّ عاملي الشرّ يقطعون والذين ينتظرون الربّ هم يرثون الأرض، بعد قليل لا يكون الشرير ...».

٢- وفي مكان آخر في نفس هذا المزمور / جملة ١١: "أما الودعاء فيرثون الأرض، ويتلذذون في كثرة السلامة".

٣- وكذلك في نفس المزمور ٣٧ / جملة ٢٧، يلاحظ هذا الموضوع بتعبير آخر: «لأنّ المتبركين بالله سيرثون الأرض، أما الملعونون فسينقطع أثرهم ...».

٣٨- بحار الأنوار (المجلدي): ٢٤ / ٣٥٨.

٣٩- نفسه: ٢٤ / ٣٥٨.

٤ - وجاء في هذا المزمور / الجملة ٢٩: "إِنَّ الصالحين سيرثون الأرض، وسيسكنون فيها إلى الأبد".

٥ - وجاء في الجملة ١٨ من نفس المزمور أعلاه: «إِنَّ الله يعلم أيام الصالحين، وسيكون ميراثهم أبدياً»^{٤٠}.

وقد وردت جملة من النصوص في العهدين القديم والجديد تشير إلى الإمام المهدي عليه السلام، فعلى سبيل المثال لا الحصر: جاء في سفر (إشعيا): «ستخرج من القدس بقية من جبل صهيون».

غيرة رب الجنود ستصنع هذا.

التحليل اللغوي للنص:

نلاحظ التطلع إلى خروج المنقذ مستقبلاً، وهذا ما يتضح من خلال صيغة الاستقبال للفعل ستخرج والفعل ستصنع.

أمّا في سفر زكريا:

فقد ورد التأكيد على هذا المعنى: ابتهجي كثيراً يا بنت صهيون هوذا ملكك سيأتي إليك عادل ومنصور^{٤١}.

التحليل اللغوي لنص:

نجد في هذه البشارة أيضاً التأكيد على مجيء المنقذ في المستقبل من خلال صيغة الاستقبال لفعل سيأتي. كما نلاحظ أيضاً التأكيد في بشارة (أشعيا وزكريا) على خروج المنقذ من (جبل صهيون). والجدير بالذكر أنه الإمام

٤٠ - ط: منتخب الأثر: ١٢٤. ونور الأبصار: ١٤٣.

٤١ - ط: أهل البيت في الكتاب المقدس (كاظم النصيري): ١٢٢.

المهدي ﷺ سيُخرج بعد ظهوره النسخة غير المحرّفة من الكتاب المقدس (جبل صهيون) في القدس، ويُطلع اليهود على نصوص من البشارات المتعلقة بظهوره فيؤمن به الآلاف من اليهود^{٤٢}.

بشارة يوحنا (العهد الجديد) بالإمام المهدي ﷺ:

يمكن أن يلاحظ من خلال بشارة (يوحنا) الإشارة إلى الإمام المهدي ﷺ^{٤٣}.

إن هذا ما يشير إلى فكرة المخلص التي شاعت في كل الديانات التي سبقت الإسلام السماوية منها والوضعية، وسيجد لها جذورا ضاربة في القدم لا تخلو منها حضارة إنسانية ولا آمال بشرية تنشُد العدل وتسعى للسلام.

ولعل أقدم تلك النصوص ما وصل عن (أفلاطون) فيما حاول الإشارة إليه في كتابه (الجمهورية)، وتحدث عنه (نوستراداموس) في كتابه (المثويات).

ومثل ذلك ما عبر عنه الكاتب الفرنسي (صمويل بيكيت) في مسرحيته الشهيرة (في انتظار غودو)^{٤٤}.

ثالثاً: الوعد بالتمكين من الحكم على كل الأرض

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^{٤٥}، لقد جاءت الآية الشريفة مؤكدة بثلاث مؤكدات؛ وهي لام القسم، ونون التوكيد الثقيلة في

٤٢ - ظ: المصدر نفسه: ١٢٢-١٢٣.

٤٣ - ظ: العهد الجديد: سفر يوحنا ٦: ١٤-٧ / ص ٤٧٤ / الاصل العبري عن موقع: m-mahdi.com/main/articles.

٤٤ - ظ: <https://alia12.mam9.com/t87-topic>.

٤٥ - النور: ٥٥.

ثلاثة مواطن (ليست خلفهم... وليمكن لهم ليدلنهم) وأن المراد بذلك أنها نزلت في الإمام المهدي عليه السلام، فقد ورد في الغيبة للنعماني: ٢٤٠ ح ٣٥: عن أبي عبد الله عليه السلام في معنى قوله عز وجل - الآية -، قال:

« نزلت في القائم وأصحابه ».

وفي كمال الدين: ٣٥٥ - ٣٥٧ ضمن حديث عن الصادق عليه السلام ما يفيد أنها نزلت في القائم عليه السلام، وكذلك الغيبة للطوسي: ١٠٧ وص ١٠٨.

وفي ص ١١٠ من الغيبة بإسناده، عن إسحاق بن عبد الله بن علي بن الحسين في هذه الآية:

* ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مَثَلٍ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ﴾^{٦٦}، قال: قيام القائم عليه السلام من آل محمد عليه السلام، قال: وفيه نزلت: * ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ...﴾^{٦٧}، قال: نزلت في المهدي. ومثله في تأويل الآيات: ٥٩٦، وينابيع المودة: ٥١٠، عن إسحاق بن عبد الله، عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، والظاهر أن « بن » بين عبد الله، وعلي مصحف من « عن » في الغيبة.

” وقال في مجمع البيان: ١٥٢ / ٧ - ذيل الآية - : " والمروي عن أهل البيت عليه السلام أنها في المهدي من آل محمد عليه السلام، وروى العياشي بإسناده، عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قرأ الآية وقال: هم والله شيعتنا أهل البيت، يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل مناء وهو مهدي هذه الأمة، وهو الذي قال رسول الله عليه السلام: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يأتي رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً). وروي مثل ذلك عن أبي جعفر، وأبي عبد الله. فعلى هذا يكون

٤٦- الذاريات: ٢٣.

٤٧- النور: ٥٥.

المراد بـ* (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) * النبي وأهل بيته صلوات الرحمن عليهم، وتضمنت الآية البشارة لهم بالاستخلاف والتمكن في البلاد، وارتفاع الخوف عنهم عند قيام المهدي عليه السلام منهم^{٤٨}. ٦٦

ومثله في ينابيع المودة، عن علي بن الحسين عليه السلام قال: (هذه الآية نزلت في القائم المهدي)^{٤٩}.

ولا شك ولا ريب أن وعد الله في الاستخلاف للذين آمنوا وعملوا الصالحات قد ورد في القرآن ثلاث مرات في المائدة: ٩، والفتح: ٢٩ وكلتاها في وعد الآخرة من الجزاء والعطاء، أما في سورة النور فالأمر يتحدث عن عملية تغيير كبرى في تحقيق الوعد الإلهي الذي أشارت إليه آيات آخر سنمر بها، والله لا يخلف الميعاد، وقد ورد عن الإمام المهدي عليه السلام من الدعاء ما يشير إلى ذلك: "يا من لا يخلف الميعاد، أنجز لي ما وعدتني، واجمع لي أصحابي، وصبرهم وانصبرني على أعدائك.. سيدي أنت الذي مننت علي بهذا المقام، وتفضلت به عليّ دون كثير من خلقك، أسألك أن تصلي علي محمد وآل محمد، وأن تنجز لي ما وعدتني، إنك أنت الصادق، ولا تخلف الميعاد، وأنت على كل شيء قدير"^{٥٠}.

ومنه قوله تعالى ذاكراً أمر الخلافة بصورة (التمكين)، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^{٥١}، فقد وردت الروايات فيها عن

٤٨- وانظر تفسير فرات الكوفي: ٢٨٨ ح ٣٨٩ و ٣٩١، والكافي: ١ / ١٩٣ ح ٣، وكفاية الأثر: ٥٩ وص ٦٠، والاحتجاج: ١ / ٢٥٦، والبحار: ٢٤ / ١٦٦ ح ١٢ و ١٤، وج ٢٥ / ٧٣ ح ٦٣، وج ٣٦ / ٣٠٦ ح ١٤٤، وج ٥١ / ٥٤ ح ٣٤، وص ٥٨ ح ٥٠ وص ٦٦ ح ٤، وج ٥٣ / ٤٧.

٤٩- ينابيع المودة: ٤٢٥ وثله في غيبة الطوسي: ١٢٠.

٥٠- مهج الدعوات: ٦٨.

٥١- الحج: ٤١.

أهل بيت العصمة عليهم السلام ما رواه محمد بن عباس، عن محمد بن الحسين بن حميد، عن جعفر بن عبد الله، عن كثير بن عياش، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام، في قول الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، قال: "هذه الآية لآل محمد المهدي عليه السلام وأصحابه، يملكهم الله مشارق الأرض ومغاربها، ويظهر الدين، ويميت الله عز وجل به وبأصحابه البدع والباطل كما أمات السفهة الحق، حتى لا يرى أثر من الظلم، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، والله عاقبة الأمور" ^{٥٢}، ولا ريب أن مقصود الله من كلمة (الأرض) هنا هو كل الأرض لا بعضها، فاللام هنا للعهد لا للجنس كما هو في الآية التي سبقت، فإن إقامة الصلاة مع التمكين في الأرض لا يكون كما ذهب إليه علماء الجمهور أنها نازلة في الخلفاء الراشدي وحسب فهو مخالف لمنطوق الآية في الاستخلاف والتمكين مع وجود كثير من الانحرافات والارتداد والخروج على إمام زمانهم.

كما لا يمكن تخصيص الآية بإقامة الصلاة في مسجد أو بلد بعينه دون كثير من البلدان.

«وهنا يطرح سؤال: وهو أنه ألم تقم في عصر النبي نفس الصلاة؟ عندما كان المهاجرون في المدينة، فإنها النقطة الأقرب إلى الذهن في الرد على أهل السنة، وألم تؤتى الزكاة في المدينة قبل وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله باعتباره حاكم المسلمين؟ ألم يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ هل من الصحيح القول بأن الله تعالى لا يهتم بعصر النبي صلى الله عليه وآله؟! ولكن يقول بأنكم أيها المهاجرون من أجل طردكم من بيوتكم إنني أوعدكم بأن تتمكنوا في

٥٢- تفسير القمي: ٧٨/٢؛ البرهان في تفسير القرآن: ٨٩٢/٣.

الأرض لبرهة من الزمن وتحكموا!!! كلا إن هذه الأمور تدل على أن:
"الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ لَيَسَّ لَهَا عَلاَقَةٌ بِالْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَفَتْرَةٌ بَعْدَ
النبي، أي فترة حكم الخلفاء الثلاثة القصيرة"^{٥٣}.

” ومثله قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ
بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^{٥٤}، فقد ورد عن: "أمير المؤمنين (عليه السلام) في
كلامه لكميل بن زياد: بلى اللهم لا تخلو الأرض من حجة الله إما ظاهر
معلوم، أو خائف مغمور، لئلا تبطل حجج الله وبياناته، وحذرهم من
أن يشكوا أو يرتابوا فيطول عليهم الأمد فتقسوا قلوبهم، ثم قال (عليه السلام):
ألا تسمع قوله تعالى في الآية التالية لهذه الآية: ﴿اعلموا أن الله يحيي
الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾، أي يحييها الله
بعدل القائم عند ظهوره بعد موتها بجور أئمة الضلال"^{٥٥}. “

وقد ورد عن أئمة الهدى (عليهم السلام) تأويل هذه الآية: فعن "مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ
عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مِهْرَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ مُوسَى بْنِ سَعْدَانَ عَنْ عَبْدِ
الرَّحْمَنِ بْنِ الْحُبَّاجِ عَنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ (عليه السلام)، فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: (يُحْيِي الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا)، قَالَ: «لَيْسَ يُحْيِيهَا بِالْقَطْرِ، وَلَكِنْ يَنْعِثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رِجَالًا،
فَيُحْيِيُونَ الْعَدْلَ، فَتُحْيَا الْأَرْضُ لِإِحْيَاءِ الْعَدْلِ، وَلِإِقَامَةِ الْحَدِّ فِيهَا أَنْفَعُ فِي
الْأَرْضِ مِنَ الْقَطْرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا». وعن "مُحَمَّدُ بْنُ سَمَاعَةَ، عَنْ أَحْمَدَ
بْنِ الْحُسَيْنِ الْمِشْمِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مَحْبُوبٍ، عَنْ مُؤَمِّنِ الطَّاقِ، عَنْ سَلَامٍ
بْنِ الْمُسْتَنِيرِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ (عليه السلام)، فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)، قَالَ: يُحْيِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقَائِمِ (عليه السلام) بَعْدَ مَوْتِهَا،
يَعْنِي بِمَوْتِهَا كُفْرَ أَهْلِهَا وَالْكَافِرُ مَيِّتٌ"^{٥٦}.

٥٣ - مقال منشور لآية الله العظمى (الشيخ فاضل النكراني) (قده) وفيه مناقشات كبيرة لهذه الآية في
خصوصيتها بالإمام المهدي (عليه السلام) الموقع: lankarani.com/arabic/articles/7413

٥٤ - الحديد: ١٧

٥٥ - كتاب الغيبة (النعمان): ١/ ٣٠. ومثله في تأويل الآيات: ٢ / ٦٦٢، ح ١٤. إثبات الهداة: ٣ / ٥٣.

٥٦ - البرهان في تفسير القرآن (البحراني): ٥ / ٢٨٨-٢٨٩.

رابعًا: الظهور الحقيقي للإسلام على كل الأديان:

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، قد وردت الآية الكريمة بنفس الألفاظ في التوبة: ٣٣، والصف: ٩، ووردت في الفتح ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^{٥٧}.

” ورد في كمال الدين، عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) في قول الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، قال: والله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم عليه السلام، فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله العظيم ولا مشرك بالإمام إلا كره خروجه، حتى أن لو كان كافرًا أو مشركًا في بطن صخرة لقاتل يا مؤمن في بطني كافر فاكسرنى واقتله^{٥٨}. “

ومثله في مجمع البيان روى العياشي بالإسناد عن عمران بن ميثم، عن عباية أنه سمع أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، أظهر بعد ذلك؟ قالوا: نعم، قال: كلا، فوالذي نفسي بيده حتى لا تبقى قرية إلا وينادي فيها بشهادة أن لا إله إلا الله، بكرة وعشيًا^{٥٩}.

ولا ريب أن ما تشير إليه الآيات المباركات هو إمكان تحقق الدين الواحد في كل مكان من الأرض، وهذه الآية مفسرة للآية التي مضت في أن الوعد الإلهي بالاستخلاف هو استخلاف التمكين بالظهور الحقيقي

٥٧- الفتح: ٩.

٥٨- ظ: كمال الدين: ٦٧٠.

٥٩- ظ: مجمع البيان: ٥ / ٢٨٠.

للإسلام على كل دين وملة، فالهاء راجعة للدين كما أشار المفسرون وهو المتبادر من السياق، أو يكون الضمير راجعاً إلى الرسول، والمعنى ليظهر رسوله ويعلمه معالم الدين كلها وهو بعيد^{٦٠}.

وقد صرح المفسرون من مختلف المذاهب الإسلامية بأن هذا الوعد الحتمي الوقوع إنما يتحقق في عصر المهدي الموعود، حيث يظهر الإسلام على جميع الأديان، فيعم المشارق والمغارب^{٦١}. وتقام الدولة الإسلامية العالمية، لأن المقصود من الإظهار هو الغلبة والاستيلاء وليس مجرد قوة الحجة؛ لأن غلبة الحجة أمر حاصل ابتداء ولا يبشر الله عز وجل إلا بأمر مستقبل غير حاصل، كما استدل على ذلك الفخر الرازي في تفسيره^{٦٢}.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^{٦٣}، فقد ورد عن إمامنا الباقر (عليه السلام) أنه قال: "إذا قام القائم (عليه السلام) ذهبت دولة الباطل"^{٦٤}.

ومنه قوله تعالى في تفسير (العصر) من قوله: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾^{٦٥}، في رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) ورد أن المقصود من العصر في الآية زمن الظهور وخروج القائم (عليه السلام)^{٦٦}.

خامساً: الآيات الدالة على زمن الظهور:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾^{٦٧}.

٦٠- ظ: الميزان: ١٩ / ٢٥٥.

٦١- ظ: تفسير القرطبي: ٨ / ١٢ والتفسير الكبير ١٦ / ٤٠.

٦٢- ظ: المصدر نفسه: ١٦ / ٤٠.

٦٣- الإسراء: ٨١.

٦٤- ظ: الكافي: ٨ / ٢٨٧.

٦٥- العصر: ١.

٦٦- ظ: كمال الدين: ٢ / ٦٥٦.

٦٧- الأنعام: ١٥٨.

” يقول أبو بصير: قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام في قول الله عز وجل:

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا) يعني خروج القائم المنتظر مناء، ثم قال عليه السلام:

يا أبا بصير طوبى لشيعه قائمنا المنتظرين لظهوره في غيبته، والمطيعين له في ظهوره، أولئك أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ^{٦٨}.

وفي رواية أخرى، عن إمامنا الصادق "صلوات الله عليه" في قول الله: (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ) يعني في الميثاق، ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾، قال: الإقرار بالأنبياء، والأوصياء، وأمير المؤمنين خاصة.. قال: لا ينفَعُ نفسًا إِيْمَانُهَا لَأَنَّهَا سُلِبَتْ) ^{٦٩}.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ^{٧٠}، ورد في مضامين أحاديث أهل البيت عليهم السلام تأويل رائع لهذه الآية، في إرشاد المفيد: عنه عليه السلام قال: (إذا قام قائمنا أشرقَت الأرض بنور ربها واستغنى العباد عن ضوء الشمس ونور القمر، وذهبت الظلمة، ووضع الكتاب للحساب، وجيء بالنبيين والشهداء) ^{٧١}.

٦٨- ط: كمال الدين: ٢ / ٣٥٧.

٦٩- ط: الكافي: ١ / ٣٥٥.

٧٠- الزمر: ٦٩.

٧١- ط: الإرشاد: ٣٦٣.

قال العلامة القمي: الشهداء: الأئمة عليهم السلام، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة الحج: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾^{٧٢}، وتكونوا أنتم يا معشر الأئمة شهداء على الناس، وقضى بينهم بين العباد بالحق وهم لا يظلمون^{٧٣}.

سادسًا: ما نعت به المهدي عليه السلام في القرآن

لقد ورد في مضامين كلمات القرآن ما يشير إلى حقائق خاصة بالإمام المهدي عليه السلام ورد فيها عن أئمة الهدى تأويلها في المهدي من آل محمد عليهم السلام وهي كما يأتي:

أنه الغيب

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ اللَّهُ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾^{٧٤}، فقد ورد عنهم سلام الله عليهم تأويل الغيب بالإمام المهدي عليه السلام، ((بن بابويه: قال حدثنا علي بن أحمد (بن محمد) الدقاق رضي الله عنه قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي قال حدثنا موسى بن عمران النخعي عن عمه الحسين بن يزيد عن علي بن أبي حمزة عن يحيى بن القاسم قال: سألت الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿أَمْ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ..﴾^{٧٥} فقال: المتقون شيعة علي عليه السلام، والغيب (فد) هو الحجة القائم (الغائب)، وشاهد ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾^{(٧٦) ٧٧}.

٧٢- الحج: ٧٨.

٧٣- ط: التفسير الصافي (الفيض الكاشاني): ٤ / ٣٣١.

٧٤- يونس: ٢٠.

٧٥- البقرة: ٣-١.

٧٦- يونس: ٢٠.

٧٧- ط: البرهان في تفسير القرآن: ٣ / ٢١.

فالمشركون يطالبون النبي بآية مع وجود القرآن الكريم، والرد يأتي من الله على الانتظار لآية ما تزال في مطاوي الغيب يعد الله بها الناس جميعاً ويتأولها أهل البيت عليه السلام بالقائم المنتظر المهدي عليه السلام.

أنه الماء الغور

في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾^{٧٨}.

”ورد عن إمامنا الباقر عليه السلام أنه قال: "نزلت في القائم، يقول: إن أصبح إمامكم غائباً عنكم، لا تدرون أين هو، فمن يأتيكم بإمام ظاهر، يأتيكم بأخبار السماء والأرض" ^{٧٩}.
ومثلها عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في تأويلها قال عليه السلام: "إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فماذا تصنعون؟" ^{٨٠}.

أنه المضطر

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾^{٨١}، فقد جاء في تفسيرها وتأويلها ما رواه الشيخ المفيد (قده): "عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، في قول الله: ﴿أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، قال: هذه الآية نزلت في القائم عليه السلام، إذا خرج تعمم، وصلى عند المقام، وتضرع إلى ربه، فلا تُرد له راية أبداً" ^{٨٢}.

٧٨- تبارك: ٣٠.

٧٩- كمال الدين: ٣٠٥.

٨٠- المصدر نفسه: ٣٢٧.

٨١- النمل: ٦٢.

٨٢- البرهان في تفسير القرآن: ٣٢/١.

ومثله " عن علي بن إبراهيم القمي، قال: حدثني أبي، عن الحسن بن علي بن فضال، عن صالح بن عقبة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: "نزلت في القائم من آل محمد عليه السلام، هو والله المضطر، إذا صلى في المقام ركعتين، ودعا الله فأجابه، ويكشف السوء، ويجعله خليفة في الأرض"، وهذا مما ذكرنا أن تأويله بعد تنزيله " ^{٨٣}، ومثله " عن علي بن إبراهيم القمي، قال: حدثني أبي، عن الحسن بن علي بن فضال، عن صالح بن عقبة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: "نزلت في القائم من آل محمد عليه السلام، هو والله المضطر، إذا صلى في المقام ركعتين، ودعا الله فأجابه، ويكشف السوء، ويجعله خليفة في الأرض"، وهذا مما ذكرنا أن تأويله بعد تنزيله ^{٨٤}.

وكون المضطر من أسماء وصفات الإمام المهدي عليه السلام، والمضطر هنا ما تساوت فيه صيغتا اسم الفاعل واسم المفعول، وجذره الثلاثي ضرّ بتشديد الراء مثل: شدّ وعدّ، واسم الفاعل من الثلاثي المشدد الآخر غالباً ما تتساوى فيه الصيغتان اسم الفاعل واسم المفعول، وفي مجملها أن الإمام عليه السلام بين يدي ضر شديد هو فيه؛ إما قائم بصره على ما يرى من تجاوز الحرمات، أو هو ممن جرت عليه مقادير الله فهو مضطر مبتلى، وفي الحاليين هذا بيان لما يلقيه الإمام -صلوات الله عليه- من شدائد منذ ولادته إلى هذا اليوم، ونحن نزوره في دعاء الندبة: (أَيْنَ الْمُضْطَرُّ الَّذِي يُجَابُ إِذَا دَعَا؟) ^{٨٥}.

٨٣- تفسير القمي: ١٢٩/٢.

٨٤- المصدر نفسه: ١٢٩/٢ ومثله في (إثبات الهداة للطبرسي): ٥٧٦/٣.

٨٥- المزار الكبير (ابن المشهدي): ٥٧٨.

أنه بقية الله

ورد عن أئمة الهدى في تفسير قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^{٨٦}، فقد وردت أكثر من رواية في تفسير (بقية الله) على أوجه؛ منها: أنها طاعة الله، أو وصية الله، أو مراقبة الله، أو رزق الله. ووردت الروايات في مصاديق هذه الآية، "قال العلامة المجلسي: فسر أكثر المفسرين (بقية الله) بها (أبقاه الله) لهم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليهم من تطفيف المكيال والميزان، أو (إبقاء الله نعمته عليهم)، أو (ثواب الآخرة الباقية)، أو أن المراد (من أبقاه الله) في الأرض من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام لهداية الخلق، أو الأوصياء والأئمة الذين هم بقايا الأنبياء في أممهم والأخبار في ذلك كثيرة، وقد ورد أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام عند ذهابه إلى الشام أنه قال: (أنا بقية الله، يقول الله: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾)".^{٨٧} ثم أفرد الإمام المهدي عليه السلام بما ورد عنهم عليهم السلام أنه هو بقية الله، قال أمير المؤمنين عليه السلام: "هو بقية الله الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً".^{٨٨}

” وحين سئل الإمام الصادق عليه السلام: (هل يسلم على المهدي

بإمرة المؤمنين؟ قال: "إِنَّ هَذَا اللَّقْبَ مَخْتَصٌ بَعْلِي عليه السلام، إِنَّهَا

يُسَلَّمُ عَلَيْهِ بِ (السلام عليك يا بَقِيَّةَ اللَّهِ)".^{٨٩}

وقد ورد في بعض الروايات: إنَّ الإمام المهدي عليه السلام عند ظهوره يقرأ قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فينادي (أَنَا بَقِيَّةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ)، فيسلم عليه المسلمون ب: "السلام عَلَيْكَ يَا بَقِيَّةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ"^{٩٠}، ومعنى بقية الله

٨٦- هود: ٨٦.

٨٧- بحار الأنوار: ٢٤/ ٢١١- ٢١٢.

٨٨- الكافي: ١/ ٤١٠.

٨٩- الكافي: ١/ ٤١٠.

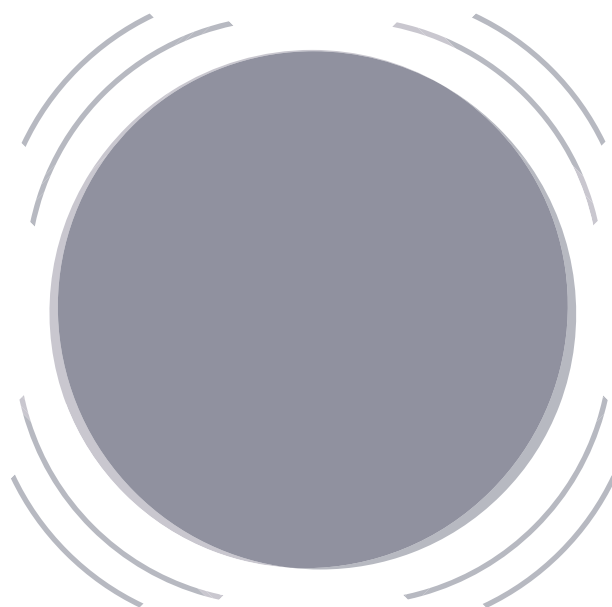
٩٠- كمال الدين: ١/ ٣٣١.

أي: بقية حججه في الأرض، والآية وإن كانت تحكي حال شعيب مع قومه وأنه قالها من أجل ردعهم عن إفسادهم المالي، فهي أيضًا يمكن من خلال ما يعرف بالجري حملها على ذلك، فشعيب عليه السلام يريد أن اتباع الناس لأوامر الله من خلال حججه هو السبيل الموصل إلى طاعته ورضوانه.

الخاتمة:

لقد أخذت مصطلحات الظهور وما يلازمها من القرآن مساحة واسعة نقلها لنا أهل البيت عليهم السلام في مضامين تأويل القرآن الكريم، فكان هنا التفسير الظاهر والتفسير الباطن الذي به يشير الأئمة عليهم السلام إلى بيان شافٍ في التعريف بالقضية المهدوية، وما يتبعها من علامات الظهور، وما يكون عليه أصحابه وصفة زمانه، ورسم معالم دولته، وطبيعة وكيفية تلك الدولة الخاتمة القائمة برحمة الله وما كتبه من عاقبة للمؤمنين.

إننا بحاجة لأن نتعرف على كل ذلك، والتوفيق لبيان مراد القرآن كما نزل على من خاطبوا به وهم محمد وآل محمد عليهم السلام بوصفهم تراجمة وحي الله، وعيبة علمه، والأدلاء على مراد القرآن.



حقوق أهل البيت عليهم السلام على سائر الخلق

السيد سليم الفاضلي

وردَ دعاء شريف عن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام في مودة وطاعة أهل البيت عليهم السلام، حيث قال عليه السلام:

(وَصَلِّ عَلَى خَيْرَتِكَ اللَّهُمَّ مِنْ خَلْقِكَ؛ مُحَمَّدٍ وَعِثْرَتِهِ الصُّفْوَةَ مِنْ بَرِّيَّتِكَ الطَّاهِرِينَ، وَاجْعَلْنَا لَهُمْ سَامِعِينَ وَمُطِيعِينَ كَمَا أَمَرْتَ..)^١.

اللغة

خَيْرَتِكَ: الخَيْرَةُ مصدر اسم الاختيار (خَيْرَتِي، وهو ما تختاره)^٢.

عِثْرَتِهِ: عِثْرَةُ الرجل: أصله. وعِثْرَةُ الرجل أقرباؤه من ولده وولد ولده^٣، العِثْرَةُ أهل البيت^٤.

الصُّفْوَةُ: الصُّفْوَةُ نَعْتُ الْقَوْمِ، وَهُمْ صِفْوَةُ اللَّهِ^٥.

بَرِّيَّتِكَ: الْبَرِّيَّةُ: الْخَلْقُ. أَبُو الْهَيْثَمِ: الْوَرَى وَالْبَرَى، مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، يُقَالُ: هُوَ خَيْرُ الْوَرَى وَالْبَرَى، أَيُ خَيْرُ الْخَلْقِ^٦.

١- الصحيفة السجادية - دعاء رقم ٣٤ - ١٥٨.

٢- كتاب العين: ٤ / ٣٠١.

٣- كتاب العين: ٢ / ٦٦.

٤- تهذيب اللغة: ٢ / ١٥٧.

٥- كتاب الجيم: ٢ / ١٨٢.

٦- تهذيب اللغة: ١٥ / ١٩٤.

من القضايا الأساسية التي امتاز بها الإسلام عن غيره من الأديان السماوية السابقة أَنَّ الله تعالى جعل لنبوته خاتم الأنبياء ﷺ إمتداداً إلى يوم خلاص الأرض؛ وذلك لما في دين الإسلام من خصوصية الدين الكامل، حيث قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^٧، وأيضاً جعل ما يحتاجه الدين من حفظه كرام معصومون من الخطأ كي يجعلون نور الهداية منيراً حتى يبلغ الله تعالى أمره في الدنيا.

هؤلاء الحفظة الكرام لهذا الدين المبين هم العترة الطاهرة المقدسة للذين وصفهم الله تعالى بأهل البيت في القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^٨.

والنبي الصادق الأمين منذ بدء رسالته قام ببيان وتوضيح دورهم الرسالي الكمالي بين الناس بعبارات شتى؛ من ذكر فضائلهم، وبيان مقامهم، واللعنة على عدوهم ومن يؤذيههم وهلم جرا.

والعجيب عندما نقرأ القرآن الكريم نجد كل الأنبياء قاموا بأدائهم الرسالي من دون أجر وجزاء مماثل من عامة الناس، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^٩ إلا الرسول الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين، حيث طالب الناس بأجر الرسالة!

٧- المائدة: ٣.

٨- الأحزاب: ٣٣.

٩- الأنعام: ٩٠.

لم هذا الطلب؟

أليس هو خير الأنبياء وأشرفهم، والكريم لا يسأل الناس؟!

ما هو الأجر المطلوب؟

قال فخر الدين الرازي: طلب الأجر على تبليغ الوحي لا يجوز، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء ﷺ أنهم صرّحوا بنفي طلب الأجرة، فذكر في قصة نوح ﷺ: (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)^{١٠}، وكذا في قصة هود وصالح، وفي قصة لوط وشعيب عليهم السلام، ورسلنا أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام، فكان بأن لا يطلب الأجر على النبوة والرسالة أولى.

الثاني: أن ﷺ صرح بنفي طلب الأجر في سائر الآيات، فقال: (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ)^{١١}، وقال: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)^{١٢}.

الثالث: العقل يدل عليه، وذلك لأن ذلك التبليغ كان واجباً عليه، قال تعالى: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^{١٣}، وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق بأقل الناس فضلاً عن أعلم العلماء.

١٠- الشعراء: ١٠٩.

١١- سبأ: ٤٧.

١٢- ص: ٨٦.

١٣- المائدة: ٦٧.

الرَّابِعُ: أَنَّ النَّبُوَّةَ أَفْضَلُ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْحِكْمَةِ: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^{١٤}، وَقَالَ فِي صِفَةِ الدُّنْيَا: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾^{١٥}، فَكَيْفَ يُحْسَنُ فِي الْعَقْلِ مُقَابَلَةُ أَشْرَفِ الْأَشْيَاءِ بِأَخْسَرِ الْأَشْيَاءِ!

الخَامِسُ: أَنَّ طَلَبَ الْأَجْرِ كَانَ يُوجِبُ التُّهْمَةَ، وَذَلِكَ يُنَافِي الْقَطْعَ بِصِحَّةِ النَّبُوَّةِ، فَثَبَّتَ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَطْلُبَ أَجْرًا الْبَتَّةَ عَلَى التَّبْلِيغِ وَالرَّسَالَةِ^{١٦}.

الْأَجْرُ الَّذِي طَالِبَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۖ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾^{١٧}.

” عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِمَوَدَّتِهِمْ؟ قَالَ: ”فَاطِمَةُ، وَوَلَدُهَا“^{١٨}.

وَقَالَ فخر الدين الرازي: وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ أَجْرًا؛ لِأَنَّ حُصُولَ الْمَوَدَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَمْرٌ وَاجِبٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^{١٩}، وَقَالَ ﷺ: ”الْمُؤْمِنُونَ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا“، وَالْآيَاتُ وَالْأَخْبَارُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ، وَإِذَا كَانَ حُصُولُ الْمَوَدَّةِ بَيْنَ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ وَاجِبًا، فَحُصُولُهَا فِي حَقِّ أَشْرَفِ الْمُسْلِمِينَ وَأَكَابِرِهِمْ أَوْلَى، وَقَوْلُهُ

١٤ - البقرة: ٢٦٩.

١٥ - النساء: ٧٧.

١٦ - تفسير الرازي: ٢٧ / ١٦٥.

١٧ - الشورى: ٢٣.

١٨ - المعجم الكبير للطبراني: ١١ / ٤٤٤. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم الرازي: ١٠ / ٣٢٧٧.

١٩ - التوبة: ٧١.

تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^{٢٠}، تَقْدِيرُهُ: وَالْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى لَيْسَتْ أَجْرًا، فَرَجَعَ الْحَاصِلُ إِلَى أَنَّهُ لَا أَجْرَ الْبَتَّةَ^{٢١}.

ولو سلمنا أَنَّ مودة القربى هي بمثابة طلب الأجر فنقول: هذا الأجر يرجع نفعه للناس لا لرسول الله ﷺ، وإنما الرسول الكريم ﷺ هو مَنْ أَرَشَدَهُمْ إِلَى الرِّشَادِ كَمَا فَعَلَ فِي طِيلَةِ حَيَاتِهِ الْمُبَارَكَةِ، فَهَذَا الْأَجْرُ الْمَطْلُوبُ هُوَ الَّذِي يُبْقِي الْإِسْلَامَ حَيًّا رَوِيًّا.

فائدة المودة لأهل البيت (عليه السلام)؟

قال الفخر الرازي: نَقَلَ صَاحِبُ "الْكَشَافِ": عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيدًا. أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مَغْفُورًا لَهُ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ تَائِبًا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مُؤْمِنًا مُسْتَكْمِلَ الْإِيمَانِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بَشَّرَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ بِالْجَنَّةِ، ثُمَّ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ يُزَفُّ إِلَى الْجَنَّةِ كَمَا تُزَفُّ الْعُرُوسُ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فَتُحَّ لَهْ فِي قَبْرِهِ بَابَانِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللَّهُ قَبْرَهُ مَزَارَ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ كَافِرًا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يُشَمَّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ)^{٢٢}.

٢٠- الشورى: ٢٣.

٢١- مفاتيح الغيب (تفسير الرازي): ٢٧ / ٥٩٤.

٢٢- المصدر نفسه: ٢٧ / ٥٩٥.

ومعنى الآل؟

وَأَنَا أَقُولُ: آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ هُمُ الَّذِينَ يُؤُولُ أَمْرُهُمْ إِلَيْهِ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَمْرُهُمْ إِلَيْهِ أَشَدَّ وَأَكْمَلَ كَانُوا هُمُ الْآلُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ فَاطِمَةَ وَعَلِيًّا وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ كَانَ التَّعَلُّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ التَّعَلُّقَاتِ، وَهَذَا كَالْمَعْلُومِ بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونُوا هُمُ الْآلُ، وَأَيْضًا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْآلِ، فَقِيلَ: هُمُ الْأَقَارِبُ، وَقِيلَ: هُمُ أُمَّتُهُ، فَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى الْقَرَابَةِ فَهُمْ الْآلُ، وَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى الْأُمَّةِ الَّذِينَ قَبِلُوا دَعْوَتَهُ فَهُمْ أَيْضًا آلٌ، فَثَبَتَ أَنَّ عَلَى جَمِيعِ التَّقْدِيرَاتِ هُمُ الْآلُ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَهَلْ يَدْخُلُونَ تَحْتَ لَفْظِ الْآلِ؟ فَمُخْتَلَفٌ فِيهِ.

” وَرَوَى صَاحِبُ "الْكَشَافِ" أَنَّهُ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ،

قِيلَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ قَرَابَتِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجَبَتْ عَلَيْنَا مَوَدَّتُهُمْ؟ فَقَالَ: عَلَيَّ، وَفَاطِمَةُ، وَابْنَاهُمَا) ٢٣. ثَبَتَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةَ أَقَارِبُ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا وَجَبَ أَنْ يَكُونُوا مَخْصُوصِينَ بِمَزِيدِ التَّعْظِيمِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وَجُوهٌ؛

الْأَوَّلُ: لَا شَكَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُحِبُّ فَاطِمَةَ ﷺ، حَيْثُ قَالَ ﷺ: (فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُؤْذِنِي مَا آذَاهَا) ٢٤. وَثَبَتَ بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يُحِبُّ عَلِيًّا وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ وَجَبَ عَلَى كُلِّ الْأُمَّةِ مِثْلُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ٢٥، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ ٢٦، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ٢٧، وَلِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ٢٨.

٢٣- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٤٦٧ / ٣.

٢٤- صحيح مسلم: ١٤١ / ٧.

٢٥- الأغراف: ١٥٨.

٢٦- النور: ٦٣.

٢٧- آل عمران: ٣١.

٢٨- الأحزاب: ٢١.

الثَّانِي: أَنَّ الدُّعَاءَ لِلْأَلِ مَنْصِبٌ عَظِيمٌ، وَلِذَلِكَ جُعِلَ هَذَا الدُّعَاءُ خَاتِمَةَ التَّشْهَدِ فِي الصَّلَاةِ، وَهُوَ قَوْلُ الإِمَامِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرِ الْكَاسِمِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ)^{٢٩}، وَهَذَا التَّعْظِيمُ لَمْ يُوجَدْ فِي حَقِّ غَيْرِ الْآلِ، فَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حُبَّ آلِ مُحَمَّدٍ وَاجِبٌ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:

يَا رَاكِبًا قَفَّ بِالْمَحْصَبِ مِنْ مَنِيَّ *** وَاهْتَفَ بِسَاكِنِ خَيْفِهَا وَالنَّاهِضِ
سَحَرًا إِذَا فَاضَ الْحَجِيجُ إِلَى مَنِيَّ *** فَيَضَا كَمَا نَظُمَ الْفَرَاتِ الْفَائِضِ
إِنْ كَانَ رَفُضًا حُبَّ آلِ مُحَمَّدٍ *** فَلْيَشْهَدْ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي^{٣٠}.

وهذا هو الذي صَرَّحَ بِهِ النَّبِيُّ الْأَعْظَمُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي حَدِيثِ الْمَتَوَاتِرِ الْمَعْرُوفِ بِالثَّقَلَيْنِ: زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ خَلِيفَتَيْنِ؛ كِتَابَ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِثْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَإِنَّمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْخَوْصُ)^{٣١}.

قال الإمام زين العابدين (عليه السلام): (وَصَلِّ عَلَى خَيْرَتِكَ اللَّهُمَّ مِنْ خَلْقِكَ؛ مُحَمَّدٍ، وَعِثْرَتِهِ الصُّفْوَةِ مِنْ بَرِيَّتِكَ الطَّاهِرِينَ)^{٣٢}.

أشار الإمام السجاد (عليه السلام) في هذا الدعاء إلى صفتين أساسيتين؛ وهما: الصفوة، والطهارة.

الصُّفْوَةُ نَقِيضُ الْكَدْرِ، وَصُفْوَةٌ كُلُّ شَيْءٍ خَالِصُهُ وَخَيْرُهُ^{٣٣}. قال: الصُّفْوَةُ نَعْتُ الْقَوْمِ، وَهُمْ صُفْوَةٌ لِلَّهِ^{٣٤}. وفلان صِفْوَتِي، أَيِ خَيْرَتِي وَخُلَصَانِي^{٣٥}.

٢٩- علل الشرائع: ٢ / ٣٣٥، باب: العلة التي من أجلها صارت الصلاة ركعتين وأربع سجعات، الحديث: ١.

٣٠- تفسير الرازي: ٢٧ / ١٦٦.

٣١- الطرائف: ١ / ١١٤.

٣٢- الصحيفة السجادية: ١٥٨، من دعاءه (عليه السلام) إذا ابتلى أو رأى مبتلي بفضيحة بذنب.

٣٣- كتاب العين: ٧ / ١٦٢.

٣٤- كتاب الجيم: ٢ / ١٨٢.

٣٥- جمهرة اللغة: ٢ / ٨٩٣.

والإمام الرضا عليه السلام هكذا يوضح الإصطفاء الإلهي لعترته نبيه صلى الله عليه وآله:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: فَأَخِيرَنَا هَلْ فَسَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِصْطِفَاءَ فِي الْكِتَابِ؟

” فَقَالَ الرَّضَا عليه السلام: فَسَّرَ الْإِصْطِفَاءَ فِي الظَّاهِرِ سِوَى الْبَاطِنِ فِي اثْنَيْ عَشَرَ مَوْطِنًا وَمَوْضِعًا؛ فَأَوَّلُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^{٣٦} وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ، هَكَذَا فِي قِرَاءَةِ أَبِي وَكْعَبٍ وَهِيَ ثَابِتَةٌ فِي مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَهَذِهِ مَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ، وَفَضْلٌ عَظِيمٌ، وَشَرَفٌ عَالٍ. “

وَالْآيَةُ الثَّانِيَّةُ فِي الْإِصْطِفَاءِ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^{٣٧}، وَهَذَا الْفَضْلُ الَّذِي لَا يَجْحَدُهُ أَحَدٌ مُعَانِدٌ أَصْلًا، لِأَنَّهُ فَضْلٌ بَعْدَ طَهَارَةٍ تَنْتَظَرُ.

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَحِينَ مَيَّزَ اللَّهُ الطَّاهِرِينَ مِنْ خَلْقِهِ، فَأَمَرَ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله بِالْمَبَاهِلَةِ بِهِمْ فِي آيَةِ الْإِبْتِهَالِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: يَا مُحَمَّدُ ﴿فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^{٣٨}، فَأَبْرَزَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله عَلِيًّا وَالْحُسَيْنَ وَفَاطِمَةَ عليها السلام، وَقَرَنَ أَنْفُسَهُمْ بِنَفْسِهِ... فَهَذِهِ خُصُوصِيَّةٌ لَا يَتَقَدَّمُ فِيهَا أَحَدٌ، وَفَضْلٌ لَا يَلْحَقُهُمْ فِيهِ بَشَرٌ، وَشَرَفٌ لَا يَسْبِقُهُمْ إِلَيْهِ خَلْقٌ، إِذْ جَعَلَ نَفْسَ عَلِيٍّ عليه السلام كَنَفْسِهِ.

وَأَمَّا الرَّابِعَةُ: فَإِخْرَاجُهُ صلى الله عليه وآله النَّاسَ مِنْ مَسْجِدِهِ مَا خَلَا الْعِثْرَةَ، حَتَّى تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، وَتَكَلَّمَ الْعَبَّاسُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَرَكْتَ عَلِيًّا وَأَخْرَجْتَنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: مَا أَنَا تَرَكْتُهُ وَأَخْرَجْتُكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَرَكَهُ وَأَخْرَجَكُمْ^{٣٩}.

٣٦- الشعراء: ٢١٤.

٣٧- الأحزاب: ٣٣.

٣٨- آل عمران: ٦١.

٣٩- المجلسي، محمدباقر بن محمدتقي، بحار الأنوار: ٢٥ / ٢٢٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

قصة: هكذا فسر الإمام الصادق (عليه السلام) الصفة

عَنْ حَنَانِ بْنِ سَدِيرٍ الصَّيْرِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ (عليه السلام) فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ مَا يُثَبِّتُ اللَّهُ شِيعَتَكُمْ عَلَى مُحَبَّتِكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ؟ قَالَ: أَوْلَمُ يُؤْمِنُ مِنْ قَلْبِكَ؟ قُلْتُ: بَلَى، إِلَّا أَنَّ قَلْبِي قَرَحَةٌ، ثُمَّ قَالَ لِحَادِمٍ لَهُ: ائْتِنِي بِبَيْضَةٍ بَيْضَاءَ، فَوَضَعَهَا عَلَى النَّارِ حَتَّى نَضِجَتْ، ثُمَّ أَهْوَى بِالْقَشْرِ إِلَى النَّارِ وَقَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي أَنَّهُ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ هَوَى مُبْغِضُنَا فِي النَّارِ هَكَذَا، ثُمَّ أَخْرَجَ صُفْرَتَهَا فَأَخَذَهَا عَلَى كَفِّهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّا لَصَفْوَةُ اللَّهِ كَمَا هَذِهِ الصُّفْرَةُ صَفْوَةُ هَذِهِ الْبَيْضَةِ، ثُمَّ دَعَا بِخَاتَمٍ فَضَمَّ، فَخَالَطَ الصُّفْرَةَ مَعَ الْبَيَاضِ وَالْبَيَاضَ مَعَ الصُّفْرَةِ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ آبَائِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَانَ شِيعَتُنَا هَكَذَا بِنَا مُحْتَلِطِينَ وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ قَالَ: إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ^{٤٠}.

الطهارة: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^{٤١}.

” وفي مجمع الزوائد للهيثمي عن أبي سعيد الخدري:

أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم
تطهيراً، فعدهم في يده، فقال: خمسة؛ رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وعلي،
وفاطمة، والحسن، والحسين (عليهم السلام).^{٤٢}

٤٠ - تفسير فرات: ٨٢. بحار الأنوار: ٦٥ / ٥٦.

٤١ - الأحزاب: ٣٣.

٤٢ - مجمع الزوائد للهيثمي: ٩ / ١٦٥، باب فضائل أهل البيت (عليهم السلام).

شأن النزول

لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ التَّطْهِيرِ جَمَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَأَخِي وَأُمِّي وَأَبِي، فَجَلَلْنَا وَنَفْسَهُ فِي كِسَاءٍ لَأُمِّ سَلَمَةَ خَيْرِي، وَذَلِكَ فِي حُجْرَتِهَا، وَفِي يَوْمِهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، وَهَؤُلَاءِ أَهْلِي وَعِزَّتِي، فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ (رضي الله عنها): أَذْخُلُ مَعَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ أَنْتَ عَلَى خَيْرٍ، وَإِلَى خَيْرٍ، وَمَا أَرْضَانِي عَنْكَ، وَلَكِنَّهَا خَاصَّةٌ لِي وَهُمْ، ثُمَّ مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ بَقِيَّةَ عُمُرِهِ حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، يَأْتِينَا فِي كُلِّ يَوْمٍ عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ فَيَقُولُ: الصَّلَاةَ يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرَّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا^{٤٣}.

قصة: الشامي مع زين العابدين (عليه السلام)

لَمَّا أَدْخَلَ سَبَايَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِلَى الشَّامِ فَأَقِيمُوا عَلَى دَرَجِ الْمَسْجِدِ حَيْثُ يَقَامُ السَّبَايَا وَفِيهِمْ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ (عليه السلام) وَهُوَ يَوْمُئِذٍ فَتَى شَابٍ، فَأَتَاهُمْ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَقَالَ لَهُمْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَتَلَكُمْ وَأَهْلَكَكُمْ وَقَطَعَ قَرْنَ الْفِتْنَةِ، فَلَمْ يَأْلُوا عَنْ شَتْمِهِمْ، فَلَمَّا انْقَضَى كَلَامُهُ قَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: أَمَا قَرَأْتَ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا قَرَأْتَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^{٤٤}؟ قَالَ: بلى، قَالَ: "فَنَحْنُ أَوْلَىكَ"، ثُمَّ قَالَ: أَمَا قَرَأْتَ: ﴿وَاتِّبِذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾^{٤٥}؟ قَالَ: بلى، قَالَ: "فَنَحْنُ هُمْ"، فَهَلْ قَرَأْتَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرَّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^{٤٦}؟ قَالَ: بلى، قَالَ: "فَنَحْنُ هُمْ"،

٤٣- بحار الأنوار: ١٠ / ١٤٢.

٤٤- الشورى: ٢٣.

٤٥- الاسراء: ٢٦.

٤٦- الأحزاب: ٣٣.

فرفع الشامي يده إلى السماء، ثم قال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ - ثلاث مرّات - اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ عَدُوِّ آلِ مُحَمَّدٍ، وَمِنْ قَتْلَةِ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، لقد قرأتُ القرآنَ فما شعرت بهذا قبل اليوم^{٤٧}.

قال الإمام زين العابدين (عليه السلام): (وَاجْعَلْنَا لَهُمْ سَامِعِينَ وَمُطِيعِينَ كَمَا أَمَرْتَ)^{٤٨}

الفقرة الثانية بعد بيان مقامهما الرفيع وشأنهما العالي، طلب من الله تعالى المطلب الحقيقي، والدعاء الذي ينتهي بنا إلى الهداية الحقيقية، والنجاة من الظلمات، وتحقيقه ضمن أمرين مهمين:

١. أن نكون سامعين: السمع: هي الأداة العجيبة والغريبة التي خلقها الباري في الإنسان بغض النظر عن خلقها الظاهري البديع وما فيها من دقائق، إنها الأولى التي تتفعل عند الجنين، والأخيرة التي تنطفئ عند موت الإنسان.

ونجد القرآن الكريم يلوم ويذم الضالّين بأنهم لم يسمعوا! ولو كانوا يسمعون لتفكروا، ولو تفكروا لعرفوا الحق من الباطل واهتدوا، حيث قال تعالى: ﴿وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلَٰلْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^{٤٩}.

٤٧ - . أمالي الصدوق: ١٦٦. والاحتجاج للطبرسي: ١٥٧. واللهوف على قتلى الطفوف: ١٧٦. وبحار الأنوار: ٤٥ / ١٥٦ و ١٦٦.

٤٨ - الصحيفة السجادية: ١٥٨، من دعاءه (عليه السلام) إذا ابتلى أو رأى مبتلي بفضيحة بذنب.

٤٩ - الأعراف: ١٧٩.

” والإمام عليه السلام في دعائه ركّز على هذه الأداة الهامة البالغة في حركة الانسان نحو الهداية، وأيضاً نجد بأن الإمام عليه السلام أكد عليها في رسالة الحقوق وبين بأنها من ضمن حق السمع: (وَأَمَّا حَقُّ السَّمْعِ: فَتَنْزِيهِهُ عَنْ أَنْ تَجْعَلَهُ طَرِيقًا إِلَى قَلْبِكَ إِلَّا لِفُؤْهَةٍ كَرِيمَةٍ تُحَدِّثُ فِي قَلْبِكَ خَيْرًا أَوْ تَكْسِبُكَ خُلُقًا كَرِيمًا، فَإِنَّهُ بَابُ الْكَلَامِ إِلَى الْقَلْبِ، يُؤَدِّي إِلَيْهِ ضُرُوبُ الْمَعَانِي عَلَى مَا فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)°١.

وذلك لما في المسموعات من آثارٍ وضعية على قلب الإنسان ووعيه، وعبر عنه باب الكلام إلى القلب.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: (عَوِّدْ أذُنَكَ حُسْنَ الْإِسْتِمَاعِ، وَلَا تَصْغِرْ إِلَّا إِلَى مَا يَزِيدُ فِي صَلَاحِكَ إِسْتِمَاعُهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُصْدِي الْقُلُوبَ وَيُوجِبُ الْمَذَامَ)°٢.

أي: درّب سمعك على حسن الاستماع وذلك الإنصات لما يفيدك علماً وعملاً في الدنيا والآخرة، لأن الاستماع إلى غير ذلك؛ من اللغو، والغيبة، والكذب، والباطل، وشبهة يجعل قلبك مظلماً، ويبعده عن النقاء والهداية، كما أن الاستمرار في سماع الباطل من القول يوثر فيك شيئاً فشيئاً وتصبح من أهل الباطل والخطأ فيذموك الناس على سوء فعلك وتصرفك.

وأفضل الاستماع هو سماع صوت القرآن، حيث قال رسول الله ﷺ:

(مَنْ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ كَتَبَتْ لَهُ حَسَنَةً مُضَاعَفَةً، وَمَنْ تَلَا آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)°٣.

٥٠- رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام: ١٤، حق السمع.

٥١- غرر الحكم: ١/ ٤٥٧.

٥٢- كنز العمال: ٥١٨.

قصة: صعق المارة من استماع صوت تلاوة الإمام السجاد عليه السلام

عن علي بن محمد النوفلي، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام قَالَ: (ذَكَرْتُ الصَّوْتَ عِنْدَهُ، فَقَالَ: إِنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ قُرْبًا مَرَّ بِهِ الْمَارُّ فَصَعِقَ مِنْ حُسْنِ صَوْتِهِ، وَإِنَّ الْإِمَامَ لَوْ أَظْهَرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا لَمَا احْتَمَلَهُ النَّاسُ مِنْ حُسْنِهِ، قُلْتُ: وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِالنَّاسِ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَحْمِلُ النَّاسَ مِنْ خَلْفِهِ مَا يُطِيقُونَ)^{٥٣}، أي: يرفع صوته ويقلله حسب طاقة الناس في سماعهم، فصوته العذب الجميل الملى بالمعنوية والبعض لا يتحملون سماع ذلك.

٢. وَمُطِيعِينَ كَمَا أَمَرْتُ: من بعد استماع القول الحسن من الطبيعي يأتي دور العمل وتطبيق المسموع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأُولَاءُ﴾^{٥٤}.

وطاعة المعصومين هي طاعة الله تعالى، حيث جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^{٥٥}.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ فَلْيَعْمَلْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَلْيَتَّبِعْنَا، أَلَمْ يَسْتَمِعْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾^{٥٦}؟ وَاللَّهُ لَا يُطِيعُ اللَّهُ عَبْدٌ أَبَدًا إِلَّا أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي طَاعَتِهِ اتِّبَاعَنَا، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَتَّبِعُنَا عَبْدٌ أَبَدًا إِلَّا أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَلَا وَاللَّهُ لَا يَدْعُ أَحَدٌ اتِّبَاعَنَا أَبَدًا إِلَّا أَبْغَضْنَا، وَلَا وَاللَّهُ لَا يُبْغِضُنَا أَحَدٌ أَبَدًا إِلَّا عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ مَاتَ عَاصِيًا لِلَّهِ أَخْرَاهُ اللَّهُ وَأَكْبَهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)^{٥٧}.

٥٣- أصول الكافي: ٢/ ٦١٥.

٥٤- الزمر: ١٨.

٥٥- النساء: ٥٩.

٥٦- آل عمران: ٣١.

٥٧- المجلسي، محمدباقر بن محمدتقي، بحار الأنوار: ٧٥/ ٢٢٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

” وهكذا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يشرح أثر الطاعة لله تعالى: (إِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ نَجَاحُ كُلِّ خَيْرٍ يُتَغْنَى، وَنَجَاةُ مَنْ كُلِّ شَرٍّ يُتَّقَى، وَإِنَّ اللَّهَ يَعِصِمُ مَنْ أَطَاعَهُ، وَلَا يَعْتَصِمُ مِنْهُ مَنْ عَصَاهُ، وَلَا يَجِدُ الْهَارِبُ مِنَ اللَّهِ مَهْرَبًا) ٥٨.

وأهل البيت (صلوات الله عليهم) بالطاعة لله ولرسوله اصطفاهم الله على خلقه وولاهم أمر خلقه، كما المذكور في الرواية المفصلة:

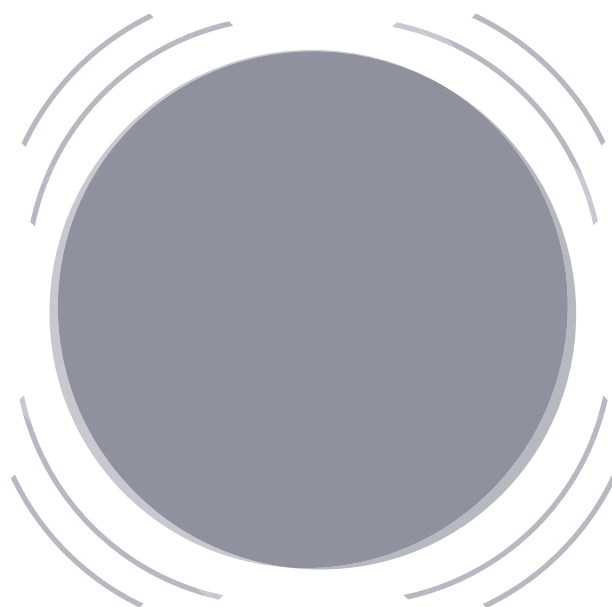
عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ (رَحِمَهُ اللَّهُ) قَالَ: (دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ قَالَ: يَا سَلْمَانُ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا وَلَا رَسُولًا إِلَّا جَعَلَ لَهُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَرَفْتُ هَذَا مِنَ الْكِتَابَيْنِ، قَالَ: يَا سَلْمَانُ فَهَلْ عَلِمْتَ نَقَبَائِي الْإِثْنَيْ عَشَرَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِلْإِمَامَةِ مِنْ بَعْدِي؟ فَقُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ:

يَا سَلْمَانُ خَلَقَنِي اللَّهُ مِنْ صَفَاءِ نُورِهِ فَدَعَانِي فَأَطَعْتُهُ، وَخَلَقَ مِنْ نُورِي عَلِيًّا فَدَعَاهُ إِلَى طَاعَتِهِ فَأَطَاعَهُ، وَخَلَقَ مِنْ نُورِي وَنُورِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاطِمَةَ فَدَعَاها فَأَطَاعَتْهُ، وَخَلَقَ مِنِّي وَمِنْ عَلِيٍّ وَمِنْ فَاطِمَةَ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَدَعَاهُمَا فَأَطَاعَاهُ، فَسَمَّانا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِخَمْسَةِ أَسْمَاءٍ مِنْ أَسْمَائِهِ: فَاللَّهُ الْمُحْمُودُ وَأَنَا مُحَمَّدٌ، وَاللَّهُ الْعَلِيُّ وَهَذَا عَلِيٌّ، وَاللَّهُ فَاطِرٌ وَهَذِهِ فَاطِمَةُ، وَاللَّهُ الْإِحْسَانُ ٥٩ وَهَذَا الْحَسَنُ، وَاللَّهُ الْمُحْسِنُ وَهَذَا الْحُسَيْنُ، ثُمَّ خَلَقَ مِنْ نُورِ الْحُسَيْنِ تِسْعَةَ أَيْمَةٍ فَدَعَاهُمْ فَأَطَاعُوهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ سَاءَ مَبْنِيَّةً، أَوْ أَرْضًا مَدْحِيَّةً، أَوْ هَوَاءً، أَوْ مَاءً، أَوْ مَلَكًا، أَوْ بَشَرًا، وَكُنَّا بِعِلْمِهِ أَنْوَارًا نُسَبِّحُهُ وَنُسَمِّعُ لَهُ وَنُطِيعُ.

٥٨- بحار الأنوار: ١٧٨ / ٦٨ و ٧٠ / ٣٩٤.

٥٩- لعل الصحيح: والله ذو الاحسان، أو قديم الاحسان.

فَقَالَ سَلْمَانُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَيِّ أُمَّي مَا لِمَنْ عَرَفَ هَؤُلَاءِ؟
فَقَالَ: يَا سَلْمَانُ مَنْ عَرَفَهُمْ حَقَّ مَعْرِفَتِهِمْ وَاقْتَدَى بِهِمْ فَوَالِي وَلِيَّهِمْ وَتَبَرَّأَ
مِنْ عَدُوِّهِمْ فَهُوَ وَاللَّهِ مِنَّا يَرُدُّ حَيْثُ نَرُدُّ، وَيَسْكُنُ حَيْثُ نَسْكُنُ، قُلْتُ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ يَكُونُ إِيْمَانُ بِهِمْ بِغَيْرِ مَعْرِفَتِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ؟ فَقَالَ: لَا يَا
سَلْمَانُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَنَّى لِي بِهِمْ؟ قَالَ: قَدْ عَرَفْتُ إِلَى الْحُسَيْنِ،
ثُمَّ سَيِّدِ الْعَابِدِينَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بَاقِرُ عِلْمِ الْأَوَّلِينَ
وَالْآخِرِينَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، ثُمَّ ابْنُهُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ لِسَانُ اللَّهِ الصَّادِقُ،
ثُمَّ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ الْكَاظِمُ غَيْظُهُ صَبْرًا فِي اللَّهِ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرِّضَا
لِأَمْرِ اللَّهِ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَوَادُ الْمُخْتَارُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ
الْهَادِي إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الصَّامِتُ الْأَمِينُ الْعَسْكَرِيُّ، ثُمَّ ابْنُهُ حُجَّةُ
بُنِ الْحَسَنِ الْمُهْدِيُّ النَّاطِقُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ، قَالَ سَلْمَانُ: فَسَكَتُ، ثُمَّ قُلْتُ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ لِي بِإِذْرَاكِهِمْ، قَالَ: يَا سَلْمَانُ إِنَّكَ مُدْرِكُهُمْ وَأَمْثَالُكَ
وَمَنْ تَوَلَّاهُمْ بِحَقِيقَةِ الْمَعْرِفَةِ، قَالَ سَلْمَانُ: فَشَكَرْتُ اللَّهَ كَثِيرًا^{٦٠}.



أسرار السماوات السبع والأرضون السبع

رسول التميمي

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد
وعلى آله الطيبين الطاهرين.

في ظل الارتقاء والسمو نحو الكمال البشري، والوصول إلى سبل الخير
والهداية وبناء مجتمع قيم، يتكلم بلغة التماسك والمحبة، فلا يكمل ذلك إلا
بتطبيق العلوم الطبيعية أو الدينية بالصورة الصحيحة.

فمن هذا المنطلق ارتأيت أن أبين بعض معالم العلوم وأسرار خلق
الكون، حيث اقتصرنا بذكر خلق السماوات والأرض وهذا ما ستحدث
عنه في هذا المطلب بطريقة موجزة ومختصرة.

فتألف هذا البحث الميسر من عشر عُشر معشار من الآفاق والأسرار
العلمية في نشوء الكون؛ ومنها السماوات والأرض، مستعينين بذلك
بالشواهد القرآنية وأحاديث أهل البيت (عليه السلام) في هذا الجانب، فنسأل الله أن يوفق
الجميع للعلم والنظر والمعرفة والتفكير في كيفية بدء الخلق، إنه سمع مجيب.

آيات قرآنية حول السماوات والأرض:

ورد اللفظ المفرد لكلمة (السماوات) في القرآن الكريم (١٢٠) مرة، بينما كلمة (السماوات) جاءت بلفظ الجمع (١٩٠) مرة، فيصبح المجموع (٣١٠) مرة.

” ووردت كلمة (الأرض) (بضم الضاد) في القرآن الكريم (٣٤) مرة، بينما بلفظ الأرض (بفتح الضاد) وردت (٨٦) مرة، بينما بلفظ (الأرض) (بكسر الضاد) وردت (٣٣١) مرة، فيصبح المجموع (٤٥١) مرة بـ (ال التعريف). وجاءت بلفظ (أرضاً) مرتان، ولفظ (أرضكم) وردت (٣) مرات، ولفظ (أرضهم) وردت مرة واحدة، ولفظ (أرضنا) وردت (٣) مرات، ولفظ (أرضي) وردت مرة واحدة، فيكون المجموع الكلي من حيث التعريف والتنكير والمفرد والجمع هو (٤٦١) مرة.“

لذا سوف نذكر بعض الآيات حول السماوات والأرض لمحل الشاهد لا على سبيل الحصر؛ منها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة البقرة: ١٦٤.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الأعراف: ٥٤.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأعراف: ١٨٥.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ سورة الرعد: ٢.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ* وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ سورة إبراهيم: ٣٢-٣٣.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا* وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ سورة الفرقان: ٦١-٦٢.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ* يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ* ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ سورة السجدة: ٤-٦.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ سورة فاطر: ٤١.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنتَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ أَتَوْا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة فصلت: ٩-١٢.

١٠- قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ سورة ق: ٦.

١١- قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ سورة الذاريات: ٤٧.

١٢- قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿سورة الحديد: ١-٦.

١٣- قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ سورة الطلاق: ١٢.

١٤- قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿ سورة الملك: ٢-٥.

١٥- قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾
سورة النبا: ١٢.

١٦- قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمُكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ سورة النازعات: ٢٧-٣٢.

١٧- قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢٢.

١٧- قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ سورة الطارق: ١-٣.

١٨- قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۚ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ ۚ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الرعد: ٣.

١٩- قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ سورة هود: ٦.

٢٠- قال تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ سورة النحل: ١٣ .

٢١- قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبَرُونَ﴾ سورة النحل: ٤٩ .

٢٢- قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سورة النحل: ٦٥ .

٢٣- قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ سورة الإسراء: ٩٥ .

٢٤- قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ سورة الحج: ٦٥ .

٢٥- قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخُلُقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة العنكبوت: ٢٠ .

٢٦- قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ سورة لقمان: ١٦ .

٢٧- قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة غافر: ٦٤ .

٢٨- قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ سورة العنكبوت: ٥٦ .

٢٩- قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ سورة الطارق: ١٢

٣٠- قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا* وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها* وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا* وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا* وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ سورة الشمس: ١-٥ .

نشأة السماء والأرض:

قدّر العلماء اليوم عمر الأرض منذ أن شرعت قشرتها بالتجمد بأكثر من مليون سنة، وإذا كانت الأرض (وكذلك الكواكب السيارة) منفصلة من نجم كما هي عليه النظريات المطروحة، فإنها كانت أول انفصالها في الطور الغازي، ثم تبردت سريعاً بالإشعاع لصغر حجمها، فتحولت من حالة الغاز إلى حالة السيولة.

سوف نورد إليكم بعض الروايات التي تتحدث عن نشأة الكون؛ منها:

الرواية الأولى: عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَيْرَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَمَا كَانَ لِيَخْلُقَ الشَّرَّ قَبْلَ الْخَيْرِ، وَفِي يَوْمِ الْأَحَدِ وَالْإِثْنَيْنِ خَلَقَ الْأَرْضَيْنِ، وَخَلَقَ أَقْوَاتَهَا فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ أَقْوَاتَهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾^١، فليذلك

١- السجدة: ٤ .

أَمَسَكَتِ الْيَهُودُ يَوْمَ السَّبْتِ) ٢، فهذه الرواية تُبين الأيام التي خلقت السماوات والأرض ومن فيهن من الأفلاك والجبال والبحار وغيرها.

الرواية الثانية: عَنِ الْإِمَامِ الرِّضَا عَنْ آبَائِهِ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ: (كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام بِالْكُوفَةِ فِي الْجَامِعِ إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ أَشْيَاءَ، فَقَالَ: سَلْ تَفْقُهَا وَلَا تَسْأَلْ تَعْتُهَا، فَأَحَدَقَ النَّاسُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ فَقَالَ: خَلَقَ النُّورَ، قَالَ: فِمِمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ؟ قَالَ: مِنْ بُخَارِ الْمَاءِ، قَالَ: فِمِمَّ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: مِنْ زَبَدِ الْمَاءِ) ٣.

هذه الرواية تذكر لنا صورة إجمالية عن تركيب السماوات والأرض، كما أشار الله عز وجل في كتابه ذلك المعنى، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ٤.

الرواية الثالثة: عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَنِي وَخَلَقَ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ عليه السلام، حِينَ لَا سَمَاءَ مَبْنِيَّةٌ وَلَا أَرْضَ مَدْحِيَّةٌ، وَلَا ظُلْمَةٌ وَلَا نُورٌ، وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ، وَلَا جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: فَكَيْفَ كَانَ بَدْءُ خَلْقِكُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: يَا عَمَّ لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَنَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ خَلَقَ مِنْهَا نُورًا، ثُمَّ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أُخْرَى فَخَلَقَ مِنْهَا رُوحًا، ثُمَّ مَزَجَ النُّورَ بِالرُّوحِ فَخَلَقَنِي وَخَلَقَ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، فَكُنَّا نُسَبِّحُهُ حِينَ لَا تَسْبِيحَ، وَنُقَدِّسُهُ حِينَ لَا تَقْدِيسَ، فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُشْشِيَ خَلْقَهُ فَتَقَ نُورِي فَخَلَقَ مِنْهُ الْعَرْشَ، فَالْعَرْشُ

٢- تفسير العياشي: ٢/ ١٤٠.

٣- بحار الأنوار: ١٠/ ٧٥-٧٦.

٤- فصلت: ١١.

مِنْ نُورِي، وَنُورِي مِنْ نُورِ اللَّهِ، وَنُورِي أَفْضَلُ مِنَ الْعَرْشِ، ثُمَّ فَتَقَ نُورَ أَخِي عَلِيٍّ فَخَلَقَ مِنْهُ الْمَلَائِكَةَ، فَالْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورِ عَلِيٍّ، وَنُورُ عَلِيٍّ مِنْ نُورِ اللَّهِ، وَعَلِيٌّ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ فَتَقَ نُورَ ابْنَتِي فَخَلَقَ مِنْهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَالسَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ مِنْ نُورِ ابْنَتِي فَاطِمَةَ، وَنُورُ ابْنَتِي فَاطِمَةَ مِنْ نُورِ اللَّهِ، وَابْنَتِي فَاطِمَةُ أَفْضَلُ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَتَقَ نُورَ وَلَدِي الْحَسَنِ فَخَلَقَ مِنْهُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، فَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مِنْ نُورِ وَلَدِي الْحَسَنِ، وَنُورُ الْحَسَنِ مِنْ نُورِ اللَّهِ، وَالْحَسَنُ أَفْضَلُ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، ثُمَّ فَتَقَ نُورَ وَلَدِي الْحُسَيْنِ فَخَلَقَ مِنْهُ الْجَنَّةَ وَالْحُورَ الْعَيْنَ، فَالْجَنَّةُ وَالْحُورُ الْعَيْنُ مِنْ نُورِ وَلَدِي الْحُسَيْنِ، وَنُورُ وَلَدِي الْحُسَيْنِ مِنْ نُورِ اللَّهِ، وَوَلَدِي الْحُسَيْنُ أَفْضَلُ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْحُورِ الْعَيْنِ^٥.

هذه الرواية تبين أن أصل العرش والملائكة والسموات والأرض والشمس والقمر والجنة والحور العين هو من نور أصحاب الكساء الخمسة عليهم السلام.

الرواية الرابعة: قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته:

(ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتَقَ الْأَجْوَاءَ، وَشَقَّ الْأَرْجَاءَ، وَسَكَّائِكَ الْهُوَاءَ، فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاطِمًا تَيَّارُهُ، مُتَرَاكِمًا زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ، وَالزَّرْعُ وَالْقَاصِفَةِ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَّبَهَا إِلَى حَدِّهِ، الْهُوَاءَ مِنْ تَحْتِهَا فَتَيْقُ، وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقَهَا دَفِيقُ، ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحًا اعْتَقَمَ مَهَبَهَا، وَأَدَامَ مُرَبَّهَا، وَأَعَصَفَ مَجْرَاهَا، وَأَبْعَدَ مَنْشَأَهَا، فَأَمَرَهَا بِتَضْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ، وَإِنَارَةِ مَوْجِ الْبَحَارِ، فَمَخَضَتْهُ مَخَضَ السَّقَاءِ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ، تَرَدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ، وَسَاجِيهِ إِلَى مَائِرِهِ، حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ، وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامَهُ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ، وَجَوٍّ مُنْفَهَقٍ، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ

٥- بحار الأنوار: ١٥ / ١٠.

سَمَوَاتٍ، جَعَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجًا مَكْفُوفًا، وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفًا مَحْفُوظًا، وَسَمَكًا مَرْفُوعًا، بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعُمُهَا، وَلَا دِسَارٍ يَنْظُمُهَا، ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ، وَضِيَاءِ الثَّوَابِقِ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجًا مُسْتَطِيرًا، وَقَمَرًا مُنِيرًا، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ^٦.

” هذه الرواية هي جزء من الخطبة الأولى لأمير المؤمنين (عليه السلام) عندما تحدث فيها عن خلق العالم، والجدير بالذكر هو أن أول شيء خلق منه الكون هو الماء وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^٧ ومن مصدره تعود إليه جميع الكائنات والأفلاك، ثم انتقل أمير المؤمنين (عليه السلام) ببيان: بأنه تعالى سلط الريح القوة القاصفة والريح العقيمة بعد ذلك لأجل استقرار السماوات بعد أن تحول السائل إلى غاز كال دخان وانتشر في الفضاء، أما الزبد الذي تشكل على سطح السائل فقد خلقت منه الأرض.

الرواية الخامسة: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ، فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ وَالْإِعْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالْإِنْفِرَاجِ، أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَخَدَّ أَوْدِيَّتَهَا، فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ)^٨.

فهذه الرواية يُبين أمير المؤمنين (عليه السلام) فيها خلق الأرض بصورة إجمالية من ناحية ما يحيط بها أو حولها، حيث ذكر ذلك في خطبته رقم (١٨٤) في نهج البلاغة.

٦- نهج البلاغة (تحقيق: صبحي الصالح): ٤٠-٤١.

٧- الأنبياء: ٣٠.

٨- نهج البلاغة (تحقيق: صبحي الصالح): ٢٧٤.

الرواية السادسة: قال أمير المؤمنين (عليه السلام):

(وَكَانَ مِنْ أَقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنَعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّائِرِ، الْمُتَرَكِمِ الْمُتَقَاصِفِ يَسًّا جَامِدًا، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ اِزْتِاقِهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِه، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّه، وَأَرْسَى أَرْضًا يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُتَعَنِّجُ، وَالْقَمَقَامُ الْمُسَخَّرُ، قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ وَأَذَعْنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِحَشِيَّتِهِ، وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا وَنُشُوزَ مُتُونِهَا وَأَطْوَادَهَا، فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا، فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أَصُولُهَا فِي الْمَاءِ، فَأَنَهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا وَأَطَالَ أَنْشَارَهَا، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَادًا، وَأَرْزَهَا فِيهَا أَوْتَادًا، فَسَكَنْتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا أَوْ تَسِيخَ بِحَمْلِهَا أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا، فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِحَلْقِهِ مِهَادًا، وَبَسَطَهَا لِهَمِّ فِرَاشِهَا، فَوْقَ بَحْرِ جُبِّي رَاكِدٍ لَا يَجْرِي وَقَائِمٍ لَا يَسْرِي، تَكَرَّرُهُ الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمَخُّضُهُ الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَنْ يُخْشِيَ﴾^{٩-١٠}.

”

هذه الرواية يتحدث أمير المؤمنين (عليه السلام) عن أصل السماوات والأرض بالتفصيل في الخطبة الأولى من كتاب نهج البلاغة، حيث يبين فيها بأن السماوات والأرض كانتا متلاصقتا ففصلهما الله عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُمَا مِائِدًا وَجَنَّةً ۚ وَكَانَ بَيْنَهُمَا بَابٌ ۚ قَالُوا لَا تَنْفِرُ الْغَاسِقَاتُ فِي بَابِهَا وَلَا يَنْتَابِعُ الْبَحْرُ وَلَا تَذَرُ الْبَلَدَ ۚ فَأَنشَأَ اللَّهُ لِكُلِّ أَجْزَاءٍ مَخْلُوقَةٍ بَابًا ۚ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^{١١}.

“

٩- النازعات: ٢٦.

١٠- نهج البلاغة: خطبة رقم ٢١١ / ٣٢٨-٣٢٩.

١١- الأنبياء: ٣٠.

الرواية السابعة: قال أمير المؤمنين (عليه السلام):

(كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْجَلَةٍ، وَلُجَّ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ، تَلْتَطِمُ
أَوَاذِي أَمْوَاجِهَا، وَتَضْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتٍ أَثْبَاجِهَا، وَتَرْغُو زَبْدًا كَالْفُحُولِ عِنْدَ
هَيَاجِهَا، فَخَضَعَ جِمَاحُ الْمَاءِ الْمُتَلَاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا، وَسَكَنَ هَيْجُ أَرْتَمَائِهِ، إِذْ وَطِئَتْهُ
بِكُلِّكَلِهَا، وَذَلَّ مُسْتَحْذِيًّا، إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا، فَأَصْبَحَ بَعْدَ اضْطِحَابِ
أَمْوَاجِهِ سَاجِيًا مَقْهُورًا، وَفِي حَكَمَةِ الدُّلِّ مُنْقَادًا أَسِيرًا، وَسَكَنَتِ الْأَرْضُ
مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ، وَرَدَّتْ مِنْ نَحْوَةِ بَأْوِهِ، وَاعْتَلَّائِهِ، وَشُمُوحِ أَنْفِهِ، وَسُمُوءِ
غُلُوءِهِ، وَكَعَمْتِهِ عَلَى كِطْطَةِ جَرِيَّتِهِ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيْفَانِ وَثْبَاتِهِ) ١٢.

في هذه الرواية يتحدث أمير المؤمنين عن صفة الأرض ودحوها على الماء، حيث جاءت في خطبته رقم (٨٩) في نهج البلاغة.

خلق الجبال والينابيع:

قال (عليه السلام) أيضًا: (فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْتَافِهَا، وَحَمَلِ شَوَاهِقِ
الْجِبَالِ الشُّمُوحِ الْبُذْخِ عَلَى أَكْتَافِهَا، فَجَرَ يَنَابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينَ أَنْوَفِهَا،
وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبٍ بِيْدَهَا وَأَخَادِيدِهَا، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَّاتِ مِنْ
جَلَامِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاحِيْبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيْدَانِ
لِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطْعِ أَدِيمِهَا، وَتَغْلُغْلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جُوبَاتِ خِيَاشِيمِهَا،
وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقِ سُهُولِ الْأَرْضَيْنِ وَجَرَائِمِهَا، وَفَسَحَ بَيْنَ الْجَوِّ وَبَيْنِهَا، وَأَعَدَّ
الْهُوَاءَ مُتَنَسِّمًا لِسَاكِنِهَا، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا) ١٣.

١٢ - نهج البلاغة (تحقيق: صبحي الصالح): ١٣١-١٣٢.

١٣ - المصدر نفسه: ١٣٢.

خلق السحب والغيوم:

قال ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأَى الْأُبْهُارَ وَالْجِبَالَ وَالْحِطَّاءَ﴾: (ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ الْأَرْضِ، الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَابِهَا، وَلَا تَجِدُ جَدَاوِلَ الْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا، حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةً سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا، وَتُسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا، أَلْفَ عَمَامَهَا بَعْدَ افْتِرَاقِ لُحْيِهِ وَتَبَايُنِ قَزَعِهِ، حَتَّى إِذَا تَمَخَّصَتْ لُحَّةُ الْمَزْنِ فِيهِ وَالتَّمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفْفِهِ، وَلَمْ يَنْمِ وَمِصْهُ فِي كَنْهَوْرِ رَبَابِهِ وَمُتْرَاكِمِ سَحَابِهِ، أَرْسَلَهُ سَحَابًا مُتَدَارِكًا قَدْ أَسْفَ هَيْدُبُهُ، تَمْرِيهِ الْجُنُوبُ دَرَرَ أَهَاضِيهِ وَدَفَعَ شَايِيهِ) ١٤.

خلق النبات:

قال ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأَى الْأُبْهُارَ وَالْجِبَالَ وَالْحِطَّاءَ﴾: (فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرَكَ بَوَانِيهَا، وَبَعَاغَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعِبِّ الْمُحْمُولِ عَلَيْهَا، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الْأَرْضِ النَّبَاتَ، وَمِنْ زُغْرِ الْجِبَالِ الْأَعْشَابَ، فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا، وَتَزْدَهِي بِمَا أَلْبَسَتْهُ مِنْ رِيْطِ أَزَاهِيرِهَا، وَحَلِيَّةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا، وَجَعَلَ ذَلِكَ بَلَاغًا لِلْأَنْبَامِ، وَرِزْقًا لِلْأَنْعَامِ، وَخَرَقَ الْفَجَاجَ فِي آفَاقِهَا، وَأَقَامَ الْمَنَارَ لِلْسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِهَا) ١٥.

١٤ - المصدر نفسه: ١٣٢-١٣٣.

١٥ - نهج البلاغة: ١٣٣.

أَسْمَاءُ وَأَلْوَانُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ:

إِنَّ مِنْ أَسْرَارِ الْكَوْنِ هِيَ أَسْمَارُ وَأَلْوَانُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ أَهْلُ الْبَيْتِ (عليه السلام) عِنْدَمَا سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) عَنْ ذَلِكَ.

”الرواية هي: (عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا (عليه السلام) قَالَ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ (عليه السلام) قَالَ: حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ (عليه السلام) قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ (عليه السلام) قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ (عليه السلام) قَالَ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ (عليه السلام) قَالَ: كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِالْكُوفَةِ فِي الْجَامِعِ، إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَسَأَلَهُ عَنْ مَسَائِلَ؛ فَكَانَ فِيهَا سَأَلُهُ أَنْ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرْنِي عَنْ أَلْوَانِ السَّمَاوَاتِ وَأَسْمَائِهَا؟ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَسْمَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا رَفِيعٌ، وَهِيَ مِنْ مَاءٍ وَدُخَانٍ، وَأَسْمَ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ قَيْدُومٌ، وَهِيَ عَلَى لَوْنِ النُّحَاسِ، وَالسَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ أَسْمُهَا الْمَارُومُ، وَهِيَ عَلَى لَوْنِ الشَّبَةِ، وَالسَّمَاءِ الرَّابِعَةِ أَسْمُهَا أَرْقُلُون، وَهِيَ عَلَى لَوْنِ الْفِضَّةِ، وَالسَّمَاءِ الْخَامِسَةِ أَسْمُهَا هَيْفُون، وَهِيَ عَلَى لَوْنِ الذَّهَبِ، وَالسَّمَاءِ السَّادِسَةِ أَسْمُهَا عَرُوسٌ، وَهِيَ يَأْقُوتَةُ خَضِرَاءُ، وَالسَّمَاءِ السَّابِعَةِ أَسْمُهَا عَجَبَاءُ، وَهِيَ دُرَّةٌ بَيْضَاءُ) ١٦.

١٦- الخصال: ٢/ ٣٤٥، علل الشرائع: ٢/ ٥٩٣، بحار الانوار: ٥٥/ ٨٨.

المسافة بين السماوات السبع والأرضون السبع:

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ: (كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَكُتِفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَفَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ، بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ وَأَظْلَافِهِنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشُ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) ١٧.

” وعن النبي ﷺ أنه كان جالسا مع أصحابه يحدثهم فقال لهم: (هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذِهِ؟) (قالوا): هَذِهِ أَرْضٌ، هَلْ تَدْرُونَ مَا تَحْتَهَا؟ قالوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: أَرْضٌ أُخْرَى وَبَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، حَتَّى عَدَّ سَبْعَ أَرْضِينَ، بَيْنَ كُلِّ أَرْضَيْنِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ) ١٨.

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (الصادق) عليه السلام في خبر إدریس عليه السلام أنه قال ملك الموت: (غَلِظَ السَّمَاءُ الرَّابِعَةُ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمِنْ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمِنْ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ إِلَى الثَّانِيَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَكُلُّ سَمَاءٍ وَمَا بَيْنَهُمَا كَذَلِكَ) ١٩.

عَنِ ابْنِ نُبَاتَةَ قَالَ: (سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ قَالَ: مَدُّ الْبَصَرِ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَسُئِلَ: كَمْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؟ قَالَ: يَوْمٌ طَرَادُ الشَّمْسِ، وَسُئِلَ عَنِ الْمَجَرَّةِ: فَقَالَ: أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ، ثُمَّ أَعْلَقَهَا فَلَمْ يَفْتَحْهَا، وَسُئِلَ عَنِ الْقَوْسِ: فَقَالَ: أَمَانُ الْأَرْضِ كُلِّهَا مِنْ الْغَرَقِ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ فِي السَّمَاءِ الْخَبَرِ) ٢٠.

١٧- بحار الأنوار: ٥٥ / ١٠٢.

١٨- المصدر نفسه: ٥٥ / ١٠٣.

١٩- بحار الأنوار: ٥٥ / ٩٠.

٢٠- المصدر نفسه: ٥٥ / ٩٣.

وجاء في كتاب بحار الأنوار: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^{٢١}، قَالَ: (مُتَّهَى أَمْرِهِ مِنْ أَسْفَلِ الْأَرْضِينَ إِلَى مُتَّهَى أَمْرِهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ - يَعْنِي بِذَلِكَ يُنْزَلُ الْأَمْرُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَمِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فَذَلِكَ مِقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ - لِأَنَّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ)^{٢٢}.

أماكن الأرضون السبع:

قال الطبرسي (رضوان الله عليه) في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾^{٢٣}، وفي الأرض خلق مثلهن في العدد لا في الكيفية، لَأَنَّ كَيْفِيَةَ السَّمَاءِ مُخَالَفَةٌ لِكَيْفِيَةِ الْأَرْضِ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ مِثْلَ السَّمَاوَاتِ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَا خِلَافَ فِي السَّمَاوَاتِ أَنَّهَا سَمَاءٌ فَوْقَ سَمَاءٍ، وَأَمَّا الْأَرْضُونَ فَقَالَ قَوْمٌ: أَنَّهَا سَبْعُ أَرْضِينَ طَبَاقًا بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ كَالسَّمَاوَاتِ، لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ مُصَمَّمَةً لَكَانَتْ أَرْضًا وَاحِدَةً، وَفِي كُلِّ أَرْضٍ خَلَقَ خَلْقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى كَيْفَ شَاءَ. وَرَوَى أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا سَبْعُ أَرْضِينَ لَيْسَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، تَفْرُقُ بَيْنَهُنَّ الْبَحَارُ، وَتَظَلُّ جَمِيعُهُنَّ السَّمَاءُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِصَحَّةِ مَا اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهِ وَاشْتَبَهَ عَلَى خَلْقِهِ. وَقَدْ رَوَى الْعِيَاثِيُّ بِإِسْنَادِهِ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ (عليه السلام) قَالَ: بَسَطَ كَفِيَّهُ، ثُمَّ وَضَعَ الْيَمْنَى عَلَيْهَا فَقَالَ: هَذِهِ الْأَرْضُ الدُّنْيَا وَالسَّمَاءُ الدُّنْيَا عَلَيْهَا قُبَّةٌ، وَالْأَرْضُ الثَّانِيَةُ فَوْقَ سَمَاءِ الدُّنْيَا وَالسَّمَاءُ الثَّانِيَةُ فَوْقَهَا قُبَّةٌ، وَالْأَرْضُ الثَّالِثَةُ فَوْقَ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ وَالسَّمَاءُ

٢١- المعارج: ٤.

٢٢- بحار الأنوار: ٥٥ / ١٠٦.

٢٣- الطلاق: ١٢.

الثالثة فوقها قبة، حتى ذكر الرابعة، والخامسة، والسادسة، فقال: والأرض السابعة فوق السماء السادسة والسماء السابعة فوقها قبة، وعرش الرحمن فوق السماء السابعة، وهو قوله «سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن»، وإنما صاحب الأمر النبي ﷺ وهو على وجه الأرض، وإنما ينزل الأمر من فوق من بين السماوات والأرضين، فعلى هذا يكون المعنى:

تتنزل الملائكة بأوامره إلى الأنبياء، وقيل: معناه ينزل الأمر بين السماوات والأرضين من الله سبحانه بحياة بعض وموت بعض، وسلامة حي وهلاك آخر، وغنى إنسان وفقير آخر، وتصريف الأمور على الحكمة^{٢٤}.

سُكَّانِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعِ:

” عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ (عليه السلام) قَالَ: (سَأَلْتُهُ عَنْ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ؟ فَقَالَ: سَبْعُ سَمَاوَاتٍ لَيْسَ مِنْهَا سَمَاءٌ إِلَّا وَفِيهَا خَلْقٌ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأُخْرَى خَلْقٌ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى السَّابِعَةِ، قُلْتُ: وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: سَبْعٌ مِنْهُنَّ خَمْسٌ فِيهِنَّ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الرَّبِّ، وَاثْنَتَانِ هَوَاءَ لَيْسَ فِيهِمَا شَيْءٌ)^{٢٥}. “

ومن دعاء أمير المؤمنين (عليه السلام): (اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوْ الْمُكْشُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضًا لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرَى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفًا لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ، وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطًا مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ، وَرَبِّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَارًا لِلْأَنْعَامِ، وَمَدْرَجًا لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ، وَمَا لَا يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا لَا يُرَى، وَرَبِّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَادًا)^{٢٦}.

٢٤- مجمع البيان: ١٠ / ٣١٠، بحار الانوار: ٥٧ / ٧٥.

٢٥- بحار الانوار: ٥٥ / ٩٧.

٢٦- نهج البلاغة (تحقيق: صبحي الصالح): ٢٤٥.

وهناك خطبة صادرة من سيد البلغاء علي بن أبي طالب عليه السلام يصف فيها سكان السماوات السبع والأرضون السبع من الملائكة، ويذكر فيها صفاتهم وأحوالهم أيضاً، حيث قال عليه السلام: (ثُمَّ فَتَقَّ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا، فَمَلَأْنَهُنَّ أَطْوَارًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ؛ مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لَا يَتَّصِبُونَ، وَصَافُونَ لَا يَتَزَايِلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعِيُونِ، وَلَا سَهْوُ الْعُقُولِ، وَلَا فِتْرَةُ الْأَبْدَانِ، وَلَا غَفْلَةُ النَّسْيَانِ، وَمِنْهُمْ أَمْنَاءٌ عَلَى وَحْيِهِ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ، وَخُتَلَفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ، وَمِنْهُمْ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ، وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جَنَانِهِ، وَمِنْهُمْ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، وَالخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ، وَأَسْتَارُ الْقُدْرَةِ، لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ، وَلَا يُجِرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمُصْنُوعِينَ، وَلَا يُحَدِّثُونَ بِالْأَمَاكِنِ، وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ) ٢٧.

البطاقات الخاصة
بالمناسبات
النصف سنوية

شهر رجب الأصـب
شهر شعبان
شهر رمضان
شهر شـوال
شهر ذي القعدة
شهر ذي الحجة



مناسبات شهر رجب:

١ رجب: ذكرى مولد الإمام محمد الباقر عليه السلام سنة ٥٧ هـ (على رواية).

٢ رجب: ذكرى مولد الإمام علي الهادي عليه السلام سنة ٢١٢ هـ (على رواية).

٣ رجب: ذكرى وفاة الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام سنة ٢٥٤ هـ.

١٠ رجب: وفاة أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى عليها السلام سنة ٣ هـ

قبل الهجرة.

١٠ رجب: ذكرى مولد الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام سنة ١٩٥ هـ.

١٢ رجب: قدوم أمير المؤمنين عليه السلام إلى الكوفة واتخاذها مقراً لخلافته

سنة ٣٦ هـ.

١٣ رجب: ذكرى ميلاد أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

سنة ٢٢ قبل الهجرة (٣٠ سنة من عام الفيل).

١٥ رجب: وفاة العقيلة الحوراء زينب عليها السلام سنة ٦٢ هـ.

٢١ رجب: ولادة السيدة سكينة بنت الإمام الحسين.

٢٤ رجب: فتح حصون خيبر بيد أمير المؤمنين عليه السلام سنة ٧ هـ / عودة

جعفر الطيار وصحبه من الحبشة.

٢٥ رجب: شهادة الإمام موسى الكاظم عليه السلام سنة ١٨٣ هـ مسموماً في السجن.

٢٦ رجب: وفاة أبو طالب عم رسول الله صلى الله عليه وآله وكافله ٣ قبل الهجرة (على رواية).

٢٧ رجب: بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ١٣ قبل الهجرة / الإسراء والمعراج.



مناسبات شهر شعبان:

شعبان.. فرض صيام شهر رمضان سنة ٢هـ .

٣ شعبان: ذكرى مولد سبط النبي الأكرم الإمام الحسين (عليه السلام) سنة ٤هـ وقيل ٣هـ .

٤ شعبان: مولد العباس (عليه السلام) بن أمير المؤمنين سنة ٢٦هـ .

٥ شعبان: مولد الإمام علي بن الحسين السجاد (عليه السلام) سنة ٣٨هـ .

٨ شعبان: بداية الغيبة الصغرى للإمام المهدي (عليه السلام) .

١١ شعبان: مولد علي الأكبر بن الإمام الحسين سنة ٣٣هـ .

١٥ شعبان: ذكرى ولادة الحجة بن الحسن العسكري بقية الله

الأعظم سلام الله عليه وعلى آبائه سنة ٢٥٥هـ .



مناسبات شهر رمضان:

١ رمضان: وفاة السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام سنة ٢٠٨ هـ.

٢ رمضان: تولي الإمام الرضا عليه السلام ولاية عهد المأمون العباسي عام سنة ٢٠١ هـ.

٧ رمضان: وفاة أبو طالب عم الرسول وكافله سنة ١٠ بعد البعثة (على رواية).

١٠ رمضان: ذكرى وفاة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد عام الحزن (١٠ بعد البعثة والسنة الثالثة ق.هـ).

١٢ رمضان: يوم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في المدينة وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين علي عليه السلام.

١٥ رمضان: ولادة الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام سنة ٣ هـ.

١٧ رمضان: غزوة بدر الكبرى سنة ٢ هـ / ليلة الإسراج والمعراج.

١٩ رمضان: جرح أمير المؤمنين عليه السلام بسيف عبد الرحمن بن ملجم المرادي الخارجي.

٢٠ رمضان: فتح مكة ٨ هـ.

٢١ رمضان: استشهاد أمير المؤمنين علي عليه السلام متأثراً بجرحه سنة ٤٠ هـ.

١٨ - ٢٠ - ٢٢ : ليالي القدر من شهر رمضان.



مناسبات شهر شوال:

١ شوال: عيد الفطر المبارك.

٤ شوال: غزوة حُنين سنة ٨ هـ.

٥ شوال: - خروج أمير المؤمنين عليه السلام إلى صفين سنة ٣٧ هـ.

- دخول مسلم بن عقيل إلى الكوفة سنة ٦٩ هـ.

٨ شوال: هدم أضرحة أئمة أهل البيت عليهم السلام المدفونين في البقيع

في المدينة المنورة سنة ١٣٤٤ هـ.

١٥ شوال: - معركة أُحُد واستشهاد حمزة بن عبد المطلب عليه السلام

سنة ٣ هـ.

- غزوة الأحزاب أو الخندق سنة ٥ هـ.

- رُدَّت الشمس لأمر المؤمنين عليهم السلام بعد مغيبها مرتين: مرة في زمن

النبي صلى الله عليه وآله في مسجد الفضيل والمعروف بمسجد رد الشمس، ومرة

أخرى بعد وفاته صلى الله عليه وآله وذلك في أرض بابل سنة ٣٧ هـ.

٢٠ شوال: اعتقال الإمام الكاظم عليه السلام في المدينة بأمر من هارون

العبّاسي سنة ١٧٩ هـ.

٢٥ شوال: شهادة الإمام جعفر الصادق عليه السلام سنة ١٤٨ هـ وكان له

من العمر ٦٥ هـ.



مناسبات شهر ذي القعدة:

١ ذي القعدة: - ولادة السيِّدة المعصومة بنت الإمام الكاظم عليه السلام

سنة ١٧٣ هـ.

- صلح الحُدَيْبية سنة ٦ هـ.

١١ ذي القعدة: ولادة الإمام الرضا عليه السلام في المدينة المنورة سنة ١٤٨ هـ.

٢٣ ذي القعدة: شهادة الإمام الرضا عليه السلام (على رواية) سنة ٢٠٣ هـ.

٢٥ ذي القعدة: - دَخَوِ الْأَرْضَ، وَنَزَلَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَقَوَّاعِدَ

الْكَعْبَةِ مِنَ الْجَنَّةِ.

- خَرُجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى حَجَّةِ الْوَدَاعِ سنة ١٠ هـ.

٢٩ ذي القعدة: شهادة الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام سنة ٢٢٠ هـ.



مناسبات شهر ذي الحجة:

١ ذي الحجة: زواج النورين الإمام علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء عليهما السلام سنة ٢ هـ.

٢ ذي الحجة: ولادة الإمام علي بن محمد الهادي عليهما السلام سنة ٢١٢ هـ.

٧ ذي الحجة: استشهاد الإمام محمد الباقر عليهما السلام سنة ١١٤ هـ.

٨ ذي الحجة: - يوم التروية.

- خروج الإمام الحسين عليه السلام من مكة المكرمة إلى الكوفة.

٩ ذي الحجة: - يوم عرفة.

- استشهاد العبد الصالح سفير الإمام الحسين عليه السلام لأهل الكوفة مسلم بن عقيل مع هاني بن عروة سنة ٦٠ هـ.

١٠ ذي الحجة: عيد الأضحى المبارك.

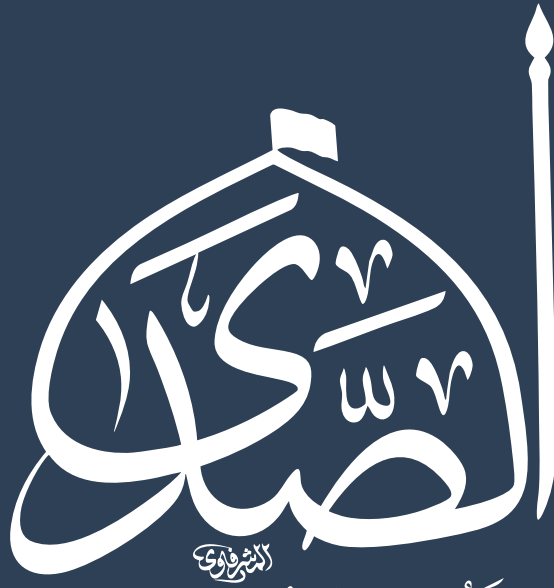
١٨ ذي الحجة: عيد الغدير الأغرس سنة ١٠ هـ، حيث بيعت المسلمين إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

٢٢ ذي الحجة: استشهاد ميثم التمار سنة ٦٠ هـ.

٢٣ ذي الحجة: استشهاد طفلي مسلم بن عقيل محمد وإبراهيم سنة ٦٢ هـ.

٢٤ ذي الحجة: - يوم المباهلة. - التصديق بالخاتم لأمر المؤمنين عليهم السلام.

٢٥ ذي الحجة: نزول سورة ﴿هل أتى على الإنسان﴾ في المدينة بحق أهل البيت عليهم السلام.



مَجْلَدُ الْفُكْرَةِ يُصَفُّ سَنَوِيَّةً

تصدر عن العتبة العباسية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية